

محفوظ قدّاش

الجزائر في العصور القديمة

ترجمة صالح عبّاد

المؤسسة الوطنية للكتاب
3، شارع زيروت يوسف
- الجزائر -

الجزائر في العصور القديمة




© المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1993 -
رقم النشر : 09 - 01 - 92 - 40

محفوظ قدّاش

الجزائر في العصور القديمة

ترجمة صالح عبّاد



المؤسسة الوطنية للكتاب
3، شارع زيروت يوسف
- الجزائر -

الفصل الأول

الجزائر في ما قبل التاريخ

. صور الفصول الخمسة الأولى مصدرها المركز الجزائري لأبحاث
الانثروبولوجيا وما قبل التاريخ والاثنوغرافيا، صور الفصول الأخرى صادرة عن
المصلحة الجزائرية للآثار القديمة، النقود، بديوان الأوسمة والآثار القديمة
للمكتبة الوطنية بباريس.

إن ما قبل تاريخ الجزائر بعيد عن أن يكون معروفا. شكّلت أعمال العشرين سنة الأخيرة تقدما كبيرا بالنسبة لما قبل تاريخ المغرب. وستقدم المنشورات المتعلقة بموقع تيرنيفين وحقل خنزير أبي قرنين تدقيقات مفيدة وستعيد النظر في الفرضيات التي تمّ إقترحها بعد.

عرفت الجزائر في الزمن الرابع فترات ماطرة يّسّرت معيشة الناس الأوائل القناصين وقاطفي ثمار السهول الخضراء التي أصبحت اليوم مناطق صحراوية. وخلف إنسان الزمن الرابع آثارا عديدة في الجزائر. فقد عثر على العديد من الأسلحة والأدوات المتنوعة جدا، في مواضع ورشات ومعسكرات، ابتداء من رؤوس السهام والمكاشط الى الفؤوس المصنوعة من الحجر المصقول والابر العظيمة والفخاريات المزينة برسوم هندسية. كما عثر على بيض النعام وعظام حيوانات داجنة.

يسمح إكتشاف أشباه الكرات ذات الوجوه المتعددة في 1948 بعين حنش بالقرب من سطيف، بتأكيد وجود الكائن البشري في أواخر الزمن الثالث كما يجيز إكتشاف 1954 لفكي بيتيكانثروبوس Pithecanthropien ، في مرحلة تيرنيفين، الاعتقاد في أن الجزائر كانت مهدا من مهد البشرية. لا تزال كرونولوجية أزمنة ما قبل التاريخ صعبة التنظيم.

الباليوليتي (العصر الحجري القديم) .

تختلف جزائر ما قبل التاريخ عن جزائرننا، فالتضاريس والمناخ، وبالتالي المظهر الحائي والنباتات، والحيوانات لم تكن هي التي توجد اليوم. وتسمح معطيات الباليونتولوجية باستنتاج « حالة ديمومة مناخ حار ورطب حتى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل ». فالقيل وفرس النهر ووحيد القرن والبقریات والزرافات والنعام كانت منتشرة جدا خلال الزمن الرابع. كما أعطى انفصال إفريقيا وأوربا والحاجز الصحراوي لهذه الحيوانات طبيعتها المختلفة، فيما بعد. فقد ارتقت نحو الحيوانات الحالية بانكماش حجمها عن حيوانات الزمن الرابع بادخال الحيوانات الأليفة مثل الحصان والجمل.

إننا نعرف على الناس الأوائل الذين عاشوا على الأرض الجزائرية بواسطة أدواتهم. فإذا رجعنا الى أدواتهم لتحديد مختلف الفترات يبدو لنا وكأن « ثقافة الحصى pebble-culture » تتميز بالحصى المنحوت، والأشولية-acheu-léen بذات الوجهين biface والبليطة، والموستيرية Mousterien بالشظية النحادة، والعاتيرية بـ « المذنبات ».

الدلائل الأولى

إن إكتشاف الأحجار المشذبة بفظاظنة من طرف س. أرنبورغ C.Arambourg قد أعاد بدايات ما قبل تاريخ الجزائر الى الوراء، الى حدّ حدّ حساس باصول البشرية نفسها. كانت « أشباه الكرات ذات الوجوه المشذبة » هذه قد وجدت في محطات ردم بحيرة سنطيف القديمة (في عين حنش على بعد 6 كم من العلمة). وتندرج هذه الصناعة بين الفلافرانشية Villafranchien العليا والفلافرانشية السفلى. فأشباه الكرات « مشذبة في وجوه متعددة مصفحة وتحمل وجوها متعددة المفعرة، في بعض الأحيان على الأقل، نذبا على أطرافها، ناتجة من فعل الدق، حوافها سليمة على العموم » (بالوت Balout) أشباه الكرات هذه وضعت في الطبقة الثالثة من « ثقافة الحصى » المغربية. وفي منصورة ينتظر حقل آخر مهم لإزاحة اللثام عنه. إن حقل عين حنش إذن من حقول العالم الأكثر قدما أين ترجم

ذكاء الإنسان بواسطة صناعة أدوات غير طبيعية : الأحجار المشذبة
لتشكيلات بحيرات الزمن الرابع القديم.

الأشولية

تتألف الأشولية، المعروفة في أوربا باليفاص (ذات الوجهين)، من
اليصاص والبلطات في الجزائر كذلك. وتوجد اليصاص هذه في الطبقة العليا
من الفيلافرانشية بعين حش ومنصورة. كانت تمتد هذه الأشولية ما بين الفترتين
الجليديتين غونز الوسطى Gunz-Mindel وفورم الأولى Wirm I ، بمعنى على
إمتداد آلاف السنين. وتتجمع الحقول أساسا في الطمي على ضفاف
المجاري المائية القديمة أو البحيرات. أما حقول الطمي الرئيسية في الجزائر
فهي حقول العمرية والعوينات وتأكدمت وأوزيدان وعرق تيهوداين. ومن بين
حقول الينابيع لابد من ذكر حقول تيريفين بالقرب من تيفنيف. والوثائق التي
توفرها هذه المنطقة الأخيرة مهمة جدا ومن جهة نظر البانتولوجية البشرية
والحيوانية المشتركة في أقدم صناعة.

الموسيرية والعائرية

من الباليولوثي الأدنى، تنتقل إلى الباليوليثي الأوسط (الموسيرية
والعائرية)، حيث اعتبر العديد من المؤلفين الصناعة كـ « كنيوليثي بربري »،
دون مبرر كذلك. ربما ولدت العائرية في الجزائر (بشر العائر في النمامشة).
فالعائرية صناعة مغربية تبرز مظهرها موسيريا. يأتي تحضير النوى في عقب
شظايا غالبا ماتكون ذات وجوه. وإلى جانب المخارز الموسيرية النموذجية
والعديد من الشفرات والمكاشط وبعض المحركات توجد كذلك أشياء وحيدة
الوجه ذات ذنب بارز تماما بواسطة تنقيحات، تحتفظ بوجوه في العقب على
الدوام تقريبا. لقد بقيت العائرية وقتا هاما جدا لأجل « أن يكون الشيء
المذنب الذي يميزها نادرا في أول الأمر ووفيرا جدا بعد ذلك ». إمتدت
العائرية، ثقافة المغرب النموذجية، إلى غاية موريطانيا ومنعطف النيجر.

المضاف الى الباليوليتي

يعتبر الكثير من المؤلفين مايتبع الباليوليتي المتوسط كمضاف الى الباليوليتي Epipaleolithique ، حيث تنفصل الايرومغربية Ibéromausien ، مثل القفصية، مع العاتيرية فجأة. إنها لاتفرعان من أصل واحد، فقد تفرعت الايرومغربية أساسا من اللوفالوازو-موسيرية Levalloiso-Moustérien التي تعود الى النياندرتالين (لا بد من الانتظار أيضا لتحديد المميزات الخاصة بنياندرتالبي المغرب)، من جهة أخرى فإن الايرومغربية والقفصية هما نتاج لموجة الإنسان العاقل Homo Sapiens فوق الموسيرية والعاتيرية، توجد إقاما الايرومغربية أو القفصية دون أن يكون هناك أي إثبات لأي اتصال بين الإثنين.

الايرومغربية

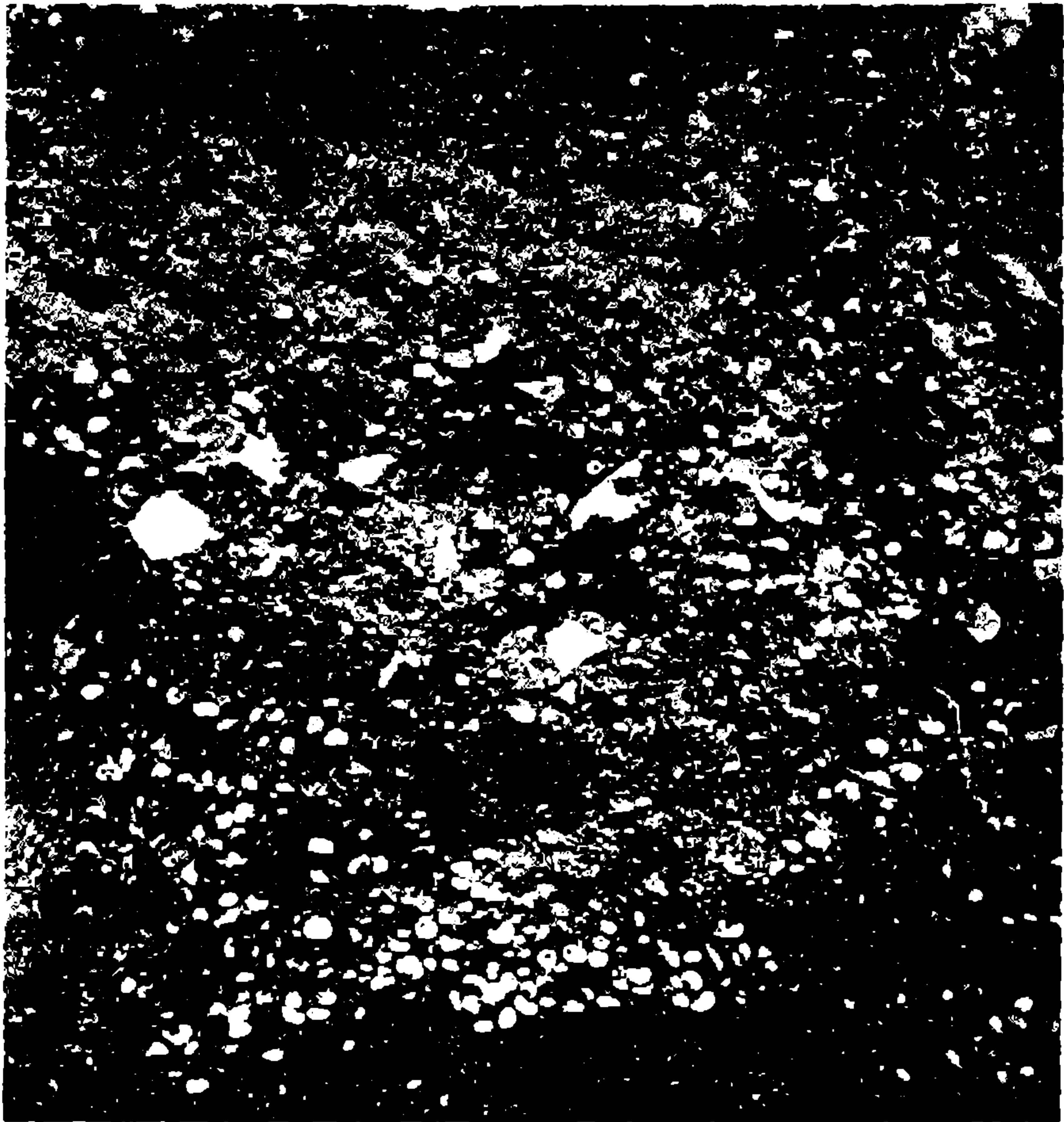
يوجد الحقل الرئيسي في مويلاح (بالقرب من مغنية). إذن كان يمكن أن تسمى « المويلاحية » أو « الوهرانية » كما اقترح فوفري Vaufrey . وتوجد كذلك في أفالو بوالرمل.

الايرومغربية صناعة ذات أبعاد مصغرة تتكون من شفيرات ذات ظهر منطرح، وشفيرات خامة، وشفيرات ذات ثلم ومكاشط. ويمثل ناس الايرومغربية ترابطا عرقيا حقيقا، تم الغزو من الشرق الى الغرب وبسرعة. فتم إحتلال السواحل والمنطقة التلية، ولم يتم عبور الأطلس التلي إلا في الغرب ولم تدرك السهول العليا إلا في تيارت. يسمى النوع الانساني مشتي العربي، وهو معروف لدينا بفضل هياكل عظيمة مكتشفة في مغارة بالقرب من بجاية بصفة خاصة (أفالو بوالرمل)، وفي كولومناتا (بالقرب من تيارت)، وفي تافورالت (شمال وجدة) ويشبه نوع كرومانيون. شغل في النيوليتي (العصر الحجري الحديث) مناطق نزوح، كان معاصرا للقفصية لكن الحضارتين ظلتا مختلفتين.

القفصية

تعرف المناطق القفصية بالعديد من « الرمديات » المسماة أيضا الحلزونات، التي تتراكم في السهول القسنطينية، إنها كليات يمكن أن يصل الى علو 10 أمتار والى طول يتراوح بين 100 و 150 مترا، متكونة من تراكم الرماد، والأدوات وعظام الأموات وقواقع الحلزونات، على الخصوص وتمثل بقايا التجمعات البشرية القديمة. إنتهت القفصية في إنتشارها حتى قدم الأطلس التلي في الشمال، ولامست الصحراء التي لم يدركها الإيرومغاربة، وتتواصل آثار القفصية من الشمال القسنطيني الى غاية تيديكالت.

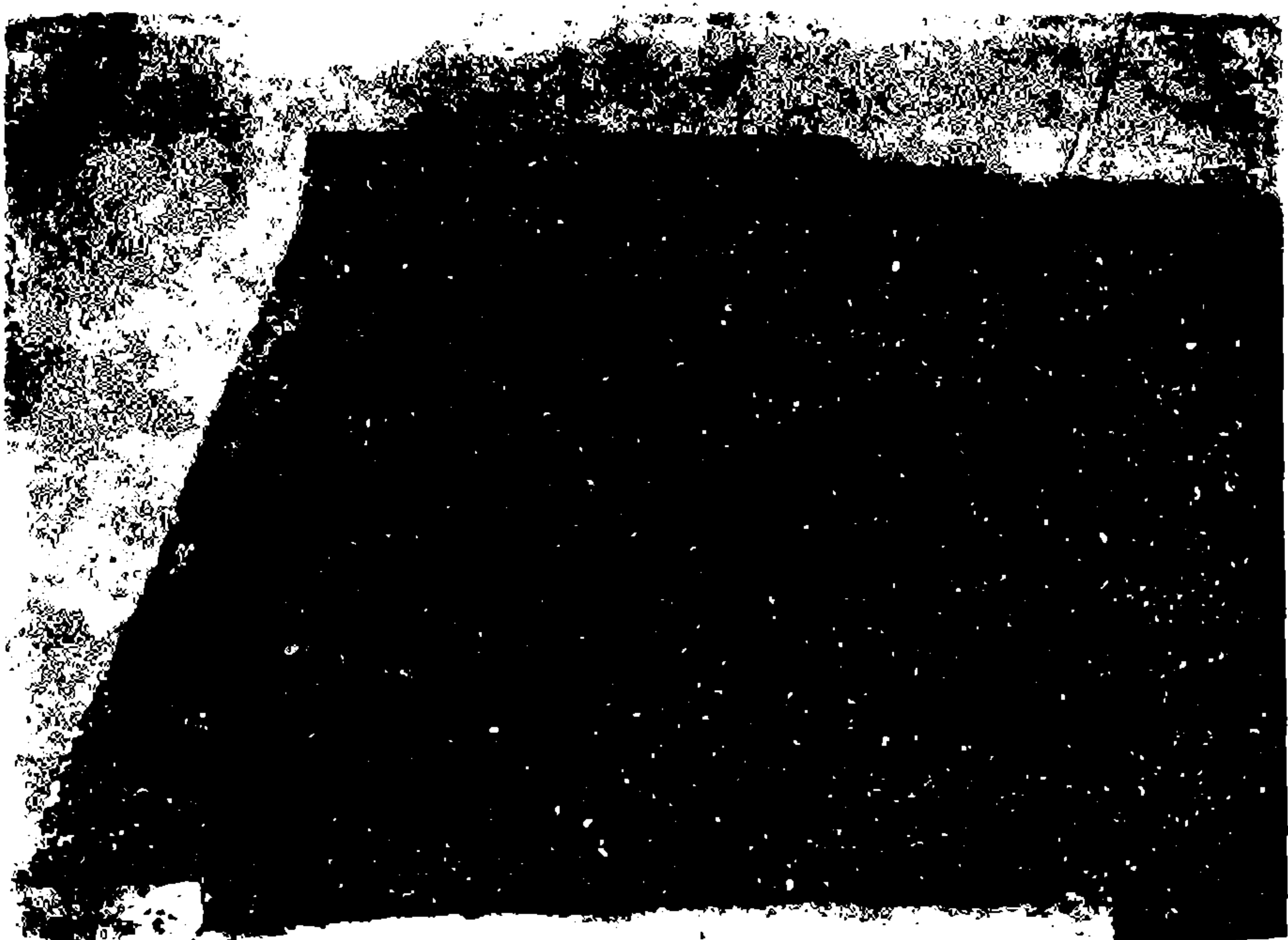
تحتوي الصناعة القفصية شفرات الظهر المنطرح، ونصالا ذات الظهر المنطرح كذلك، وأزميلات حادة، وشفرات الحز وحجريات دقيقة أكثر تنوعا وأكثر وفرة أيضا. وعثر على لؤلؤات من أصداف بيض النعام وأدوات عظام مصقولة. كما تتميز الحضارة القفصية بأدوات ذات شكل هندسي. وقد نسب تاريخ هذه الأدوات، في ناحية نسبة، الى نهاية الألف السادس. لا يمكن مقارنة عرق القفصي بعرق الإيرومغربي، فهو ينتسب الى الذين سبقوا المتوسطين ذوي الصفات الزنجية. مارس الناس قلع الأسنان واستخدموا العظميات البشرية أحيانا



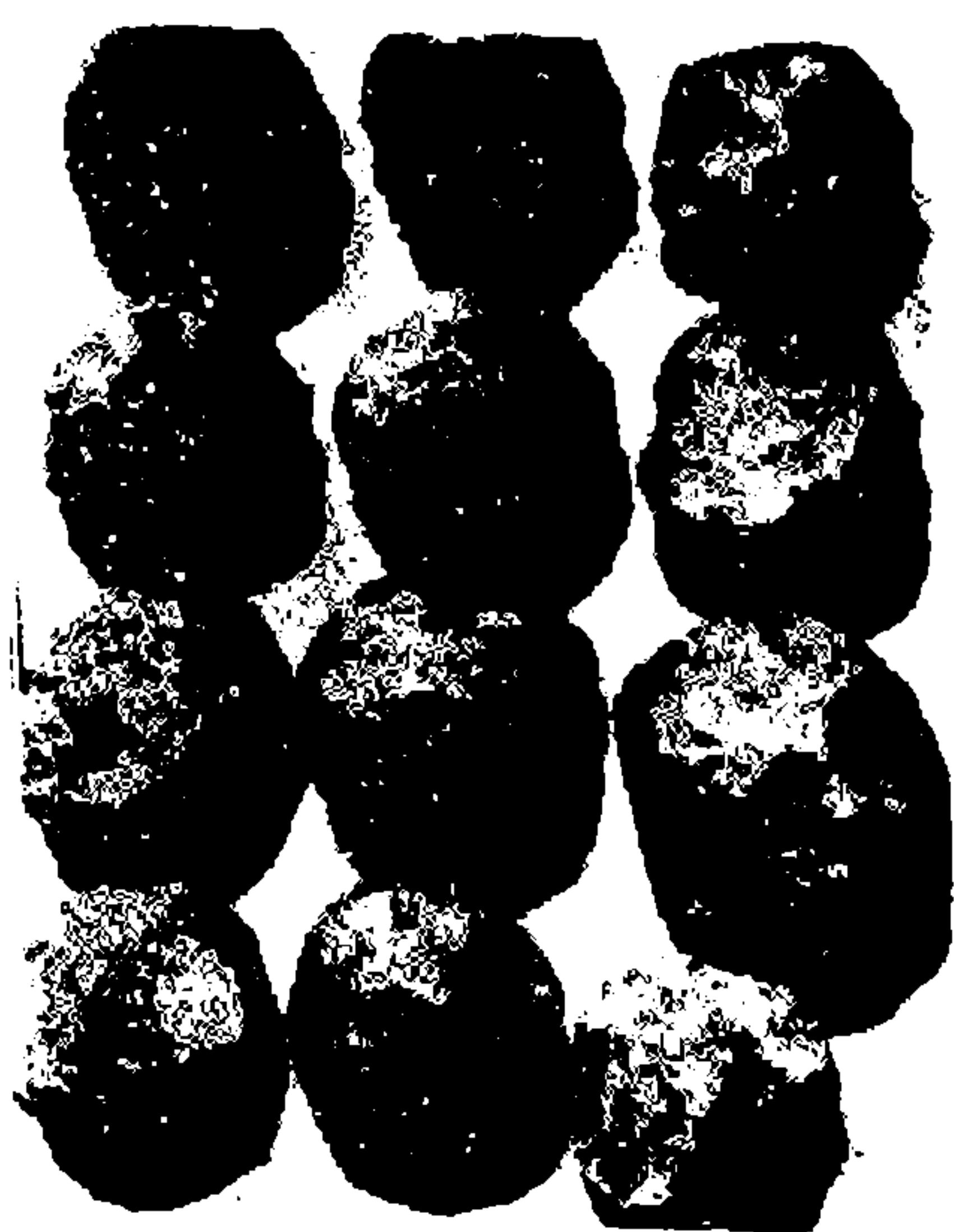
مقطع لحلزونيّات دكّارة (ناحية تبسة .



الفكّ السفلي نيرنيفين الشبيه بيتيكانتروب يارا



زرافة (تاسيلي)



أشباه الكرات متعددة الوجوه
لعين حنش:



ذات وجهين (يفاص) أشولية
(الماء الأبيض - قرب تبسة)

النيوليتي (العصر الحجري الحديث)

معلوماتنا عن النيوليتي قليلة. فقد اغتنت القفصية، كما أوضحت أعمال فوفري، بالفؤوس والقاقمات المصقولة والعظام المتقنة الصنع والفخار. النيوليتي حالة حضارية خصوصا، فقد مارس الإنسان الصقل والنحت وصناعة سن رؤوس السهام الثنائية الوجه، والفخار، والزراعة وتربية الحيوانات. وتشكل هذه التقدّمات الهائلة، التي لم تتحقق في وقت واحد، الثورة النيوليتية. وقد عمت الجزائر والصحراء. في الشمال، فإن الفخار ذو عمق مخروطي قليل الزخرفة في أغلب الأحيان، الأدوات العظيمة هامة جدا. وأصداف بيض النعام مزينة بخطوط هندسية، كما استخدمت ملونات. والنيوليتي الجزائري حديث نسبيا في الشمال، وبالعكس قديم جدا في الصحراء (6700 ق.م.). تغير المظهر الطبيعي، خلال النيوليتي، فقد المناخ أكثر جفافا وتغيرت الحيوانات : اختفى الفيل وفرس النهر، وظهرت الحيوانات الداجنة خاصة الحصان والكلب.

كان النيوليتي فقيرا نسبيا في التل. إنه لفي الصحراء شكل أوجه، مع العديد من الاختلافات الجهوية. هنا ظهرت أدوات متقنة : أحجار مصقولة، ورؤوس سهام وفنّ نفيس جدا : نقوش ورسوم (الأحجار المكتوبة، رسوم منقوشة)، إنها تقدم لنا، بالإضافة إلى قيمتها الفنية، معلومات عن الحيوانات القديمة، (الفيلة والظباء والأسود والزرافات والنعام والكباش)، واللباس والحلي والأسلحة المستعملة من طرف الإنسان.

لقد تردد، بعد جزال Gsell، أن المغرب لم يعرف عصر الحديد الذي أدخل من طرف الفينيقيين. لقد أهملت هذه الأطروحة اليوم. فإذا كان يجهل كيف تمّ تعلّم صناعة الحديد فإن تقدم المعجلات (صناعة تتطلب استخدام المعادن) في النقوش الصخرية واكتشاف حقول للنحاس والقصدير يشيران أن ما قبل التاريخ الجزائري لم يجهل عصر النحاس والبرونز.

إنه لمن المناسب التأكيد على أن النيوليتي وما قبل التاريخ قد انطلقا. إن ما قبل التاريخ هو، على الخصوص، حالة معارفنا الموهنة، في أغلبها، بالكتابات التاريخية لمؤلفي العصور القديمة : أخبرنا سالوست Sailuste بأواخر النيوليتي، وأخبرنا هيرودوت Hérodote بالمعجلات الحجرية للصحراء. لقد دخلت الجزائر التاريخ باندماج المنطقة التلية بالعالم المتوسطي.

أساليب المعيشة

(في المحطات الإيرومغربية بناحية الجزائر)

إذا كان من المتفق عليه أن الإيرومغربية حضارة ساحلية أساسا وليس حصرا فإن محاولة وصف موجز لأساليب السكن تبقى ضرورية مع ذلك.

ملاحظة أولى تطرح نفسها : التوزيع الجغرافي لحقول ناحية الجزائر المكتشفة، التي أقام فيها الإيرومغربية بعيد نوعا ما عن الساحل، مثل ما هو الحال بالنسبة لوادي كرمة، ولكن بجوار مصدر ما. أما فيما يخص المواقع الساحلية تماما فإنها تثبت إختيارات مختلفة، بدون تفسيرات أحيانا، على الأقل في السياق الجغرافي الحالي. فالسكن في المغارة، وعلى تلعة المقدمة هو الشكل المفضل، في شنوة. وتسد هذه المغارات، التي تهيمن على ساحل طوله عشرات الأمتار، ظهرها الى كتلة جبلية. وهكذا يسمح الموقع بتنظيم شكلين من أشكال النشاط : الصيد في الجبل الغابي، وجمع ثمار البحر لأهداف تهرينية أو جمالية - دينية (الزينة).

لماذا، في هذه الحالة، لم يتردد الإيرومغربية على الواد الواقع عند مخرج قرية شنوة والساحل الرملي الذي يحتوي مخابئ واسعة ؟ من غير الممكن الإجابة عن هذا السؤال؛ يهيمن السكن في العراء في الحد الغربي لمنطقتنا، وكذلك في أودية كرمة : في مزوار (الساحل الرملي لفيجيبي-Fi-guier، وفي كوربيت - مارين. Courbet-Marine .

إذا كان إختيار مزوار ممكن الفهم، فإن إختيار كوربيت - مارين يبدو لنا غير منطقي. وقد أخفيت المحطة في مزوار وعند قدم كتيب الرمل بواسطة طرف مزوار. في كوربيت بالعكس لا يبدو أي إهتمام بـ « الرفاهية ». أكثر من ذلك فإذا كان الشاطئ قريبا (لكن هل كان يوجد في ذلك الوقت ؟)، فإن منحدرات جبل أروس، التي يمكنها أن توفر الطريدة بعيدة كذلك. وتبدو بيئة الأسباب التي تصدرت إختيار الموقع هنا فهل يتعلق الأمر بتخيم مؤقت ؟ إحتمال ضعيف : كانت على هذا التماس إقامة لما قبل التاريخ. فالأدوات متشرة بوفرة هناك وأهمية الملجأ توحى بإقامة دائمة.

لاتبيح حالة الوثائق غير الحجج تفسيرات أخرى. فعلا يبدو السكن وأسلوب المعيشة متشابهين، في مكان آخر، في شنوة. وفي حقل إيمي Aymé من المستحيل إعادة بناء ولو النظام التمويني للسكان فقط. لا يمكن تصور أي شيء عن مواردهم، وعن علاقتهم بالبحر والمناطق الغاية لمؤخرة البلاد، ومن الأخشاب كانوا يستعملونها في بيوتهم ! لا بد وأن يكون الإطار الطبيعي الذي عاشوا فيه مختلفا عما هو موجود حاليا.

يمكن التأكيد، في راسل (شنوة)، على أن المحتلين كانوا مستهلكين للطريدة على الأقل، بل وكذلك للحلزونات والطنانات وبلح البحر والصحنيات بدرجة أقل. قد يكون ذلك علامة أساوب معيشة بلغ نوعا من التوازن وتنسيقا بين موارد القنص وموارد البحر. منذ ذلك وحيث لاوجود للأزاميل والمثاقب والشظايا والشفرات ذات الظهر وقلة المكاشط، ألا تعكس الصناعة الحجرية - بشكل متناقض نوعا ما - ذلك التحسن في ظروف المعيشة التي لم تكن تتطلب سوى نوعا من الأدوات : الشفرات ذات الظهر المنطرح ؟ لدينا هنا صناعة - وحيدة حقيقية (كما يقال بالنسبة للثقافة - الوحيدة) تتلاءم مع أسلوب تموين ومعيشة مسلم به وليست المسألة متعلقة بحالة رديئة بالنسبة لحضارات أخرى إيبيايوليتية.

C. Brahim, L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger, Mémoires du CRAPE-XIII, Paris 1970, pp. 144-145.

الفصل الثاني

البربر

لأنعرف إلا القليل عن البربر. ولمعرفة تاريخهم نملك مصادر هي نتاج الاكتشافات الأركيولوجية أو الإثنوغرافية. ولم تبق مع الأسف سوى أشياء من الحجر أو الفخار، فقد ضاع الكثير من النقوش أو النصوص. وكان الرومان لا يهتمون كثيرا بالبربر حين يتكلمون عن تاريخ إفريقيا، بل كانوا يهتمون بسجد روما وأبطالها، وبالعظماء أكثر من الشعب.

✧ الشر

لقد حدثنا المؤلفون القدامى عن الليبيين، عن أفري Afri، عن المازيس Mazices وعن المور هذه العبارات جديرة بالتحديد. فقد كان هيردوت يطلق اسم الليبيين على كل سكان شمال إفريقيا، من الجنس الأبيض. ويبدو أن الكلمة كانت في الأصل لشعب إفريقي وأن مفهومها قد انتشر بصفة معتبرة. كما استخدم اليونانيون والقرطاجيون عبارة أفري بخصوص السكان الذين كانوا مقيمين في الأراضي المراقبة من طرف قرطاجة، وعبارة إفريقيا للإشارة إلى بلادهم. أطلق على السكان الغربيين اسم المور، وقد يكون الأصل الحقيقي اختصارا لعبارة ماهوريم السامية التي تعني «الغربيين». تعود اليونانيون والقرطاجيون على تسمية غير رعايا قرطاجة بالنوميديين، والذين يقطنون الأراضي الخاضعة باليبيين والسكان الغربيين بالمور. وكان الرومان يطلقون اسم البرابرة على الذين لا يتكلمون اللاتينية.

الأصل الأكثر انتشارا في البلاد البربرية، والذي يمكن اعتباره الاسم.

الإسم الحقيقي للشعب البربري هو الجذرم زغ MZG أو م زك MZK الذي يوجد في مازيس Mazices ومازاس Mazaces ومازاسيس Mazaceces لقد إحتفظ أمازيغيو الأوزاس بهذا الإسم. ودعا الشاعر الوطني القبائلي، في القرن العشرين، أبناء مازيغ، للنضال من أجل الإستقلال.

الأصل

في وضعية معارفنا، يبقى الأصل البربري متعذر الحل، وقد قدمت عدة فرضيات، وتحاول الدراسات الحديثة أن تثبت قدم التعبير وتنوعه في آن واحد. ويمكن أن تكون الحركات السكانية الأساسية قد تمت في نهاية الباليوليتي وخلال النيوليتي : فخلال القفصية غزا أناس من جنس متوسطي إفريقيا الشمالية، من الشرق. والتحق بهم رعاة صحراويون، جاءوا من أعالي النيل، وكانت هناك أيضا أقلية من السود. يمكن اعتبار أصل البربر، في الجزائر يعود الى أناس مشتى العربي والى الذين سبقوا المتوسطيين. ومن المؤكد أن التحامات وامتزاجات عرقية قد أثرت في سكان البربر خلال الأزمنة النيوليتية والتاريخية، فقد إختلط بعض السكان بالأهالي، وهم الفينيقيون والوندال واليونانيون واللاتينيون والعرب والأتراك. لكن باستثناء العرب والأتراك بدرجة أقل، فإن أية هجرة لم تكن قادرة على تغيير الشروط العرقية للجزائر بشكل عميق. غير أنه من المغالاة وحتى من الخطأ الإدعاء بأن هذا المجتمع البربري لم يتغير، ولم يتطور مع التاريخ. فمما هو أكيد هو أننا يمكننا أن نتكلم عن أسلافنا البربر.

ويميز فيهم بين بنيات جسمية مختلفة : فهناك القبائل ذات القامة الطويلة والرأس المستطيل وتنتشر بكثرة لديها العيون الشفافة والشعر الأشقر، وهناك القبائل ذات القامة المتوسطة والسحنة الشفافة والشعر الأسمر، وهناك المزاب بالقامة القصيرة والرأس الصغير صاحب العيون السمراء والشعر الأسمر والسحنة الباهتة، وهناك التوارق بالقامة العالية والرأس المستطيل والأرجل والأذرع الطويلة. تختلف القامة وشكل الجمجمة ولون البشرة كثيرا، وقد تمكن بعض العلماء من إقتراح الكثير من التصنيفات.

حياة أسلافنا

كان السكان البربر عديدين ، بفضل نسبة مواليد عالية جدا وتعمير استثنائي ، وكان الأطفال مرحبا بهم لدى الأسر. لقد كانوا ، كما يقول هيرودوث ، « جنسا من الناس ذوي جسم قوي ورشيق ومقاوم للتعب ، تزرع الأغلبية تحت وطأة الشبخوخة إلا الذين يهلكون بالحديد أو من طرف الحيوانات لأنه من النادر أن يتزعهم المرض ». فكان الأحياء منهم يذهلون ، بدون شك ، الأجانب بيأسهم وجلدهم.

النضال من أجل الحياة

كانت المنتجات النباتية تشكل أساس طعامهم ، وتزايدت بفعل الفلاحة. فبروكوب Procope يتكلم عن كسرة الحنطة التي كانت تطهى في رماد البيت الحار. ولطحن الحب « كانت تستعمل مطحنة صغيرة قابلة للنقل متكونة من إسطوانتين حجريتين ، المسحق السفلي الثابت مزود بمحور عمودي من المعدن ، يدخل فيه المسحق العلوي الذي يحتوي على مقبض يسمح بإدارته وعلى فتحة مدخنة أين تسكب الحبوب : ينتج احتكاك الإسطوانتين الطحين » ويخبرنا جزال أن هذه المطحنة كانت معروفة في البحر المتوسط في عصر موغل في القدم. كان الدقيق المتحصل عليه يستعمل في صنع عجين ، نوع من « الزينة » ، وكان الكسكس أكلة البربر المفضلة. فهو أصيل إفريقيا الشمالية ، بدون شك ، إذ لم تعرفه شعوب المشرق. ويخبرنا هيرودوث أن البدو « كانوا يأكلون اللحم ويشربون الحليب ». ومن المعروف كذلك أن الحياة الرعوية كانت أكثر أهمية من الحياة الزراعية. كان البدو مربين للبقر قبل كل شيء والخيول والغنم والماعز. يمكن تصور أن الملكية كانت مشتركة ويمكن تصور حتى وجود نوع من الشيوعية الزراعية. لقد كان من المعقول جدا أن يعلم القرطاجيون البربر الفلاحة ، وأن يحقق هؤلاء الأخيرون تقدما كبيرا في هذا الميدان في عهد ماسينيسا. ومع ذلك كان جزال قد لاحظ أن البربر لم ينتظروا مجيء الفلاحين السوريين لممارسة تربية الماشية الفلاحة. بالنسبة لكومبس Camps قد يكون وجود الزراعة الجزائرية في النيوليتي

الثقافة

اللغة :

كثيرة هي النقوش الليبية التي تقدم لنا معلومات عن اللغة القديمة التي كان يتكلمها أسلافنا. من هذه اللغة تفرعت البربرية المنطوق بها في جبالنا بالقبائل والأوراس ولدى التوارق. حروف التيفناغ التوارقية متفرعة كذلك عن الحروف الليبية. كتبت النصب التذكارية في أسطر أفقية من اليمين الى اليسار. والنقوش الجنائزية المنقوشة على الأحجار مكتوبة في أحيان كثيرة في أسطر عمودية تقرأ من أسفل الى أعلى. بعض النقوش مزدوجة، فلأما مصحوبة بنص لاتيني وأما بنص بونيقي. وهي النصوص المزدوجة التي سمحت للعلماء بتحديد الحروف الليبية ذات 22 حرفاً. فقد عرف أسلافنا الكتابة إذن، وسيقدم لنا فك رموز الألف نقش التي تم العثور عليها بعض الأضواء على ماضي البربر بدون شك؛ لقد توارث اللغة البربرية بعافية فائقة مع بقائها منقسمة الى لهجات عديدة ولا زالت شفوية بالكامل. وهي اليوم حقيقة حية يتكلمها ما بين 6 الى 7 ملايين نسمة.

الفن :

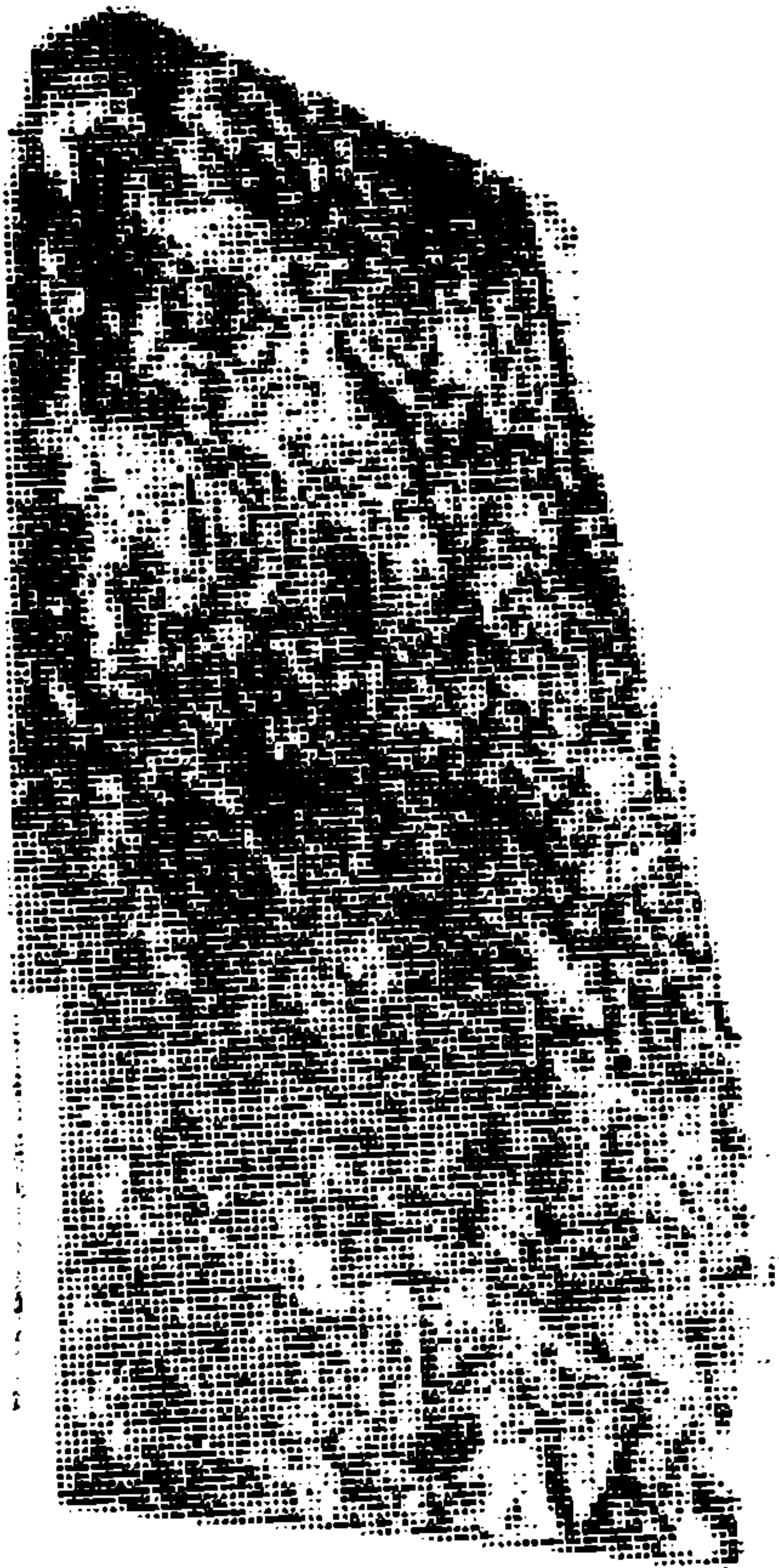
عبر البربر عن ذوقهم في الرسوم السخرية، وفي زخرفة الفخار وبيض النعام، في صناعة الحلبي ونسيج الزرابي وفي السيراميك. لقد ارتبط الفن البربري بالزخرفة الهندسية على الخصوص. وجدت في محطات ما قبل التاريخ بقايا عقود ونوطات من الأصداغ. ووجدت في مقابر حلبي من الحديد والنحاس والبرونز.

المعتقد :

تشهد المقابر على وجود ديانة تعتقد في الخلود. فقد كان الأموات يدفنون بعناية : تحت البازينة (بناء حجري مخروطي فوق قبر)، وتحت الدولمن ذي الغطاء الأحادي الحجر، وتحت شوشة (قلنسوة، نوع من القلاع الأسطوانية) وكان الميت يطرح مطوياً على العموم، كما كانت التعرية من اللحم ممارسة في أحيان كثيرة وكذلك تلوين العظام بالمغرة. وغالباً ما كانت

محتوي الأضرحة عظام تعود للعديد من الأفراد. وكان البربر يمارسون، في
الأميل، إحيائية زراعية أساسها ذكرى والمطر أساس أنثوى وكذلك
الأرض. فيما بعد تبنا الآلهة الأجنبية التي كانوا يعتقدون أنها تروى
الجميل : فأدمج بعل، إله الفينيقيين الذي سماه اليونانيون سكرونوس
Cronos وسماه الرومان ساتورن Saturne ، في المطر أو السماء، أدمجت عشتار
Isthar أو تانيت بني بعل Tanit pené Baai الآلهة الفينيقية التي مزجت من
طرف اليونانيين مع ديميتر Demeter ، والتي تملك بها الرومان تحت اسم
سيريس Ceres ، بالأرض الأم. إن الإله الذي عبد من طرف كل البربر هو
بالتأكيد الإله الكبش. فقد ظل تقديس الكبش إله الشمس راسخا عدة
قرون، وعثر على مسلات منقوشة وتمائيل صغيرة ذات الكبش الإلهي في كل
شمال إفريقيا.

مكنّت دراسة المجتمع البربري الحالي من إلقاء بعض الأضواء على
معرفة معيشة أسلافنا. رغم ذلك فإنه من غير الممكن تجسيم التنظيم السابق
الذي وجدته المؤرخون في المغرب في بداية القرن التاسع عشر. فالمجتمع
البربري لم يبق جامدا، فقد تطور مثل كل المجتمعات. وتظل الطريقة التي
ارتكزت في وصف البربر على المقارنة قابلة للنقاش مهما كانت موهبة الذين
عالجوها والمتأثرين بأحكامهم المسبقة على الخصوص. الذين حاولوا تمييز
الواجد الاستعماري القديم والذين انتهوا إلى استنتاجات غير متوقعة. فما هو
أكيد هو أن الجزائر قد عرفت حضارة قديمة وذلك قبل الفينيقيين. إذ لم يعيش
البربر في عالم معزول، فقد كانوا على اتصال ببلدان عديدة : إسبانيا وإيطاليا
والنوبة والحبيشة. والبرهنة على ذلك ممكنة بواسطة بعض الدلائل : اللغات
التي تنتمي إلى نفس عائلة اللغة البربرية، والأنواع البشرية المتماثلة التي
توجد خاصة على طول البحر المتوسط، وتشابه بعض الأدوات الحجرية
وبعض الفخاريات.



نقش مزدوج :
ليبي وبونيفي (رأس جنات)



مسلة نذرية :
(الحفرة - قسنطينة) الى أعلى ،
شارة هرمس الى أسفل ، الكباش .

الحروف البسيطة

مقابلها في الفرنسية	مقابلها في اليونانية	خطوط عمودية تقرأ من أسفل إلى أعلى	خطوط أفقية تقرأ من اليمين إلى اليسار
Α Β Γ Δ Ε Ζ Η Θ Ι Κ Λ Μ Ν Ξ Ο Π Ρ Σ Τ Υ Φ Χ Ψ Ω	Α Β Γ Δ Ε Ζ Η Θ Ι Κ Λ Μ Ν Ξ Ο Π Ρ Σ Τ Υ Φ Χ Ψ Ω	Α Β Γ Δ Ε Ζ Η Θ Ι Κ Λ Μ Ν Ξ Ο Π Ρ Σ Τ Υ Φ Χ Ψ Ω	Α Β Γ Δ Ε Ζ Η Θ Ι Κ Λ Μ Ν Ξ Ο Π Ρ Σ Τ Υ Φ Χ Ψ Ω

نصوص :

أصل شعوب ومجتمعات شمال إفريقيا حسب هيمبصال

XVII. الناس هناك أقوياء ويشيرون وكادحون. يموتون ببطء، منهارين من الشيخوخة، إلا الذين تفرسهم الحيوانات الضارية أو الحرب. فأموات المرض نادرون وإلى جانب ذلك هناك الكثير من الحيوانات المقلقة.

أما بخصوص من هم الذين كانوا سكان إفريقيا الأوائل ومن هم الذين جاءوا للإقامة فيها فيما بعد، وبأي طريقة تم أنصارهم، فلنني سأروي، بكلمات قليلة جدا مبتعدا في ذلك عن الرأي المسلم به عموما، ما يقوله سكان البلاد وما حصلت عليه من الكتب القرطاجية المنسوبة إلى الملك هيمبصال والتي ترجمتها. أما ما يتعلق بصحة الأحداث فلننظر القدر المسؤولية على عاتق مؤلفيها.

XVIII. كان النرويجيون سكان إفريقيا الأوائل،

وكانوا كانوا خليقة بدائية على حد ما، وكانوا يزرعون القمح ويرعون الأغنشاب على بساتينهم ولم يكن لهم أي نوع من القوانين ولا أي نوع من الحكمة وكانوا مختلفين ومسرعين ولا يتوقفون إلا حين يدركهم التعب.

حدث وفاة هيركل Hercule الذي ملك في إسبانيا وهذا ما يعتقد الأفارقة، حيث جثته في رجاء يتسرون التي مختلفة، فلما بدؤوا قاتوا واشكروا، انصاعوا حين كانوا يأملون إقامتهم في شخصيتهم، فخرج يسيرة، انتقل إليه والفرس والأرواح التي سبوا في إترالات واسطوا البقاع الأكثر قربا من بحرنا، وهكذا وبه الفرس، المنفصلون عن الآخرين، مسيرتهم بمجتمعات المحيطات ووجدوا لأنفسهم أكواخا من عياكل قوارير المحيطات لأنهم لم يجدوا الأنشاب في عين المكان ولم يكن في إمكانهم جلبها من إسبانيا من طريق الدراب أو الصاغة كما أصل المصطلح الهسبري واليهودي اللغة العلاقات الصحارية مع هذا

احتلظ هؤلاء الفرس شيئا فشيئا بالجيئول من طريق
الريجات. واشتدوا يقاتلون من جهة إلى أخرى وذلك للبحث عن
أراضي جديدة. لهذا أطلقوا على أنفسهم اسم النويديين. اليوم أيضا
تشبه مساكن الفلاحين النويديين، التي يسمونها هم مابال Mepales
غواطم السفن كثيرا بشكلها الممدود ومتوسطها المنحنية.

أما اليوم والأرض، فقد اكتسبوا باليين الذين كانوا أقرب
إلى البحر الإفريقي، فوجدوا أنفسهم أقل عرضة لأوار الشمس من
الجيئول. فأخذوا يشيدون المدن مبكرا لأنهم لم يكن يفصلهم عن
إسبانيا سوى المضيق، وتمكنوا من تنظيم تبادل تجاري مع دول أخذ
اسم الحيات ينعرف شيئا فشيئا من طرف اليبين، وانتهى إلى أن أصبح
معروف في لغتهم البارثي.

غير أن نوع التربة قد حقت تقريبا سريرا. فقد أصبح نمو
السكان البعض على الإنفصال عن أمرهم مبكرا وعلى الاستيلاء على
أرض واقعة بالقرب من قرطاجنة. ولما كانوا معروفين باسم النويديين،
أخذت البلاد اسم نويديا بعد ذلك أصبح البعض والبعض الآخر،
موحدين مجهوداتهم، بالزراعة تارة وبقوة السلاح تارة، الشعوب
المجاورة، ومنوا صحتهم وقوتهم بعبادة ونسابة الذين تقدموا منهم
في اتحاد بحري، لأن اليبين كانوا أقل استعدادا للحرب من الجيئول.
وفي نهاية المطاف تم احتلال الجزء السفلي من إفريقيا كلفة تقريبا
من طرف النويديين. وأخذ النويريون من ملجئ بالمتسربين،
إسمهم.

Saliste, Guerre de Jugurtha, XVI, XVII dans *Histoire du monde*,
Editions Gallimard 1961, pp.611-617

حول مواهب الجنس البربري وفضائله النبيلة

لنذكر بعد ذلك الفضائل التي تعتبر شرفا للرجل والتي أصبحت طبيعة ثانية، تسارعهم الى اكتساب خصال حميدة، نبيل الروح الذي يجعلهم في مقدمة الأمم، الأفعال التي استحقوا بها ثناء الكون، بسالة وحيوية الدفاع عن ضيوفهم ومواليهم، الوفاء بالوعود والالتزامات والمعاهدات، الصبر عند الشدة، الحزم في البلاوى الكبرى، لطف المزاج، التسامح أمام أخطاء الغير، العزوف عن الثأر، الطيبة تجاه التعساء، إحترام الشيوخ والأقرباء، التسارع في إغاثة المعوزين، مهارة، ضيافة، إحسان، شهامة، بغض الجور، القيمة الأخلاقية التي كانت تبذل ضد الإمبراطوريات التي كانت تهددهم، الانتصارات السحقة على أمراء الأرض، الإخلاص لله ولدينه، تلك هي، بالنسبة للبربر، مجموعة من الخصال المشهورة وهي صفات موروثة عن أسلافهم حيث عرضها كتابة يمكن أن يكون مثالا للأمم اللاحقة.

Iben Khaldoun, Histoire des Berbères, Paris, 1925, Tome I, pp. 199-200.

الفصل الثالث

الجزائر والفينيقيون

كانت الجزائر بالنسبة للفينيقيين منطقة عبور أساسا بين المراكز التجارية البعيدة للأطلسي التي تراقب، نحو الجنوب ونحو الشمال، أسواق الذهب والقصدير أين كانت تتمول التجارة الفينيقية، ومركز الاستهلاك والتوزيع الذي هو قرطاجة. لقد كان البحر « الطريق » المفضل للفينيقيين، وعلى طول هذا الطريق كان بحارتهم في حاجة إلى قواعد للتأمين، الشيء الذي لا يتم إلا في الماء العذب. وهكذا أقاموا محطات إتصال في كل ثلاثين أو أربعين كيلومترا وعلى امتداد السواحل الجزائرية : تلك كانت المراكز التجارية التي انطلقا منها استغل القرطاجيون الجزائر. كانت خطوط السير المقامة مصدر بعض التقدم لدى البربر، وفي أغلب الأحيان رغم إرادة القرطاجيين أنفسهم.

قرطاجة والجزائر

إبتداء من القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت شعوب من أصل حامي - سامي تحتل ناحية لبنان الساحلية التي كانت تسمى فينيقيا أو بلاد النخيل من طرف اليونانيين، أين كانت توجد المدن الرئيسية عراض وبيروت أو بيروت المعاصرة وبيبلوس وصيدا وصور. لم يكن في إمكان الفينيقيين الخروج من مدنهم إلا عن طريق البحر. وربما كانوا هم البحارة الأوائل في العالم. ملاحين وتجارا أساسا وجد الصوريون ترحيبا من طرف البربر بقدر ما كانت إسبانيا الغنية بمختلف المعادن تثير أطماعهم. تحول لهم البربر، مقابل أتاوات، إقامة محطات إتصال ومخازن للماء العذب على الساحل الإفريقي أولا ثم مراكز تجارية أين استقروا مع عائلاتهم. وعقب مؤامرة، كان

على الملكة عليسار Elassar . وهي من عبدة أن تروى أن تدرك ساحل إفريقيا حوالي 860 . وحسب ما ورد في الأسطورة ، لم يقبل بارياس ملك البلاد أن يبيعها سوى مساحة الأرض التي يمكن إحاطتها بجلد ثور وبسعر مرتفع . تمكنت سيشي Siché التي أخذت اسم ديون (الهاربة) ، غفل السيور الدقيقة المقطوعة من جلد ثور ، أن تحيط مساحة واسعة جداً ، الشيء الذي مكّنها من بناء قصر سمي يوسا (جلد الثور) ، فيما بعد شيد خلفاؤها قرطاجة (المدينة الجديدة Kart-hadath) . وأنشأ القرطاجيون بدورهم مستعمرات . واقتصرت سيادتهم على السواحل بصفة خاصة ، ماعدا الأراضي الواقعة في شرق الجزائر التي كانت تعود لأملاك قرطاجة بمعنى الكلمة . والدليل الذي بقي لنا حول هذه المدن محدودة في مقابرها في أحيان كثيرة ، فقد اختفت أغلبية المراكز التجارية تحت أسس المدن اللاحقة . ولكن كانت المواقع البونيقية ممتازة وحسنة الاختيار : بين جزيرة والقارة في منطقة محمية من الريح بواسطة الجزيرة نفسها ، أو بواسطة رأس يوفر نفس المزايا ، وأن تعذر ذلك ففي مصب شهر ، أو في ميناء إصطناعي فعلا محفور داخل الساحل . المستعمرات الرئيسية التي كانت على ساحل الجزائر هي : هيبو Hippo (عنابة) ، روسيكار Rus-Cear (سكيكدة) ، شولو Chullu (القل) ، جيجل (جيجلي) صالدي Saldae (بجاية) ، روسوكور Rusucune (تاكسبت) ، روسغونيا Rusgunia (البرج البحري) إيكوسي Eikoci (الجزائر) ، إيول Yoi (شرشال) ، كيرتين Kertenne (تنس) ، سيغا Siga (رشفون) .

إذا كانت السيادة القرطاجية قد ظلت محدودة في هذه المدن ، فإنه يجب ألا يغيب عن البال أن المراكز التجارية كانت معزولة بعضها عن بعض من جهة ومن جهة أخرى فإنها لم تراقب من طرف قرطاجة إلا خلال قرنين أو ثلاثة . فهل يمكن القول إذن أنه لم يكن هناك تسلل بونيفي الى داخل الجزائر ؟ بعكس حال الصوريين الذين كانوا يدفعون أتاوة للبربر . فإن القرطاجيين أرغموا هؤلاء . الأخيرين ، وبالأخص الذين يسكنون بجوار مراكزهم التجارية ، على دفع ربع مداخيل أراضيهم واستخدموهم وسطاء مع سكان الداخل . فالمنفعة التي كان يحققها الفينيقيون

المركز التجاري القرطاجية

تفہیم



في باقي البلاد الكبيرة فعلا. وبما لاشك فيه أنه كان يدفع ببعض
المستعمرات الصغيرة نحو داخل الجزائر، فعلى سبيل المثال يوجد معبد بونيفي
في ناحية قسنطينة : ضريح دوغا مع نص بونيفي ونص لبسي على لوحين
مماورين.

مع هذا يبقى من الصعب تحديد تخوم عرض المنطقة السطحية التي
 كان يمتد عليها التراب القرطاجي.

كان النوميديون يتجمعون ، خارج التراب البونيقي ، في قبائل وفي دول على رأسها رؤساء مؤهلون ، أمراء وملوك . وسعت قرطاجة للحصول على تحالف مع هؤلاء القادة . فقد كان القريبون من التراب البونيقي يحافظون على استقلالهم . وكان البعض منهم يدفع أتاوات ويسلمون رهائن لقرطاجة - سلمت 300 من هؤلاء لهانون - ويضعون فرقاً عسكرية في خدمة الجمهورية . لهذا نرى الغرب كان الملوك يصمدون في وجه أطماع قرطاجة . فسيفاقص الملك الماصيصيل لم يرض بأن يلعب دور التابع ، وحاول زيادة على ذلك أن يبرهن نفسه حكماً بين روما وقرطاجة .

التأثيرات البيئية

لم يتمكن العالم البربري من أن يحرم نفسه من الإثراء بالاتصال
بالمهارة البونيقية، فلم يكن التأثير البونيقى على المستوى المادى فحسب
بل كان على المستوى الثقافى والدينى أيضا.

فازدياد المراكز التجارية يفترض مبادلات تجارية نشيطة بين البربر والقرطاجيين. كان هؤلاء الأخيرون يبيعون كل أنواع السلع : أدوات ، ملابس ، حلي ، وأشياء من الحديد والبرونز. وكان البربر بدورهم يمولون بالأخشاب ، الفلين ، الأصواف ، الجلود ، السمك والزيت والحبوب. وكان على البربر لكي يبيعوا بعض منتجاتهم ، أن يتعلموا كيفية تحويلها ، أفضل من الاحتفاظ بها. واستخلص القرطاجيون ربحا كبيرا من تجارتهم مع البربر ، كانوا وسطاء على الخصوص يذهبون باستبدان مشحونات الشرق البعيدة بالمشتريات البربرية. وكانت تجارتهم تجارة وكلاء. ولم يكونوا في حاجة حتى الى العملة ، وذلك بالعمالة الى أسلوب المقايضة. ولم تكن لهم عملة إلا مؤخرًا. يمكن الكلام

عن إمبريالية مركانتيلية قرطاجية وعن استغلال إفريقيا الشمالية، وبالتالي الجزائر، لفائدة الفينيقيين وحدهم. فاغتناء قرطاج لاشك فيه، إذ بقدر ما كانت تزداد أرباح التجارة، كانت تمس ضرائب المواطنين والآتاوات المقروضة على الليبيين الخاضعين المسيطرين على المناجم. وهكذا كانت الخزينة المتخمة تسمح للقرطاجيين بأن يجندوا مرتزقة وأن يستعملوهم في مواجهة إنتفاضات البربر أو ضد اليونانيين.

في تاريخ الحضارة، أنتج تدخل قرطاج في الجزائر إقامة شبكة من التبادل وضعت بلادنا في علاقة مع باقي العالم. فضلا عن ذلك أحدثت اللغة البونيقية تقدما لاشك فيه في أوساط البربر. وقد أستخدمت خلال عدة قرون وبقيت الى عصر القديس أوغسطين Saint Augustin. وكان التأثير الديني أعمق من ذلك فاللهة فينيقية كانت هي كذلك آلهة قرطاج ومستعمراتها، تحت أسماء جديدة في بعض الأحيان : تانيت إلهة الخصب وبعل هامون الذي أدمج في الإله الكبش من طرف البربر ومالكارت Melqart وهيركل الصوري وايشمون Eshmoun الإله المشيء، الخ.

نعرف القرطاجيون على الفن اليوناني ويظهر تأثيره في هندسة معابدهم وأضرحتهم. كانوا ينقشون توابيت يمثل عليها الميت وهو في ثيابه الخاصة بالاحتفالات. كما كانوا يارعين في الفنون المعدنية بصفة خاصة الفخاريات والرجاجيات والخلي والقماش حيث كانت الزخرفة تستوحى من فن فينيقية في أول الأمر، ثم أثريت بالنماذج المصرية واليونانية خاصة.

الحربان البونيقيتان والبربر

وبدأت قرطاجة نفسها، بعد أن احتلت ميسينا (269 - 268)، هي وما لها روما. تلتقي الإمبريالتان في مضيق ميسينا، بدافع طموحاتهما التي جعلتهما تتجاوبان. فأخذ الرومان السبادة ونظموا غزو صقلية وروا في إفريقيا. ولأحد من الخصمين حقق انتصارا حاسما، لما كانت الحملات تجري ببطء، والإمبريالية العسكرية الرومانية أكثر صلابة من إمبريالية مطامع المراتلية، كان على هذه الأخيرة أن تتفاوض، وأن تخلي صقلية وتسلم ما مع تعويضات ضخمة. منهوكة بفعل الحرب فلم يكن في مقدورها أن تدفع أجور الـ 20 000 مرتزق صقلي، بالإضافة الى ذلك كان اللييون منائهم حادا : كان قد صودر نصف محصولاتهم وسجن الذين لم يتمكنوا من دفع ما عليهم من ضرائب كما صلب 300 من الثارين من الخدمة العسكرية تقريبا. فتمرد البربر وكان ماتو الإفريقي أحد قادتهم الكبار، طلب الدماء من كل المدن الإفريقية وجه نداء الى النوميديين. فاستجاب اللييون المملعون الذين سلبهم القرطاجيون أموالهم لندائه. وقدمت النساء المرات كل مالههم من أشياء ثمينة وسلمن تحيلهن لأجل قضية الحرية. وبعث 70 000 ليني من احتلال برزخ قرطاجة وتونس (240)، ومحاصرة أوبلا وسورت. لقد سمحت خيانة النوميدي نارافاس والدور المزدوج الذي لعبه روما التي، بعد أن مؤلت المتمردين، دعمت القرطاجيين مقابل تخليهم عن نوردريكا وسردينيا، لقرطاجة بتحقيق النصر. فقبض على ماتو وصفي تحت تعذيب شنيع. ولم تنته الحرب بهذا القدر فقد دامت ثلاث سنوات وأربعة أشهر، كما انفجرت قلاقل في 247 بنوميديا.

بهدف تنظيم ماليتا سلمت قرطاجة إسبانيا للجنرال الفينيقي هاميلكار Hamilcar الذي أسس أكرالانك (أليكانت)، واصل هاميلكار ووالد Hasdrubal الذي أنشأ قرطاجنة (قرطاجة الجديدة) في وسط المنطقة النضوية الإسبانية سياسة هاميلكار صهره. وبعد مقتل هاميلكار ووالد، جعل جيش إسبانيا هانيبال بن هاميلكار قائدا له، وهو شاب في الـ 25 من عمره، أظهر صفات نادرة لقائد ومنظم.

اجتاز البرانس، وقطع الرون، واجتاز الألب (218)، ونفذ جيشه الذي كان يتألف عند الإنطلاقة من 50 000 جندي من المشاة و 9000 فارس و 37 فيل، الى وادي البر ولم يعد يحتوي أكثر من 12 000 افريقي و 8 000 ايبيري و 6 000 فارس و 21 فيلا. حققت الهندسة العسكرية لهانيبال العديد من الانتصارات لكنه لم يعرف كيف يستغلها ولم يجرؤ على محاصرة روما. وابتداء من 213 تفوق الرومان من جديد وطاردوا البونيقيين من صقلية، غزا كورنيسليوس سيبون Cornelius Scipion الأندلس واقترح نقل الحرب الى افريقيا.

نزل سيبون في افريقيا 204 . ولم يكن لقرطاجة جيش، وكانت تحول على دعم الأمراء البربر. فدافع عنها هاسدروبال وسيفاقص فقط ضد الرومان، لكنهما أخفقا. وساهم ماسينيسا في سقوط سيفاقص الذي سجن. وتمكن سيبون، بفضل فرق ماسينيسا، من إلحاق الهزيمة، في زاما (202) بالقائد هانيبال الذي استدعته قرطاجة من اسبانيا. فكان على قرطاجة أن تخضع، وأن تعترف لماسينيسا بإملاك الأراضي النوميديّة. لقد ظهر الأغليد العظيم سيد افريقيا، وهو المنتصر الأكبر في الحروب البونيقية.

بحثا عن إيكوزيوم

ان نقودا عثر عليها في مدينة الجزائر السفلى، قد كشفت عن الاسم الحقيقي للمدينة : إيكوزيوم.

« أوضح كانتينو أن إيكوزيم كانت مركبة من كلمتين : الحرف الأول الذي يعني الجزائر، الشيء الذي يعيدنا الى جزر الإمبرالية الأربع التي أثارت مصلحة البونيقين كما هو الشأن في أماكن أخرى ومثل ما هو الشأن، بعد ذلك، حيث لفتت إنتباه العرب الذين أطلقوا على الموقع اسم الجزائر، أي الحزر. من جهة أخرى، ودائما حسب كانتينو، تحمل كوزيم هنا معنيين، «مى عقبة ومعنى طيور شريرة تقيم في الأنقاض، أي بوم. فايكوزيم Ikosim يعنى جزيرة العقبات أو جزيرة البوم. كان فيكتور بيرار قد تطرق الى المسألة بعد، في مشهوراته (إبحارات أوليس) إنطلاقا من إيكوزيوم وترجم كوس. Kous يقارب الإنقاذ. فنكون إيكوزيم إذن جزيرة قوارب الإنقاذ. مؤخرا أبدى ج. داركوبينو تفضيله لهذا التفسير الثالث ».

.....
في ديسمبر 1952، عثر، بمكان بناية الخزينة الحالية، شارع 8 نوفمبر (أول نوفمبر)، عند إقامة أعمدة الخرسانة، على فتحة بثر كانت توجد على مترين أسفل الردم. لقد كشف نحري هذا البثر عن ثلاث طبقات متميزة بوضوح، بالنسبة للذي تهمة العصور القديمة :

(أ) في القاع وأسطل 13 م : توجد فخاريات سوداء، ورمادية وبهضاء. الفخار الأسود والرمادي تمثله كسرات إستثنائية الفائدة لأن الشققات ذات الريق الأسود منفصلة عن آنية جرسية الشكل يعود تاريخها الى القرون الثالث والثاني والأول قبل الميلاد. أي أنها تعود بنا إلى عصر أسبق من نقود إيكوزيم البونيقية وثبت منذئذ علاقات تجارية سواء مع إيطاليا الجنوبية أو المستعمرات اليونانية في جنوب بلاد الغال أو مع مستعمرات الساحل الشرقي من إسبانيا. وفي نفس المستوى عثر على قدح عجيب ينتمي الى مجموعة

اللاية ذات الطينة البيضاء المصنوعة في العديد من معامل بلاد الغال بإحدى ألبير، كما هو الشأن في سانت ريمي أون رولات - Saint Rémi - en Rolat وغرانات وفيشي. فالشققات مزينة جزئيا بنقوش متناسقة دقيقة على الجوف وبارزة أكثر فأكثر نحو الأسفل. هذه المرة يوجهنا هذا الإناء الأبيض إذن نحو بلاد الغال.

(ب) إلى الأعلى، بين - 13 م و - 8.45 م فإن الفخارية مختلفة تماما : إنها الفخارية الحمراء، المبرقة ومن النوع الرفيع. وهي تنتمي إلى ثلاثة أنواع فتعرف بينها فخارية أريزو بالطينة الحمراء، المتينة والرنانة، المحمية ببرنيق لايتحول والموينة بتضاريس وقد اكتسبت شهرة كبيرة في العالم الروماني إذ احتكرت، كما هو معروف، زبائن الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد إلى غاية الفلافية Flaviens، بمعنى حتى حوالي 75 م تقوينا. بعد ذلك تأتي الفخارية الغالو- رومانية التي تنسب لمعامل ليزوكس وغروفيسانك والتي حلت محل الأولى ابتداء من الفلافية. إنها تعرف بسهولة، فالبرنيق أقل لمعانا ومتانة، ويبقى الطين المشوى من النوع الجيد أيضا. يبدأ التزيين دائما تقريبا بنقش من الزخارف البيضاء حيث الشكل متميز. الزخارف البيضاء، على فخار أريزو، ذات شكل قلب التتوات الدقيقة البارزة في شكل تضاريس تؤكد تخطيطاتها وذلك بإكتساب النقوش الكثير من الإناقة والرفعة، في حين أن الزخارف البيضاء هنا مستطيلة وكثيفة ومفصولة بنصال الحراب، وإذا كان نقش الزخارف البيضاء مؤكدا بشبكة متموجة، فإن الخطوط تبدو أفقية وعمودية على الخصوص وتحصر خانات مزينة بأشياء مجازية : معجلة مسرعة، طير كلب جار، الخ. زينة صفيحة الماء ذات الصلصال الصيني منتشرة كذلك. أخيرا، توجد الفخارية الإفريقية، المبرقة كذلك ومن النوع الجيد. تصادف هذه الفخارية الشبيهة بالسابقة في كل مكان من إفريقيا وهي تعود إلى القرن الثاني وأوائل القرن الثالث بعد الميلاد.

(ج) أخيرا وإلى أعلى، بين - 8.45 م و - 6.40 م : لاتصادفنا سوى الفخارية الرومانية الشائعة، الضخمة بالإضافة إلى أن أقل جفافا ورينا وهي تحتوي شوائب أكثر فأكثر ولا وجود للبرنيق وزخرفة التضاريس. إننا في القرون الثالث والرابع والخامس.

مايلاد. عبر هذه الفخارات، هو حياة إيكوزيوم، في علاقاتها التجارية مع إيطاليا الجنوبية وإسبانيا وبلاد الغال وكذلك في حياتها اليومية وفي حياة الأعمال المتعاقبة حول هذا البئر المستودع، بين القرنين الثالث قبل الميلاد والرابع أو الخامس بعد الميلاد.

Marcel Le Glay, *A La recherche D'Icosium dans Antiquités attiques*, tome 2, 1968.

المسألة الأولى

المسألة الثانية

إنه لقبل مجيء القرطاجيين، كان العالم البربري منفتحاً على الحضارة؛ سبق تنظيم المجتمع البربري كذلك قرطاجة بقرون عديدة. فالعائلة القرية وربما المدينة كانت حقائق في « البلاد » ابتداءً من نهاية النيوليتي. قد مسك أغاليد بأيديهم مصير كونفيديراليات كبيرة للقبائل وممالك بربرية، كانت ماصيصيليا أوليها. ويمكن اعتبار تشكيل الممالك البربرية شكلاً من أشكال معارضة ومقاومة القرطاجيين.

المجتمع البربري

إن تراكم بعض، وأحياناً آلاف الأدوات والأسلحة في العديد من محطات ما قبل التاريخ، يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه، في مكان واحد، قد عاشت أجيال متعاقبة وسكان كثيفون جداً.

العائلة

كان الزواج والعائلة قديمين جداً لدى الليبيين حسب أقوال هيرودوت. وكانت العائلة البربرية برئاسة الرجل فكانت تستمر من ذكر إلى ذكر. وكان تعدد الزوجات ممارسة والعزوبة نادرة جداً. وكان للقادة عدة نساء في العادة وللأمراء والملوك العديد من المحظيات، كما كانت العائلات البربرية ترحب بالأطفال. وتمثل الدور الرئيسي للعائلة في الإستمرارية وتضامن الأجيال. وكانت العائلة بالمعنى الواسع للكلمة تتسع لتشمل الذرية الذكور لجد مشترك، ويضاف إليهم أزواجهم. وهذه المجموعة التي تنسب لجد

محاورة أن تتحد. فيما بينها سواء خلال حرب ضد عدو مشترك، أو لفترة
السلام. كانت الكونفيدريالية المكونة بهذا الشكل تضم القبائل القاطنة في وحدة
جغرافية واسعة. فقد عرفت برباريا خلال العصور القديمة تجمعات أكثر
اتساعا. فبوليب Polybe يذكر الليرجيت، ومن بين النوميديين يتحدث عن
الماصيل والماصيصيل والموروس.

الأغاني

كان الملك قيادة حربية بصفة خاصة، وممارسا من طرف الرجال.
إن الملك ملكية عائلية ووراثيا. والوريث، في الأصل، هو الأكبر منا من
ذو العائلة لهذا كان لغايا Gaia ، في حوالي 207 ، كخليفة، لابنه
موموسا لكن أخاه الأكبر سنا. وفيما بعد أراد الملوك أن يحتفظوا السلطة
لأنفسهم، فبعد وفاة ماسينيوس، إقتسم المملكة أبناء الثلاثة مسينيوس وغوليس
والملك. كان الملوك البربر يميزون أنفسهم بطعن والبعض منهم بالكرامة
للأعداء لهم وذلك بأنفسهم بأن جعل مكانهم وكان الصراخ أ
للعاداء لهم بالكرامة لأنفسهم بأن جعل مكانهم وكان الصراخ أ
الملك المعدن بسيفه

فيما كانت تحتفظ بتقاليد المقام وقد بها نفسها وكانت
بعض المدن حتى تلك تقوى على ما كان الحال بين أسيرات
وكان للقرى البربرية نظام أصلي مماولات حيث تفرض الأوامر
على رؤساء القرى. هكذا لا يمكن إلاة الملكية مباشرة وكانت
محدودة، فقد كانت القبائل والمدن والقرى خرى على استقلالها ويمكن
أن يجد نفسك الجائرين بالتبعية لها هذا عند التنظيم السياسي الجديد

كان حذلاً الدابة في حذو أبي ذؤيب مائة - وكان المشركون والمجوس
من دفع لهم العرائش وكان عليهم
والله ما كان المشركون والمجوس
والذي في البيت المشركين
والله ما كان المشركين

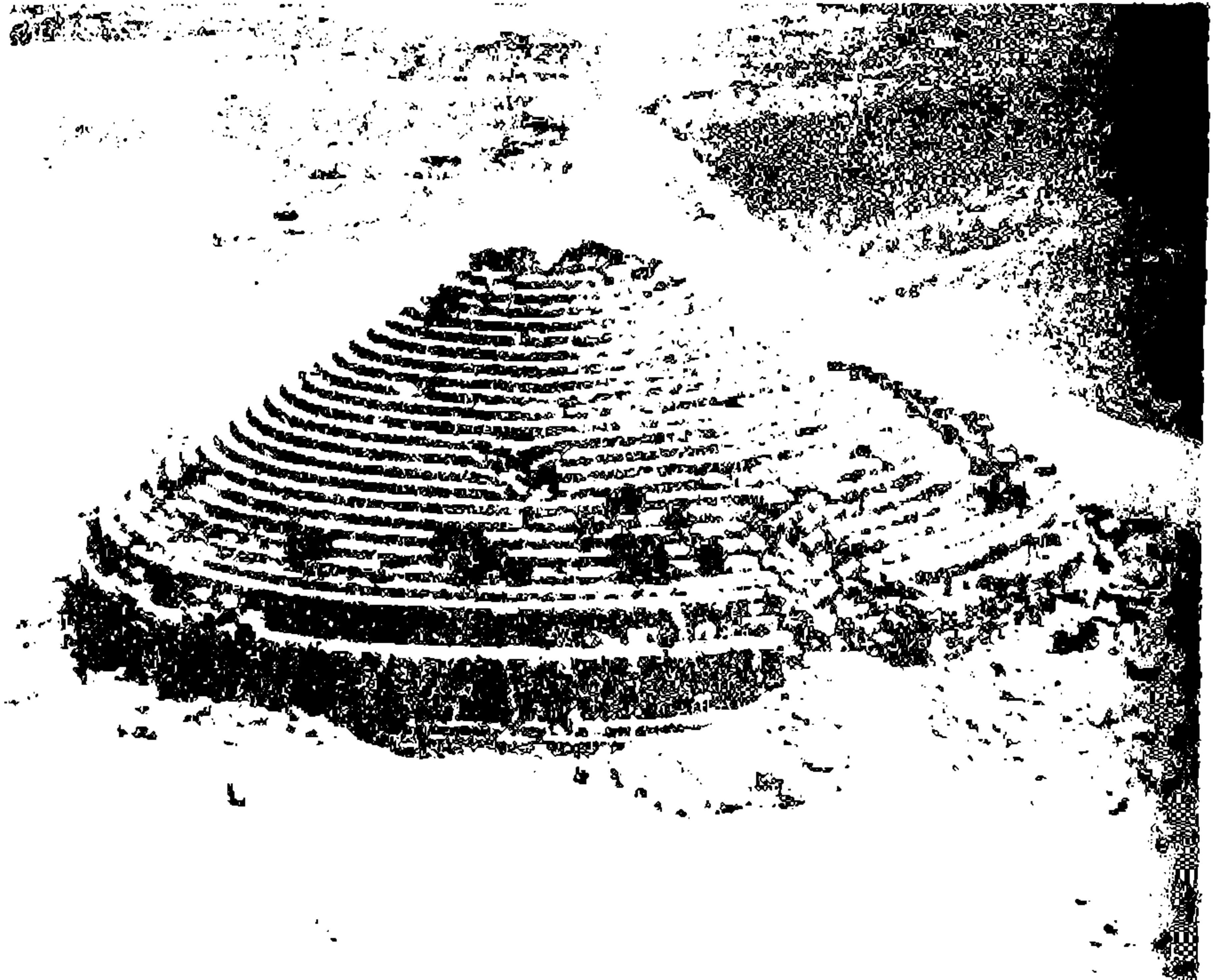
كذلك من الجمارك والنهب والرسوم التي كانوا يفرضونها على الاسواق واستفادوا أيضا من عائدات أملاكهم. فقد إمتلك الملوك البربر خزائن غنية فيوغرطا تمكن من الحصول على أموال هامة سمحت له أن يشتري قسما الرومان.

لدينا العديد من النقود البربرية المصنوعة من البرونز ومن الرصاص وحتى من الفضة. لدينا نقود تعود الى سيفاقص ولابنه فيرمينا في أواخر الثالث. هناك نقود تحمل صورة ملك ملتحى يحمل إكليلًا أو تاجًا مكللًا وبنو هو ماسينيسا، تعود هذه النقود الى عهد الإغليد العظيم، بل وإلى عهد مسيس وغولسة وأدربعل أيضا.

الممالك البربرية الأولى

نشأت بعض المدن على غرار قرطاجة، ولكن واقع البلاد كان متكونا من أراضي القبائل والكونفيديراليات. فالقرية كانت هي الإطار العادي لمعيشة المستقرين أكثر من المدينة. وكان تحت تصرف الرجل الأكثر مجالات واسعة من البلاد.

إننا لا نعرف في أي عصر انتظمت الممالك الأولى وأقدمها قد تكون مملكة يارباس، في القرن الخامس، العاهل الذي أراد أن يتزوج من ملوك حسب أسطورة بناء قرطاجة. وبتردد الكلام كذلك عن ملك موري وعن شخص اسمه ايليماس ملك الليبيين. ومن بين الرؤساء الأوائل للماصيل ذكر نارافاس الذي كان يقود النوميديين في أراضي خارج أملاك قرطاجة. وكانت المملكة الماصيلية موجودة ابتداء من القرن الرابع، يسجل في القرن الثالث، وجود كونفيديراليتين على أراضي الجزائر الحالية :



العبادرامن : الضريح النبروي الواسع المحاط بمدينة الأموات حيث تتخذ القصور شكل الجثوة.



هملة سيفاقص : الصورة متوجة بصفيرة طويكة مشبكة ولحية مستديرة.
الظهر فارس راقص على حصان ملحم يرتدي معطفا متموجا.
يمسك بيده اليمنى أنجاء مطيته وباليسرى قضيبا. المفتاح :

- مملكة الماصيصيل من مولوشة Mulucha (الملوية) إلى
الأمساغا Amsaga (الوادي الكبير) بعاصمتها سيغا (بالقرب من تاغنة) .
- مملكة الماصيل في شرق الأمساغا حتى التراب القرطاجي
بعاصمتها هيوري جيوس أوزاما .

من المؤكد أن الحدود بين الماصيصيل والماصيل قد تغيرت مرات
عديدة وقد بذلت قرطاجة مجهودها للحصول على صداقة وتحالف
المملكتين بهدف التزود بالمرتزقة وضمان الأمن حول مراكزها التجارية غير
أن الملوك البربر لم يكونوا أتباعا طيعين كما تمت قرطاجة وروما .

حارب ملك ماصيليا غايا أبو ماسينيسا أول الأمر القرطاجيين الذين
أخذ منهم أراضي قبل أن يكون حليفهم ، كما حارب سيفاقص القرطاجيين
في أول الأمر وكان ماسينيسا في خدمة قرطاجة في إسبانيا في 206 ، ثم
انتقل إلى إفريقيا وعرض بعد ذلك خدماته على سييون .

مملكة ماصيليسا

يخبرنا سترابون أن « أراضي المور كانت تتبع أراضي الماصيصيل
التي تبدأ من نهر مولوشة وتنتهي عند رأس تريتون » ، فالنهر يمكن أن يكون
نهر الملوية أما الرأس فهو رأس بوقرعون . فالماصيل كانو يشغلون إذن
المغرب الشرقي وثلثي الجزائر . وإذا كانت تبت - ليف يسجل سيرنا عاصمة
لمملكة سيفاقص في سنة 203 ، فإن المؤلفين يشيرون إلى الأهمية التي
أولاها العاهل خلال السنوات السابقة لإسبانيا وغرب البلاد إذن سيغا هي
المناسبة لتكون عاصمة لمملكة ماصيليسا ، فعلا فهناك استقبال
في 206 سييون وأسدروبالم . زيادة على ذلك فإن العديد من قطع النقود
تعود لسيفاقص في سيغا ، ويبدو أنه في ذلك العصر فقط تمكن الملك
من صك العملة ، فالمجموعتان القديتان اللتان تحملان صورة سيفاقص
وصورة ابنه فيرمينا تظهران الملك في كل مرة محزنا بإكليل ، فكان سيفاقص
إذن على رأس قبائل الغرب وأنه لمن هذه المقاطعة الفزيرية الأكثر إزدمارا
كان يحصل على الفضة والجنود . إنه أول قائد بربري ظهر كملك فعلا
وأول ملك صك النقود . عاهل قوي كان يجعله حمل الإكليل مساويا للملوك

بالرغم من أنه تزوج من أميرة قرطاجية إلا أنه كان مستقلا جدا تجاه بلاد زوجته. فقد كانت القوتان العظيمتان للبحر المتوسط الغربي تتنافسان حول تحالفه؛ فالتقاؤه بيسيون وأسدروبال جعل منه قوة ثالثة، القوة التي كانت تسود البحر المتوسط الغربي.

أظهرت حفريات حديثة أهمية المواقع البونيقية، في جزيرة رشقون وفي مرسى مداح والأندلس وفي بتوية وغلثا وفي غورابا سيدي ابراهيم ومواقع المدن الساحلية أيضا التي كانت منافذ ومراكز اقتصادية لماصيصيا. فقد نظمت تجارة متوسطة بين الألبيريا والجزائر الغربية. فمن اسبانيا كانت تأتي الفخاريات ومنتجات معدنية، وكانت الجزائر تصدر العاج وأصداف بيض النعام.

لا يعرف نظام هذه المدن معرفة دقيقة. ولا شك في أن بعضها كان مستقلا ذاتيا، والبعض الآخر كان مراكز تجارية مرتبطة كلية بقرطاجية والأغاليد. ومن المؤكد أن بورتوس سيجينواس Portous Sigenois (عند مصب تافنة) كانت تابعة كلية لسيفاقص. ربما كانت هناك مدن داخلية في مملكة سيفاقص؛ إذ أن أواني فخارية قرب الأصنام وقطعة نقدية في الظهرة تفترض ذلك.

وليست هناك معلومات أكثر حول التنظيم الإداري للمملكة؛ إن دراسة النقود ذات اسم سيفاقص واسم ابنه فيرمينا، تحمل على الاعتقاد بأن سيفاقص قد أشرك ابنه في سيادته.

ونعلم من سترابون Strabon أن ماصيصيا كانت مملكة غنية جدا، فقد كانت تمول كثيرا بالفضة والجنود. كانت الحرب التي خاضها سيفاقص ضد قرطاجية ثم روما وضد ماسينيسا أصل لإنحلال المملكة.

مملكة ماصيليسا

كانت مملكة ماصيليسا تمتد على الجزائر الشرقية وتونس الغربية. إذ كانت أقل إتساعا من مملكة الماصيصيل، لكنها كانت تمثل وحدة أكثر، فسكانها كانوا أكثر ارتباطا بالأرض ومدنها أكثر عددا : دوغا وتبسة

وسيرتا. ومن الصعب تحديد المكان الأصلي لقبيلة ماصيليا. فمن المعروف أن إيليماس قد حكم في ناحية -دوغا، وأن ماسينيسا قد دفن في الخروب بالقرب من سيرتا وأن الميذراسن هو قبر شخصية عظيمة. يمكن اعتبار التل الأعلى أو سيرتا أو الناحية الواقعة الى الجنوب، المكان الأصلي لأجداد ماسينيسا. كانت مملكة ماصيليا تشمل في الأصل ناحية سيرتا، في الغرب، وحوض باغرادا مع الدورسال التونسية في الشرق. فهي ضيقة في الشمال، ويتسع التراب الى الجنوب في الأراضي الشاسعة التي كان الجيتول البدو يتحركون فيها.

بلغت هذه المملكة درجة عالية من الحضارة : أراضي مزروعة جيدا وتربية ماشية مشهورة ومدن عديدة، وعندما أعلن ماسينيسا ملكا بعد سقوط سيفاقص، وأخذ الإغليد العظيم مقابلد المملكة الماصيلية بيده أصبح مصيره هو مصير كل البربر.

مملكة الماصيصيل

- سفاقص (حوالي 213 - 202 ق. م)

- فيرميا (202 - 192 ق. الميلاد)

ملوك نوميديا

غابا نوفي 208 ؟

أوزلبس (توفي 207) ؟

فاعة ماسيفا

(118 - 148)

ماسينينا

(148 - 202)

كابوسا (207 - 207) ؟

ليكوناسيس (202 - 204)

ميا

(118 - 148)

فولوة

(140 - 148)

مستبل

(140 - 148)

مانخابا

تيانوس

فاعة

اندروبال

أدرجل

(112 - 118)

ميجال 1

(140 - 118)

غودة

(... - 105)

بوغرطة

(104 - 118)

ماسيفا (توفي 110)

ميجال الثاني

(60 - 106)

أركيبا

هيارباس

(81 - 108)

يوبا الأول

(46 - 60)

حكما

ماسينا

(48 - 81)

يوبا الثاني

(25 ق. 23 بعد الميلاد)

ماليا

الغرية

أرايون

(40 - 60)

بطرلمي

(40 - 23 بعد الميلاد)

حكما موريطانيا

من 40 الى 43 إلحق موريطانيا، في 43 التزل الى المقاطعة

Cité par J. MAZARD, CORPS NUMMORUM NUMIDIAE MAURITANIQUE paris 1955, P. 28

الفصل الخامس

حكم ماسينيسا

1

2

3

4

ماسينيسا هو أكثر ملوك نوميديا شعبية. إن فترة حكم هذا الملك العظيم الطويلة ليست معروفة، مع الأسف، إلا من خلال الحروب البونيقية. فتاريخه الطويل مرتبط بتاريخ روما في إفريقيا. لقد أوقفت روما بالفعل حركة توحيد البربر وذلك بعرقلة النوميديين في إستعادة قرطاج، ثم فرضت بعد ذلك تقسيم مملكة ماسينيسا. والسؤال مطروح حول معرفة ما إذا كان هذا الأخير قد استخدم روما أم أنها استخدمته؟ يسمح عمله بالميل إلى الأطروحة الثانية. كان عاهلا عظيما فتجاوزت شهرته حدود مملكته؛ لقد حقق وحدة إفريقيا البربرية وجعل منها أمة حرة ودولة مستقلة ومزدهرة وترك ذكرى أغلبد عظيم موصيا الأجيال اللاحقة بالرسالة السامية التي غالبا ما حمل لواءها المقاومون الجزائريون : « إفريقيا للأفارقة ».

الإنسان

النص الليبي الذي يقدم إسمه يكتبه MSNSN ، فيكون نطق إسمه إذن ماسينيسا MASSINISSA (سيدهم). في نهاية حرب هانيبال كان يبلغ ماسينيسا 37 سنة من العمر. شبابه مليء، فقد حارب في إفريقيا وفي إسبانيا وغزا مملكة الماصيل مرتين ومنى بالفشل عارفا مغامرات الخارج عن القانون والهارب، كما شارك في الانتصارات الرومانية محتلا مكانة هامة في معركة زاما. أقام سلطته على الماصيل واحتل دول سيفاقص واعترفت به روما. الكا

كان ماسينيسا جميلا ، ذا قامة طويلة وقوة نادرة. فإمكانه أن يظل واقفا أو على ظهر الحصان نهارا كاملا ، وهو صاحب الثمانين سنة يقفز على الحصان دون أية مساعدة ويتحدى البرد والمطر برأس عارية ؛ تقدمه النقود بالغاً من العمر أربعين أو خمسين سنة بقسمات منتظمة وشعر طليق ولحية مدبية ، وكانت قوته نادرة حيث أنجب طفلا وهو في سن 86. كان له 44 ابنا ذكرا ومع ذلك كان يحبهم. كان ذا شجاعة عالية. في الريف يقاسم فرسانه معيشتهم ، ولكنه يعرف كيف يعيش في قصره بسيرتا، أين كانت الموائد؛ في ولائمه، مغطاة بآنية من الفضة وسلاسل من الذهب. خصّ ابنه مستنبل بترية يونانية، مبرزا بذلك إهتمامه بالثقافة الهلنستية وربما كان ذلك نوعا من المعارضة لروما.

وحدة «البلاد»

كان توسع مملكة ماصيليا منتظما؛ ثم في إتجاهين ، نحو الغرب ضد الماصيصيل ونحو الشرق ضد قرطاجة. فبعد معركة 203 التي سقط خلالها سيفاقص ، فتح ماسينيسا الجزء الأكبر من ماصيصيليا كان بين يدي ابن سيفاقص ، فيرمينا، الذي كان عليه أن يواصل مقاتلة روما بعد معركة زاما وأن يوقع السلم معها بعد ذلك؛ ابتداء من 201 نظم ماسينيسا، الذي إكتفى في أول الأمر بإعادة منطقة سيرتا، فتح كل المملكة. وفي حوالي 152 كان ماسينيسا سيد كل تراب نوميديا، واختفت مملكة ماصيصيليا. إن فتوحات الجهات الغربية لمعروفة بشكل أفضل، بقدر معرفة الحرب البونيقية الثالثة التي خرجت منها والتي كانت أصل إقامة الرومان في إفريقيا. في الشرق، كان ماسينيسا بأراضي أجداده، الأراضي المحتلة من طرف الفينيقيين. فالأراضي المحتلة من طرف قرطاجة، بالنسبة لماسينيسا، أصبحت كذلك بالعنف وهي أصل أملاك قرطاجة اللاشرعية. وكان حق ماسينيسا معترفا به صراحة من طرف سيبون.

إن حوادث الحدود ومتابعة المتمردين في الأراضي القرطاجية واحتلال أرض، كان قد سلمها سيفاقص للقرطاجيين ، قد شجعت ماسينيسا. فبين 174 و172 إنتزع القرطاجيين أكثر من 70 مدينة وموقعا، وفي 162 إستولى

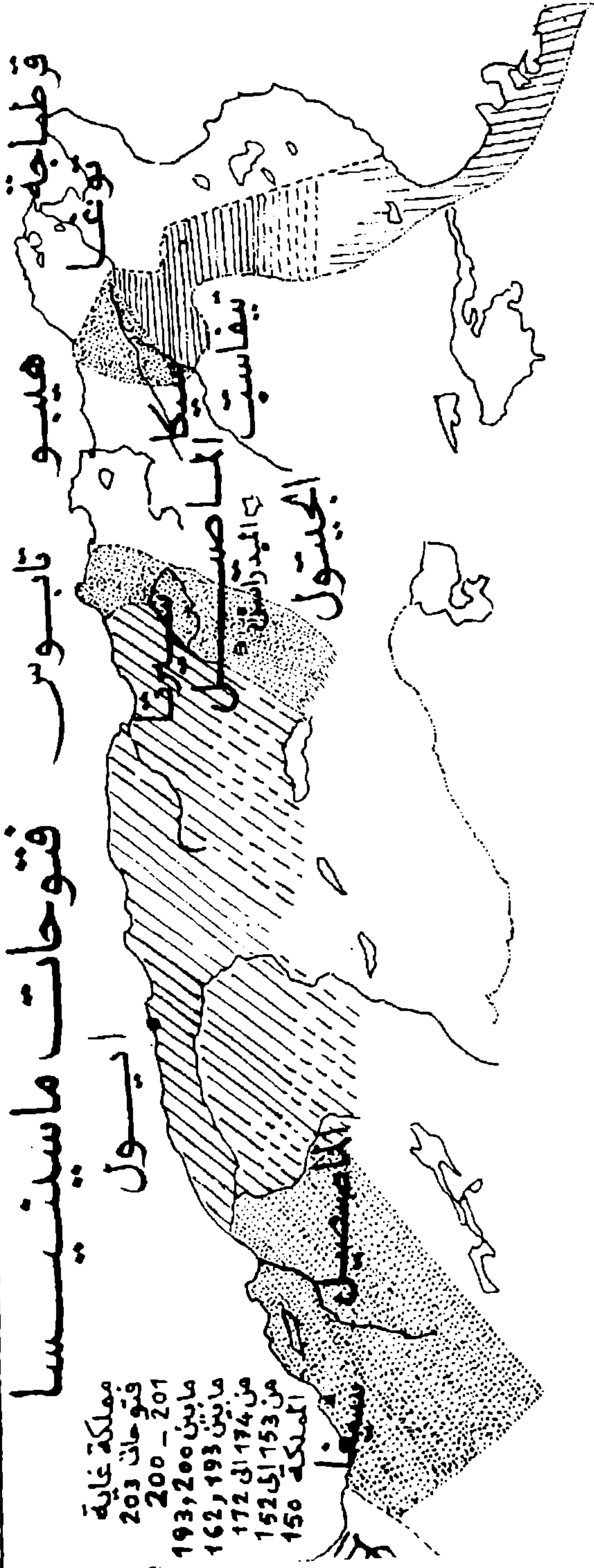
بصفة نهائية على مدن أمبوريا EMPORIA وليبتيس ماغنا Leptis Magna على الخصوص، و في حوالي 153 إستولى على ناحية السهول الكبرى (الوادي الأوسط من مجردة). لقد دفعت روما ماسينيسا أو تركته يفعل مايشاء. في 150 انفجر الخلاف في وضع النهار. حيث طردت قرطاجة أنصار ماسينيسا من المدينة، وحاولت أن تدفع البربر الى التمرد. وفي سن 88 سنة قاد الأغليد العظيم النوميديين إلى النصر (150). فكان على قرطاجة أن تقبل بالهزيمة وأن تدفع تعويض حرب كبير. تركت روما الأمور هذه المرة تسير على حالها. واستغلت ذلك بشكل أفضل للاجهاز على قرطاجة. حيث قرر مجلس الشيوخ إنهاء المدينة، فعلى القرطاجيين أن يتخلوا عن عاصمتهم. إن ذعرا عنيفا قد أصاب القرطاجيين المحاصرين من طرف روما. ولم يتحقق تخريب قرطاجة بسهولة، فدعا الرومان ماسينيسا لكن بدون جدوى. الدعوة الثانية كانت من طرف سيبون الإيميلي لكن ماسينيسا كان قد توفي (148). إستمر الصراع حتى 146، وفتحت قرطاجة بيتا بيتا. وقرر مجلس الشيوخ تخريبها واستؤصلت المدينة من الوجود. حيث لم تسمح روما لماسينيسا بالإستيلاء على أرض قرطاجة. وأوقفت الإمبريالية الرومانية العمل الوجدوي للعاهل البربري العظيم. ويكفيه ماسينيسا أنه كان، كما يخبرنا نيت ليف، قد أعلن أن إفريقيا يجب أن تعود للأفارقة وأن تتخلص من الأجانب سواء كانوا فينيقيين أو روماناً. أصبحت المراكز التجارية القرطاجية القديمة موانئ نوميدية. وعاد العالم البربري اذن الى البربر. لقد تجاوزت شهرة ماسينيسا حدود افريقيا، فقد سمح له أسطوله الهام كذلك بإقامة علاقات تجارية مع أثينا، ديلوس ورودرس. فأقيمت على شرفه تماثيل في المدينتين الأخيرتين. لقد كانت روما تضع في اعتبارها أن لها قضية مع عاهل كبير. وبنية كسبه لقضيتها، أعلنته ملكا في الوقت الذي كان فيه بعد ملكا، ومنحته مملكة سيفاقص في حين كان قد فتحها بعد. لقد تنبأت روما بأن سيادة ماسينيسا ستكون سيادة استثنائية.

...

...

فوائد ما سئل

55



عمل الأغليد العظيم

السلطة :

كان حكم ماسينيسا أول حكم تاريخي. فقد كان طويلا جدا (من 203 إلى 148) ، وهذه المدة الطويلة تفسر بالقوة البدنية والعقلية للعاهل بدون شك ، لكنها تفسر أيضا بكفاءة الملك الذي عرف كيف يفرض سلطته على أفراد عائلته ويبعد المنافسين المحتملين. وكان على ماسينيسا أن يصادف صعوبات عديدة مع اتباعه رؤساء القبائل. فتزاعاته مع مازيتول وتوشايوس وأغازيس وسوباس ، الذين لم يترددوا في الانتقال الى جانب العدو القرطاجي ، تثبت ذلك. لقد كان على ماسينيسا أن يحصل على اعتراف رؤساء القبائل به. فالأمر يتعلق اذن بنوع من الولاء ، حيث أراد أغليد أن يكون عاهلا لا رئيس قبيلة ، وقد نجح في توسيع سلطته الى حد بعيد. كانت المملكة النوميديّة تجميعا للقبائل الكبيرة أو الكونفيدريالات التي كانت تشكل وحدات سياسية أساسية. وكانت تملك أسواقا وبعض القرى ؛ كانت المدينة منظمة خارج القبيلة ، وتدار من طرف حاكم لكنها تدار أيضا من طرف جمعية للشعب تملك السيادة المحلية. خضعت قوة المملكة لوحدة الشعب الماصلي وتلاحم القبائل حول العاهل. اذ وفرت القبائل للملك فرقا عسكرية وعرف ماسينيسا كيف ينظم جيشا نظاميا تحت سلطته. وكان تنظيم هذا الجيش مشروطا بتنظيم المالية. فاستلهم الملك في كل هذه الميادين النموذج البونيقي. هل استفاد ماسينيسا من عبادة ملكية ، وهل رأى فيه النوميديون إلها في حياته ؟ هذا ما يراه بعض المؤرخين. لقد قوى ماسينيسا سلطته صابغا عليها صبغة الهبة. واذا كان تأليه الملوك تعوزه الأدلة الكافية ، فمن المؤكد أن ماسينيسا ، مثل أسلافه زيادة على ذلك ، قد استفاد من عبادة جنائزية أصلها قديم جدا.

الزراعة :

يخبرنا سترابون Strabon أن ماسينيسا حول عددا كبيرا من البربر الى مزارعين وحضرهم. فمملكة ماصيليا كانت تملك مناطق فلاحية عديدة ،

ووفرت الفتوحات أراضي غنية جديدة للمملكة : في بعض الجهات، كما
يخبرنا سترابون، يكفي كشط الأرض بعد الحصاد كي تعطي الحبوب الساقطة
محصولا جديدا. أثني بوليب كثيرا على سياسة ماسينيسا الزراعية، فقد اهتم
الأغليد بالفلاحة فعلا، واستثمر الحقول الملكية التي اتسعت بفضل
الالحاقات بصفة معتبرة. ويمكن الاعتقاد في أن المدن التي يرتبط اسمها
بنعت ريجيا أو ريجيوس كانت جزءا من الأملاك الملكية : بولا ريجيا Bulla
Regia، زاماريجيا، هيورييجيوس hippo Regius، تيميداريجيا. فباستغلاله
لحقوله قدم ماسينيسا بنفسه المثل لرعاياه وكانت النتائج التي تحصل عليها
أصل شهرته فيما يخص الفلاحة. فديودور Diodore يخبرنا أنه ترك لكل واحد من
أبنائه أرضا من 875 هـ تقريبا متوفرة على كل ما هو ضروري للفلاحة : عتاد وماشية.
انه بفضل السلم الذي ساد مملكته بصفة خاصة نمت الزراعة النوميديّة في عهد
ماسينيسا.





قطعة نقدية تحمل اسم ماسينيسا بالحروف كلها (متحف قسنطينة)



عملة ماسينيسا : صورة مكحلة بالفار، طوق أنيق، صلوجان مزخرف.
الظهر : حصان يخطو، الى الخلف رمح مزخرف مفروز في الأرض،
الى الأسفل : مفتاح قابل للفلك جزئيا. (HMNLKT).

— 2 —

المدن :

تجمع المزارعون الجدد في قصبات مبنية. فضل ماسينيسا
تمدين البربر؛ منح الحواضر الجديدة تنظيمًا مستلهما من تنظيم المدن
الفينيقية بحكم أطلق عليهم اسم سوفات suffètes . ويقدم كامبس جدولا
مفصلا للمدن الرئيسية بالمملكة النوميديّة :

- العواصم : سيرتا، سيفا Siga ايول Iol ، زاما.

- مدن ريجا : تيميدا ريجيا، زاما ريجيا، بولاريجيا،
هيبوريجيوس. تيميدا.

- مقرات خزائن المملكة أو عواصم الدوائر الجبائية : ماکتار Mactar
تيميدا، ثالا كابسا Thala Capsa ، سوتول Suthul ، كالاما Calama ، سيرتا،
كاسيليوم مولوشة Castellum de la Mulucha

- مدن مدارة من طرف سوفاتين (في العهد النوميدي أو الروماني)
التيبوروس كالاما Altiburos Calama ، كابسا، سيرتا، غاديوفالا Gadiaufala
غاليس Gales ، ليتيس ماغنا Leptis Magna ، ليميزا Limisa ، ماکتار،
ماكولاتوغا Macula Thugga.

- مدن أخرى للمملكة النوميديّة : ماکاماراتا، كونوغو Cogono .
مادوروس Madauros ، إيكوزيوم، لاريس Lares ماکوماديس Macomades
ناراغارا Naragara ، ريجيا، روسكاد، صالدي، سيكا Sicca سيميتر Smitter
تابراكا Tabraca ، تينا تاغورا Thaenae Thagura ، تيميسي Timici تيسيديوم
Tisidium ، فاغا Vaga زوكشابار Zucchabar

التجارة :

أهمية التجارة مؤكدة بواسطة نمو النقود. والكثير من النقود تمثل
شخصية ملتحية، وعلى الظهر حصانا طليقا راکضا أو ثائرا، والعديد منها
يحمل MN اختزالا لـ MSNSN بمعنى ماسينيسا أو MKWSN بمعنى مسيسا.
كانت النقود قد ضربت قبل ماسينيسا، بقدر العدد الكبير من القطع التي
وجدت حوالي قسنطينة. وكانت عملة من الرصاص ومن البرونز تلك التي

استعملت في التجارة الداخلية. وكانت هذه المبادلات تتم بالمقايضة أيضا، وكان السكان الريفيون يدفعون ضرائبهم ماشية وقمحًا. أما التجارة الخارجية فقد هبأ لها ماسينيسا نقودا من الذهب والفضة الأجنيين اللذين كان يتحصل عليهما مقابل القمح والعاج وريش النعام وحيوانات السيرك والخشب. وكان لمملكة ماسينيسا علاقات تجارية مع اسبانيا وقرطاجة وروما. بل وكانت لها علاقات حتى مع العالم اليوناني : رودس وأثينا وديلونس. فكانت نوميديا تصدر القمح بصفة خاصة؛ ينظم كامبس، بالرجوع الى تيت. ليف، الصادرات نحو روما كما يلي :

14 000 قطار من القمح 10 500 قطار من الشعير في 20 200

14 000 من القمح 198

56 000 قطار من القمح 28 000 قطار من الشعير في 191

70 000 قطار من القمح 170 في

لقد جذب ماسينيسا تجارا يونانيين الى حواضره. وخص بولب بإستقبال جيد جدا. حافظت إفريقيا على علاقات مباشرة مع الشرق دون المرور بقرطاجة. وذلك كان عمل ماسينيسا.

الدين :

حتى على المستوى الديني كان لماسينيسا تأثير كبير. ففي زمنه كانت المدن تعبد بعل هامون، والآلهة الفينيقية، أما الريف فكان يعبد الآلهة والجنيات المحلية. وكان بعض الإليين يعبدون الشمس والقمر أيضا. من المؤكد أن ماسينيسا لم يستطع أن يرفض معتقدات الإفريقيين، حيث أنه لقي إفريقيا عبّر، حين إستقبل ب. كورنيليوس سيبون : « إنني أحمد لك الشمس العالية جدا وآلهتكم السماوية .. ». إنه إله الشمس ذلك الذي يتضرع اليه. مكسوبا من الحضارة الفينيقية، فإنه وافق على أن تعبد الآلهة الفينيقية في المدن. إذ هو الذي هدى النوميديين، المفتونين باليونانيين، الى عبادة السيريس اليونانية، العبادة الطبيعية ذات المشاهد المأجنة الموجهة الى إنعاش الخصوبة الأرضية.



صومعة الخروب : ضريح ماسينيما

7.

خلفاء ماسينيسا

أراد ماسينيسا أن يضمن العرش لذريته، وقررت الامبريالية الرومانية في هذا الشأن خلاف ذلك.

بالفعل وخوفاً من تشكيل دولة بربرية قوية، حطمت روما آخر طموح لماسينيسا، إبقاء المملكة لشخص اسمه ميسيپسا Micipsa وهو الذي أعطاه خاتمه. الشيء الذي كان نوعاً من التوبيخ. ماهي غاية ماسينيسا من ترك العناية بتسوية خلافته لمسيبيون الإيميلي، لروما؟ ألم تكن له ثقة بإرادة ميسيپسا؟ هل كان لمجلس الشيوخ الروماني فتوى؟ ألم تكن له ثقة بإرادة ميسيپسا؟ هل كان لمجلس الشيوخ الروماني فتوى؟ هل كان هناك تدخل من الأتباع النوميديين؟ قسمت المملكة بين أبناء ماسينيسا الثلاثة الذين استعملوا لقب الملك. فأصبح ميسيپسا رئيس الإدارة المدنية، وغولوسة Gulussa رئيس الجيوش ومستنبل Mastanabal كلف بالعدالة وربما بجباية الضرائب.

لقد استحق ميسيپسا، الذي عاش أكثر من أخويه، مواصلة عمل الأغليد العظيم. واحتفظ بالعلاقات الحسنة التي بدأت في حكم أبيه مع روما وسعى الشيء نفسه مع جاره المورى. ومن المؤكد أن عهده كان هاماً، فقد ازدادت الوثائق الرسمية : النقوش القديمة لمعبد ماسينيسا في دوغا، نقش جبل ماسوج البونيفي، نقش شرشال الماتمي. من المحتمل أن إيول كانت إحدى عواضم ميسيپسا. لقد أحدث موت الملك عام 118 أزمة : فقد ترك ميسيپسا المملكة لثلاثة ورثة : ولديه أذربعل Adherbal وهيمبسال Hiempasal اللذين إقتسما الوظائف المدنية وابنه بالتني، ابن أخيه، يوغرطة الذي إستلم قيادة الجيوش. وإذا كانت التقسيمات تضعف البربر، فإنها لاتغضب روما. بل بالعكس، لها فائدة في ذلك. ورغم ذلك فإن عبارة Regnum Numidiae قد ظلت على قيد الحياة. هناك أغليد عظيم آخر سوف يسعى لتوحيد نوميديا : يوغرطة.

ماسينيسا

كان ماسينيسا، ملك النوميديين، أفضل وأسعد الملوك في أيامنا. حيث حكم أكثر من رستين سنة، وظل على الدوام في صحة جيدة. عاش طويلا، وبلغ سن التسعين سنة. وقد كان يتفوق على كل معاصريه بقوة البدن. فكان بإمكانه أن يظل واقفا كذلك نهارا كاملا في نفس المكان، عندما يتحتم البقاء واقفا. وعندما يتحتم البقاء جالسا فإنه لا يبدي أي حاجة إلى الوقوف. يتحمل الأتعاب التي نحتمها عليها المسيرات الطويلة على الحصان، في الليل كما هو الحال في النهار، دون أن يشعر بأي شكل من تلك الأتعاب. وما هو حدث يوضح قوته البدنية : عند وفاته في سن التسعين سنة، خلف ولدا يبلغ أربعة عشرة سنة، يسمى ستيمبانوس، وهو الذي تبنى ماسينيسا فيما بعد. ولقد كان له، قبل هذا المولود الأخير، تسعة أبناء آخرين. وبفضل المحبة التي كانت تجمعهم دائما، لم تعكر أبدا سلم مملكته مؤامرة ولا أية جريمة عائلية، خلال حياته. لكن أجمل وأروع أعماله كان كالتالي : قبله، كانت نوميديا كلها جديبا وساد الاعتقاد بأن أرضها لا يمكنها أن تقدم محاصيل، ورغم ذلك، فإنه بموارده فقط، أول من أثبت أنها تستطيع أن تنتج كل أنواع الثمار، بقدر إنتاج أي قطر آخر. وذلك بإنشائه لحقول خاصة من عشرة آلاف بلتير، قسمها بين أبنائه، وقد اتضحت أنها خصبة جدا. انه لمن الانصاف التذكير بذلك، وذلك لأحياء ذكره أحياء جديرا.

Polybe, Histoire, XXXVI, 16, Collection de la Pléade, Paris, 1970, PP. 1169 – 1170.

ماسينيسا وسييون

ان المعادلات، تم ماسينيسا والتي كانت قد بدأت من قبل، قد وجدت مبرا ومبررا لكليهما، لأن النوميدي كان حتما يريد مقابلة سييون شخصيا وأن يصادفه حتى ينطلق الوفاء بينهما، لهذا قام سييون برحلة طويلة بهذا القدر ودورة كبيرة بهذا القدر. لقد إحتج ماسينيسا، الذي كان في قادس والذي أخبره مارسيوس بقدم سييون، بأن خيوله كانت متعبة.

ومحبوسة في هذه الجزيرة؛ لقد سببت مجاعة عامة بالنسبة للكائنات الأخرى الموجودة هناك، وأنها هي نفسها قد شعرت بذلك، من جهة أخرى فقد فرسانه حيويتهم بسبب انتظار تسريح من ماجون للانتقال الى القارة نهب النواحي الاسبانية الأقرب. من هناك يرسل الى سييون ثلاثة رؤساء نوميديين، لتحديد وقت ومكان محادثتهما. ويدعوه للاحتفاظ بإثنين منهم كرهائن ويعيد الثالث ليقوده الى حيث قيل له، وجاء القائدان الى الموعد رافقهما حامية صغيرة. كان النوميدي قد أعجب بعد بسييون، الرجل العظيم هذا، نتيجة إنتشار أخبار مآثره، وتخيله وقورا ومهيبا كذلك؛ بل الأكثر من ذلك هو ذلك الاحترام الذي كان يتشبت به في حضوره : زيادة على كون سييون يتمتع بهيئة ضخمة طبعاً، فإن هذا الأخير كان يتحلى بصفيرة طويلة من الشعر، لم تكن من الأدب والاناقة، لكنها كانت حقيقة رجولة عسكرية؛ كان في سن كل القوى في قمة نشاطها، قوة كانت، بالنسبة له، أكثر من اكتمال وعظمة ذلك الذي أعاد المرض، بشكل من الأشكال، إزدهار شبابه من جديد. شكر النوميدي سييون، مذهولا تقريبا، عند إقترابه منه على إطلاق سراح ابن أخيه؛ منذ تلك اللحظة، كما أكد، أخذ يبحث عن هذه المناسبة التي جاءت الآن كفضل من العنالدين، فلم يتركها تضيع، وكما أضاف، فإنه يريد أن يقدم خدمة لسييون وللشعب الروماني لم يقدمها أجنبي آخر عن روما، وهي الشيء الذي لا يستطيع إظهاره في إسبانيا، وعلى هذه الأرض الأجنبية المجهولة، لكنه سيظهره على الأرض التي ولد فيها وتربى على أمل التاج الأبوي بسهولة؛ إذا كان هذا هو سييون نفسه الذي يرسله الرومان جنرالاً إلى إفريقيا، فإنه يأمل الاتعيش قرطاجة مدة أطول.

كان سييون مسرورا لرؤيته والإستماع إليه، وهو يعلم أن ماسينيسا قد كان الأفضل في الخيالة القرطاجية، وليشاهد الرجل الشاب وهو يعبر عن أحاسيسه بذلك الأسلوب. بعد تبادل العهود، عاد سييون إلى تاراغون؛ بموافقة من الرومان نهب ماسينيسا الأراضي القريبة حتى لا يبدو أنه إنتقل الى القارة بدون سبب، وعاد إلى قادس.

Tite – Live, Histoire Romanine, Classiques Carnier, Paris, tome VI, XXXV, pp. – 273 – 275.

ماسينيسا في سيرتا

كانت سيرتا عاصمة لمملكة سيفاقص؛ التجأت إليها مجموعة من المهزومين. كان التخريب أقل أهمية من النصر في هذه القصة، إذ لم يكن فيها إلا صراع الخيالة؛ لم يكن بها أكثر من خمسة آلاف قتيل، أقل من نصف عدد الأسرى الذين تم أسرهم خلال مهاجمة المعسكر أين كانت قد نزلت جمهرة من المنحاربين، كانوا متأثرين بفقدان ملكهم. في هذه اللحظة، أعلن ماسينيسا أنه لاشيء، بالفعل، أجمل من أن يرى مملكة آبائه منتصرة. مرة أخرى ومسترجعة ثانية، بعد مدة طويلة، في رأيه، لكن الانتصارات ليست أكثر من الأحلام، لا تمنحه وقتا للاستراحة. حينذاك - كما أضاف - سمح له ليليوس أن يستخلفه في سيرتا، مع الخيالة وسيفاقص المكبل، وقد جعله الهيجان والخوف العام سيد الجميع؛ تمكن ليليوس من متابعته على مراحل صغيرة؛ فوصل ماسينيسا الأول إلى أمام سيرتا، بموافقة ليليوس، واستدعى نبلاء المدينة، لكنه قبل هؤلاء الرجال الذين كانوا يجهلون مصير ملكهم، الذين لم يخبروا بالحدث، لم ينجح لا بالتهديد ولا بالإقناع، قبل أن يريهم ملكهم المكبل حينئذ وأمام فرجة مربعة بهذا القدر، بدأت التأوهات وأخذ الخوف يغادر المتاريس من جهة، ومن جهة أخرى فتح الإمتثال المفاجيء للذين يريدون تفضيل المنتصر الأبواب. وبعد أن أرسل فرقا بالقرب من الأبواب وإلى نقاط التماس المناسبة، بهدف صد أي شخص عن الفرار، ذهب ماسينيسا متعجلا لحيازة القصر الملكي.

Tite Live, Histoire romaine, Classiques Garnier, tome VI, XII pp.473 - 475

ماسينيسا ضد قرطاجة

(ماسينيسا يفتك سيرت الصغير وأمبوريا من القرطاجيين وروما تبرئه أمام ضحاياه)

في إفريقيا، كان ماسينيسا، مجذوبا من المدن العديدة المقامة على الشواطئ. سيرت الصغير وكذلك من رخاء القطر المسمى أمبوريا، يطمح منذ زمان طويل في المداخيل الهامة التي كانت تذررها هذه البلاد. فقد كان يسعى

لأخذها من القرطاجيين قبل العصر الذي نشعله الآن بقليل سيصبح، بعد قليل، سيد البلاد المنبسطة المكشوفة، بسبب كون القرطاجيين، الذين ينفرون دائما من خوض الحرب في البر، مرتخين حينذاك بفعل سنوات طويلة من السلم. لكنه لم يوفق في الاستلاء على المدن، التي كانت محروسة. نقل الطرفان نزاعهما إلى مجلس الشيوخ الذي أرسل إلى سقراط عدة مرات. وفي كل مرة كان القرطاجيون يرون أطروحتهم ترفض من قبل الرومان، لأنهم كانوا على خطأ بل لأن القضية الرومان كانوا على يقين من أنه من مصلحتهم أن يحكموا ضدهم. مع أن ماسينيسا نفسه، قبل بضع سنوات، حين كان يطارده بفرق عسكرية المتمرد أفتار، كان قد طلب من القرطاجيين السماح له بالمرور على البلاد موضوع النقاش، لكن هؤلاء، معتبرين أنه لا يحق له ذلك أبدا، رفضوا طلبه ذلك. غير أنه في العصر الذي وصلنا فيه، لم يكن القرطاجيون قادرين على فعل أي شيء إلا الأذعان أمام الأحكام التي سلمتها لروما. وكان عليهم لا مغادرة البلاد والمدن التي وجدوا فيها فحسب، بل وكذلك دفع مبلغ خمسمائة تالان، ويتعلق الأمر بالمداخيل التي سحبوها منها بداية الخلاف.

Polybe, Histoire, XXXI, 21, Collection de la Pléade, Paris, 1970. pp.

1098 1099

الفصل السادس

حرب يوغوسلافة



كان، منذ سقوط قرطاجة، قد إستقر في إفريقيا إيطاليون يبحثون عن الثروة وانتشروا في مدن المقاطعة ونوميديا كحرفين وكتجار. واستعادت قرطاجة التي أعيد تعميرها الحياة ثانية. لقد وجدت روما مصلحة في إفريقيا واستطاعت أن توقف العمل الوحدوي لماسينيسا العظيم. فمصلحتها وسياستها هما : نوميديا مقسمة ومضعفة بملوك مخلصين لها. لكنها لم تجد في بوغرطة ذلك العاهل التابع الذي تنشده.

يسجل بوغرطة، في تاريخ نوميديا، المحاولة القصوى لأغليد بربري في سبيل مواصلة عمل ماسينيسا : ضمان وحدة واستقلال العالم البربري والوقوف في وجه الغزاة الأجانب. فقد كانت حربه حربا في سبيل الحرية. وقد عرفت فيه روما كفاءة مقاومة البربر.

بدايات بوغرطة

آوى مسيسا، والد أدربعل وهيمبسال، بوغرطة ولد أخيه مستبعل. يخبرنا سالوست أن بوغرطة قد تميز منذ الصغر بقوته، وهيبته وخاصة بذكائه. كان بارعا في التمارين المدنية، والصعود على الحصان ورمي الرمح، كان الأول في العدو والأحسن في الصيد. الشيء الذي يؤكد جيدا إسم « بوغرطان Yougourthen »، أعظمهم. كان مسيسا مبتهجا ببدايات بوغرطة، لكنه في الوقت نفسه كان قلقا على أطفاله، فقد أزاحهم الابن بالتبني في جميع الميادين. مرسلا من طرف مسيسا إلى إسبانيا للقتال إلى جانب الرومان،

ظهر يوغرطة قائدا عسكريا كبيرا، فهنا سيبون ماسينا على شجاعة ابن أخيه كما يلي : « إن لك في يوغرطة رجلا جديرا بك وبأبيك العظيم ماسينا » حيثذ قرر ماسينا أن يقرب إليه يوغرطة بالنعم، فأقر نسبه وتبناه شرعا.

عند وفاته ترك المملكة لأبنائه الثلاثة. ولما ساد بين يوغرطة وأخويه بالتبني القليل من المودة، فقد قرروا إقسام خزائن المملكة فيما بينهم وتعين حدود الأراضي التي ستعود لكل واحد منهم. ولم يكن تقسيم نوميديا الى ثلاثة أقسام ليرضي يوغرطة، فأصبح التقسيم اذن مسألة روما. إنه لفي مقدمات المسألة أين قتل يوغرطة هيمبسال؛ أرب هذا الحدث أدربعل وقسم النوميديين الى معسكرين. واستطاع يوغرطة متبوعا بالنخبة العسكرية أن تغلب على فرق أدربعل (116)، وأن يجبر أخاه على التزوج الى المقاطعة الرومانية (115)، وعلى طلب العدل من روما. فاحتل يوغرطة نوميديا كلها. وغمر منبعثوه الى روما أعضاء مجلس الشيوخ بالهدايا، وبدلوا جهدهم على أن أى اجراء قاس لن يتخذ ضد رئيسهم. حيثذ عين الحزب المعادى ليوغرطة 10 محافظين، على رأسهم لوسبوس أوبيموس، وهو العدو الصريح للعاهل النوميدي، لحل الخلاف بين الأخوين. وغمر يوغرطة ل. أوبيموس بالهدايا والوعود. وقسمت المملكة، فسلم الجزء الأوفر غنى والأكثر سكنا من نوميديا، وهو الجزء الذي يلامس موزيطانيا، ليوغرطة، أما أدربعل فقد سلم له الجزء الشرقي الذي فيه مواني وحواضر أكثر، بالإضافة الى سيرتا، ولكن ثرواته أقل. لم يرضخ يوغرطة لهذا التقسيم الجديد، فقد كان حلمه أن يصبح سيد نوميديا كلها، بل وسيد كل افريقيا، وأن يحمل لفائده رسالة ماسينا « افريقيا للأفارقة ». بعد انتظار صبور دام أربع سنوات، قاد جيشا قويا لتأكيد ارادته في وضع نوميديا كلها تحت سلطته. فغزا دول أدربعل واحتل المدن واستولى على غنيمة كبيرة جدا، لقد نجح في التغلب على جيش أدربعل بالقرب من سيرتا. فاشتربت روما إيقاف الحرب. لكن يوغرطة حاصر أدربعل الذي نزع الى سيرتا. فأحاط المكان بحضن وبخندق ونصب قلاعا ملأها العساكر. رغم إرادة روما فإنه قد واصل الحصار حتى إستسلام أدربعل الذي هلك وكذلك الإيطاليون الذين وقفوا الى جانب هذا الأخير (112). قرر مجلس الشيوخ الروماني إيفاد جيش الى إفريقيا، ووافقت كل الأحزاب على الوقوف في وجه

الملك النوميدي. أوفد يوغرطة ابنه واثنين من المؤتمنين على أسراره لشراء كل
الضماير الرومانية مقابل الذهب.



عملة يوغرطة صورة أمردة ضميره مشبكة مكللة بالغار.



عملة يوغرطة، الظهر: فين سائر إلى اليمين الحرف A

حرب يوغورطة

كان الرومان يخشون بحق الحرب في إفريقيا : فزيادة على ذهب يوغورطة ، كان لابد من أخذ قتالية البربر ومعرفتهم للأرض في الاعتبار. فالبربر المقاومون جدا للتعب والمتحملون للسير الطويل ، والذين لهم معرفة فطرية بالأرض ذاكرة سليمة للمواقع ، كانوا بارعين في حرب العصابات وفي الكمين. لقد كانوا يعرفون كيف يراقبون العدو، ويعزلونه ويهاجمونه متى لا يتوقع ذلك. لم تكن ترعبهم المعركة الكبرى فهم يخوضونها في اللحظة والمكان المختارين من طرفهم بشكل أفضل. كانوا يستخدمون أسلوب الهجمات المتتالية بالخيالة والمشاة، منقضين على العدو ورامينه برماحهم، حين لا تفصلهم عنه سوى ثلاثين أو أربعين مترا. وإن صمد العدو فإنهم يعيرون الكرة حتى ينكسر، فإن قاوم، لسوء الحظ فإنهم ينسحبون نهائيا لمواجهة معركة تالية. وفي حالة وقوع هزيمة حقيقية يترحلون الى الجبال أو الاستبس أو الصحراء لاستعادة قواهم وللاستعداد لمعارك جديدة. وذلك كان التكتيك العسكري البربري.

الحملات الأولى

غزت الجيوش الرومانية التي كان يقودها ل. كالبورنوس بيسيا مملكة يوغورطة، وكما يخبرنا سالوست فإن رؤساء هذا الجيش المبهورين بذهب يوغورطة قد تركوا أنفسهم عرضة للشراء والرشوة، وشرعوا في المفاوضات ووافقوا على السلم مقابل بعض الشحنات من القمح والماشية.

في روما أدان الحزب الشعبي قابلية النبلاء للرشوة وطالب ميمنيوس Memmius بالمعجى، بيوغورطة الى روما تحت حماية ايمان الجمهورية للإدلاء بشهادته حول خيانات سوكوريوس وشيوخ آخرون.

أظهر يوغورطا جرأة ومثل أمام مجلس الشيوخ. منهوما من طرف ميمنيوس فقد أضنى نفسه حول أمر محامي الشعب بيبوس Baebius الذي اشتراه مقابل الذهب ولم يجب عن الاتهامات الموجهة اليه. وكانت له الجرأة على قتل أحد الأمراء البربر، ماسيفاء، وهو ابن غولوسة الذي أراد أن يعترف

به مجلس الشيوخ ملكا لنوميديا. فلم يستطع مجلس الشيوخ أن يفعل شيئا ضد الأغليد. وأصدر يوغرطة حكما تحقيرا على روما : « أيتها المدينة المعروضة للبيع ! ستهلكين سريعا ان وجدت مشتريا ». لم تكن إدانة يوغرطة ممكنة، لأن إدانته أعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء جدا الذين اشتراهم. سلمت نوميديا إلى القنصل سب. بوستبميوس وعادت الحرب من جديد.

واصل يوغرطة المحادثات وأجلها. مؤجلا السلم أحيانا والحرب أحيانا أخرى فإن يوغرطة قد ظهر عسكريا أكثر منه مانورا. ففكر الرومان حتى في خيانة من الينوس المندفع كثيرا الذي انتهى إلى التخلي عن قيادته لصالح أخيه أولوس. فحاول هذا الأخير إنهاء الحرب بسرعة. وأراد خلال شتاء (110 - 109) أن يهاجم سوتول أين كانت خزانة يوغرطة مودعة. فأنشأ مصطبات على السهل ذى المستنقعات في قدم جبل الوعر الذي بنيت عليه سوتول. نجح يوغرطة في حمل الينوس على رفع الحصار عن المدينة، وفي شراء ضمائر قادة المائة Centurions ، وقادة الخيالة وهاجم معسكر أولوس فجأة. تفاجأ الرومان وانتقلت بعض الفرق إلى جانب الملك، فقد فتح لهم ممرا في خندق، وتم غزو المعسكر الروماني. حقق يوغرطة انتصارا وفرض على الرومان الانتقال إلى حالة الاستعباد ومنحهم عشرة أيام لمغادرة نوميديا. لقد فرض يوغرطة مله، وأهنت روما. لم يشأ مجلس الشيوخ أن يعترف بالمعاهدة التي وقعها أولوس، وأعلن أن أية معاهدة لا يمكن إبرامها دون أمر صريح من مجلس الشيوخ والشعب. نزل القنصل الينوس، شقيق أولوس في إفريقيا، في محاولة لمحو الخزي الذي كان قد لطمخ أخاه، لكنه اعترف بسرعة أنه يفعل شيئا ضد يوغرطة بجنود واهني العزيمة وغير مطيعين وأنذال.

النضال ضد ميتيلوس (109)

عين ميتيلوس Métellus قنصلا، وتفرغ كلية لتحضير الحرب، فنظم تأهبات جديدة، وجمع كمية من العتاد وسار إلى نوميديا. فأدرك جيش الينوس وأعاد تنظيمه، وتقدم الجيش الروماني في تراب نوميديا. حاول يوغرطة أن يربح الوقت فأرسل سفارات إلى ميتيلوس وضاعف مجهودات السلم. حث القنصل مندوبي يوغرطة على خيانة سيدهم وأذن لهم بالانصراف من دون أن يرفض ولا أن يوافق على السلم.

تقدم الرومان الى التراب النوميدي واحتلوا موتول بالقرب من وادي تيسا Tessa' (901). ولم تجلب معركة موتول نصرا حاسما للرومان لكنها بثبت اليأس في البربر. فاستنهض يوغرطة شجاعة جنوده ثانية، حاثا أياهم، مذكرا أياهم بماضيهم المجيد و بانتصارهم، فالهدف النهائي هو: الدفاع عن البلاد في مواجهة الرومان. خرب ميتيلوس البلاد، ودخل سيكا (الكاف) لكنه لم يتقدم في التراب الجزائري. فكان يوغرطة يعيد جمع جنود، في كل مرة، مراقبا في كل مرة لحضة الانتقال الى الهجوم، مطبقا تكتيك الأرض المحروقة في كل مكان أين كان على العدو أن يمر به، ومنهكا أياهما دون أن يترك لهما لحظة راحة، تارة ميتيلوس وتارة ماربوس.

أراد ميتيلوس أن يضرب ضربة قوية وأن يستولي على زاما، الحصن الرئيسي للناحية، معتقدا أنه بذلك يجعل المعركة لامفر منها. لم يكن يوغرطة قادرا على تقديم المساعدة لرعاياه، وحث سكان زاما على المقاومة. لقد كان الحصار فضيحا وقذف المحاصرون الرومان بسهام مشتعلة ومشاعل مطلية بالقطران والكبريت. فاستغل يوغرطة ذلك للانقضاض فجأة على المعسكر الزماني زارعا الرعب في صفوف العدو. لقد كانت المعركة في زاما عنيفة، فكان على ميتيلوس أن يعترف بفشله، فانسحب من زاما، وحاول أن يهزم يوغرطة عن طريق الخيانة، فاتصل بيوميلكار (الذي كان نظم مقتل ماسيفا) ووعد بانقاذ حياته في حالة ما اذا سلم يوغرطة حيا أو ميتا. حاول يوميلكار أن يشبط همة يوغرطة وأن يجره الى تسليم نفسه للرومان. وبعد تردد طويل عاد يوغرطة الى الحرب ثانية.

جند يوغرطة فرقا جديدة وحصن مراكزه وأصلح واشترى أسلحة واستمال اليه العبيد الرومان وعمل على شراء ضمائر جنود الحاميات الرومانية. في باجة نجح في إثارة الشعب والنبل ضد الرومان. ففي يوم سيريس الذي يحتفل به في باجة بصفة خاصة، المدينة الفلاحية الممتازة، دعا انتماءون، كل الى بيته، قادة المئة والقضاة العسكريين وقائد الحامية؛ قتل الجميع اثناء الوليمة ماعدا القائد. أما في المدينة فقد حمل الشعب السلاح ضد الجنود الرومان الذين ذبحوا في أغليتهم (91 ديسمبر 109). لقد انتقم ميتيلوس؛ بعد يومين ثم احتلال، الحاضرة وسلمت للنهب والأخذ بالثار. لكن

يوغرطة بقي نشيطا مهددا بجيشه. واكتشفت مؤامرة بوميلكار وعوقب هو وشركاؤه. وبقي يوغرطة حراساته « مغيرا خط سيره في كل يوم وكذلك الضباط. فأحيانا يسير أمام العدو وأحيانا يفوص في الصحراء »، أحيانا فارا وأحيانا محاربا. في الجنوب وصل الى تالا الحاضرة الكبيرة والغنية أين كان يوجد قصره وخزائنه. فحاصر ميتيلوس المدينة التي قاومت أربعين يوما قبل أن تستسلم. نقل المدافعون، الذين رأوا مدينتهم تتجه الى الضياع، كل ثرواتهم وكل الذهب والفضة الى القصر وسلموا كل شيء للنار: القصر والخزائن وأجسادهم، مفضلين الموت على الخضوع.

بعد فقدان تالا، لجأ يوغرطة إلى الجيتول، مدربا أياهم على الحياة والطاعة العسكريةين وأعاد تشكيل جيش؛ دفع ملك المور ليحمل السلاح ضد روما مقدما له الرومان كأعداء للإنسانية ولكل الشعب إذا كان غنيا جدا حسب رغبتكم. بالنسبة ليوغرطة، كان الرومان إمبرياليين متعطشين للهيمنة.

النضال ضد ماريوس

وضع ماريوس، المنتخب قنصلا من طرف العامة، نفسه على رأس قيادة حرب نوميديا وخلف ميتيلوس. عند مجيئ ماريوس اتخذ يوغرطة وبوكوس Bouchus مواقعهما في أماكن صعبة الاقتحام حتى يجبرا العدو على تشتيت صفوفه. حاول ماريوس أن يعزل المدن والمواقع القوية عن يوغرطة ونجح في الاستيلاء على كابسا (قفصة) حيث كان السكان متعلقين جدا بيوغرطة (107). فأخذت المدينة وسلمت للنيران؛ قتل النوميديون الراشدون وبيع الباقي منهم عيدا. فلم تكن لتهم روما بقوانين الحرب. وبالقرب من سيرتا كان مكان مقابلة ثانية لم تكن ملائمة للملكين. واتصل بوكوس، مشط الهمة، بروما التي أوفدت سولا Sulla

نظم ماريوس مسيرة كبيرة عبر الجزائر، وصلت حتى ناحية وهران واحتلت في طريقها مدنا عديدة. لقد وصل حتى الملوية وتمكن من الاستيلاء على القصر المخصص الذي كان يحتضن خزانة يوغرطة. فطلب هذا الأخير فرقا من بوكوس، وكان عليه أن يعده بثلاث نوميديا في سبيل إقناعه. وهاجم الملكان معسكرا ماريوس، ففر منهما هذا الأخير عن قرب.

نهاية يوغرطة

أراد سولا أن يدفع بوكوس ليسلم له يوغرطة مقابل تحالف وصداقة الرومان فتردد بوكوس مبدئياً أعراضه عن تحمل سخط البربر الذين كانوا يكونون ليوغرطة محبة بقدر الحقد الذي يكونه للرومان. من جهة حاول يوغرطة أن يجزّ صهره ليسلم له سولا، بهدف إرغام روما على ماليس لها فيه ثقة في إقامته نهائياً. ما إختاره بوكوس هو الخيانة، فقد جذب يوغرطة إلى فخ وسلمه للرومان. سلم يوغرطة محملاً باغلال إلى سولا الذي قاده إلى ماريوس. وقد احتفل هذا الأخير بانتصاره، عارضاً على الرومان فرجة غريبة، فرجة على يوغرطة الأسير. محبوساً في زنزانه تحت الأرض، ناضل يوغرطة ستة أيام في مواجهة الجوع والموت (105).

لقد دفع يوغرطة حياته ثمناً لحبه للحرية والاستقلال. كان لابد أن يظل اسمه بالنسبة للجزائريين رمزاً لمقاومة الأجنبي، وكان لابد أن يوقظ لدى الرومان أحاسيس العار والشناعة عبر العصور. لقد إستلم الخائن بوكوس لقب حليف وصدیق الشعب الروماني، والثلاث الغربي من نوميديا؛ أخذ غودة بنمستبل، شقيق يوغرطة، نوميديا الشرقية نصيباً له. بالنسبة لإفريقيا المقسمة فإن ذلك فشل للوحدة التي حلم بها يوغرطة. لكن إفريقيا لم تكن قد غزيت بعد من طرف روما.

نصوص :

حرب يوغرطة معروفة لدينا بفضل سالوست. حيث كانت للمؤرخ اللاتيني الفرصة ليجوب نوميديا قبل الأحداث التي ترونها « حرب يوغرطة » بنصف قرن، كما كانت له فرصة فحص مكتبة الملك النوميدي، وقد ترجم الحكايات وأساطير البلاد واضطلع على مؤلفات المؤرخين لـ . كورنيليوس وبوزيدونيوس..

يوغرطة القائد العسكري

يتكلم يوغرطة إلى البربر حاثا أياهم ومتوسلا إليهم أن يتذكروا أمجادهم الماضية وانتصارهم الحديث، وأن يدافعوا عن بلادهم وعن ملكهم في مواجهة جيش الرومان : « إن الذين يهمون بمحاربتهم قد هزمومهم واستعبدهم بعد ذات مرة. بتغيير القائد لا يغيرون الروح. وكل ما يجب على القائد أن يفعله من أجل ضمان ظروف معركة أفضل لفرقة قد فعله. لهم إمتياز الأرض وقد تدربوا على المعركة، والعدو ليس كذلك؛ وهم ليسوا أقل عددا منه. فليكونوا إذن على استعداد وعزم للإنقضاض على الرومان، عند الإشارة الأولى. لقد حان اليوم الذي سينجلي عن تتويج كل مجهوداتهم وكل إنتصاراتهم أو عن بداية هلاكهم ». إنه يجد لكل محارب كلمة. فعندما يتعرض على جندي كان قد إستلم منه مكافأة يذكره بهذا الإمتياز ويقدمه قدوة للآخرين. إنه يعد ويهدد ويتوسل، حسب طبع كل واحد، باختصار يستفيد من كل الوسائل كي يثير شجاعتهم.

الفن العسكري ليوغرطة ضد ميتيلوس (امام موتول)

حين يرى يوغرطة الصفوف الأخيرة من جيش ميتالوس تتجاوز طبيعته يختل الجبل الذي ينزل منه ميتيلوس بواسطة حوالي ألفين من المشاة، لمنعه من العودة اليه في حالة انهزامه. ثم، معطيا الإشارة، ينقض على العدو فجأة.

يهاجم النوميديون يمينا و شمالا فيدمرون مؤخرتنا و ينقضون علينا فينهكوننا ويبلبلون صفوفنا. أن جنودنا لأكثر حزما و الذين يقفون في مواجهة العدو مضطرين بفعل الفوضى التي تسود المعركة، لايجنون من ذلك سوى كونهم يجرحون على مسافات دون أن يتمكنوا من الاستجابة لضربات، ولأمن إصابة الخصم لأن يوغرطة قد اوصى خياله مسبقا، أن يقاتلوا، في كل مرة يهاجمون من طرف الرومان، مبكرا بالتراجع وليس مجتمعين، بالانتشار في اتجاهات متعكسة وليس من جهة واحدة فقط. وكان النوميديون كذلك اذ لم يتمكنوا من اعاقه الرومان في ملاحقتهم، يستفيدون من تفوقهم العددي لإرغامهم على الانتشار حتي يتمكنوا من مهاجمتهم من الخلف و من الجناح،

محيطهم بهم، وكانوا اذا وجدوا أن التل يسمح لهم بالفرار أكثر من السهل، فإن خيولهم المتعوده على الاحراش كانت تشق طريقها فيها بدون عناء، في حين كانت خيولنا تصطدم، في كل لحظة، في مرابض الأجر اجنية عينا

ضد ميتيلوس (امام زاما)

في الوقت الذي كان الناس يتقاتلون فيه حوالي زاما، انقض بوعرصه على رأس فرقة معتبرة، على المعسكر الروماني فجأة وذلك بالضغط على احدى الأبواب، مستغلا لامبالاة حراسها، الذين كانوا ينتظرون أي شيء إلا هجوما من العدو. ولم يفكر جنودها المذهولون من الرعب، إلا في الخلاص الشخصي، كل بطريقته، بالفرار بالنسبة للبعض وبحمل السلاح بالنسبة للبعض الآخر. فكان هناك العديد من القتلى والجرحى.

لقد وجدوا أنفسهم أربعين في المجموع كي يتذكروا أنهم رومان. انسحبوا، راصين صفوفهم، إلى مرتفع أين لم يكن في مقدور العدو وازاحتهم رغم كل المجهودات وأخذوا كذلك، وبشكل أفضل، يعيدون الرماح التي كانت تمطرهم على أعقابها إلى العدو الذي كان أكثر عدد فمنحهم هدفا جيدا أكثر من فصيلتهم الهزيلة. كانوا حين يشاهدون النوميديين يصعدون نجومهم من موقعهم مظهرين كل شجاعتهم ومقتلين النوميديين ومشتتينهم وجاعلينهم يفرون.

في ذروة النشاط سمع ميتيلوس ضوضاء وراءهم. فرجع على أعقابهم واكتشف رجالا هاربين نحوه، علامة على أنهم رومان طبعاً. فأرسل كل خياله في اتجاه المعسكر، بدون تأخير، وعلى التو أرسل ماريوس مع فرق الخيالة المساعدين، وتضرع إليه والعيون مغرورة بالدموع باسم صداقتهم وباسم الجمهورية، ألا يشكوا من الألم. مادام جيشنا المضفر يتحمل الالهة والعدو ثم يعاقب بعد.

نفذ ماريوس الأمر الموجه إليه بسرعة حينذاك رأى بوغرطة قسما من رجاله يندفع من أعلى الحباكات والبعض ينطلق في الممرات حيث تراحموا بالتبادل، ومن أجل التخلص من الورطة انسحب الى موقع منيع، بعد أن تحما، خسائر ثقيلة. أما ميتيلوس فقد قاد جيشه مع مجيء الليل الى

المعسكر، تاركاً المسألة غير منتهية.

في اليوم التالي ، وقبل مغادرته المعسكر لمواصلة الهجوم ، نظم خياله أمام الخندق ، وفي الجهة التي يمكن توقع هجوم من يوغرطة. وزّع القضاة العسكريين على مواقع الحراسة وأطراف المعسكر. وبعد ذلك اتجه بنفسه نحو المدينة وأعلن الهجوم أهبة.

في حين خرج يوغرطة من مأواه ثانية وألقى بنفسه على جنودنا. فكانت لحظة رعب وارتباك في الأماكن الأمامية. لكنه هرع لمساعدتهم ، وكان النوميديون غير قادرين على المقاومة لمدة طويلة لم ينجح مشاتهم المختلطون بالفرسان في القتال بصفوفنا. واستمر الفرسان الأعداء المدعومون بهم ، بدل أن يتراجعوا كما جرت العادة ، في التوغل نحو الأمام ، بعد أن هاجموا ، ناقلين الفوضى إلى صفوفنا وعارضين على محاربين ناشطين ^{حصبوما} شبه مهزومين.

Salluste, *Guerre de Jugurtha dans Histoires Romains*, tome II, Editions Gallimard, 1968 , XLVIII, LIX, pp. 712 – 714 et 720 – 722.

رسالة يوغرطة

لم يستطع يوغرطة، رغم عبقرية وإخلاصه، أن يضمن لشعبه تواجدا حرا وسعيدا. لكن ملحمة لم تكن عبثا. ساقطا في قلب النضال، يبقى بالنسبة لنا الرسول صاحب الأثر البالغ في أمل القلب البشري الكبير هذا الذي يسمى الحرية.

كانت رسالته: جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، مبدأ الشعب وشعار الوطنيين.

هل تخلى عن الحرية أولئك الرجال في الجنوب أو الجبال، الذين لم يعرفوا الاستبداد الروماني أبدا؟ ورفقاء مازيا وتاكفاريناس الخشنون، الذين افشلوا طويلا قوى الاحتلال، خلال العصر المسيحي؟ والدوناتيون؟ والدوارون؟ فورا الإنشقاقات الدينية كانت هناك إنتفاضة وطنية.

لم تمنح أبدا ذكرى الرئيس العظيم من ذاكرة أبناء جلدته. ففي حديقة سطيف العامة، يمكن مشاهدة اسم يوغرطة أيضا، الذي اطلق على طفل، منقوشا على مسلة من العصر الروماني. مثال مؤثر على العطف الشعبي. لو يعود يوغرطة إلى العالم، فإنه سيتهج لمشاهدة شباب شعبه المدهش ويرى، كما في القديم، الفلاح يرسم الأخاديد ويذر الحياة، مبعدا بإحتقار آثار خمول الكبرياء الروماني. وفي روح أهلنا، لم يبق من أوجاع هذا الماضي إلا كلمة جوفاء، بقيت للماهية: « رومان ».

Mohamed Cherif sahli. *le message de yougourtha*, Alger, Editions En.

Nahda, 1947 , p; 100

الفصل السابع

أواخر الملوك البربر

7

ليست لدينا معلومات كثيرة عن الفترة التي تلت حروب بوغرطة. فقوائم ملوك وحدود ترابهم ليست معروفة بدقة. يبرز إسمان هما إسما يوبا الأول ويوبا الثاني. الأول قاوم الضغوط الرومانية وحاول أن يستغل الحرب الأهلية التي تواجه خلالها البومبيون والقبصريون على إستقلاله. الثاني، الذي تربي في روما، كان نموذج الملك التابع نفسه.

خلافة بوغرطة

تصرف بوكوس، الذي إستلم الغرب الجزائري (105) وربما الوسط كذلك، كتابع وفيّ لروما، وقدم لها مساعداته العسكرية في العديد من المرات.

في نوميديا كان هيمبصال الثاني خليفة لغودة الذي توفي عام 88 . لقد كان هذان الأميران ههنا أيضا تابعين وفيين لروما. في 62 كانت توجد كذلك دولة وقائية، هي مملكة الأمير ماستانيزوزوس mastanesosus بين موريطانيا ونوميديا هيمبصال. يعود تقسيم نوميديا هذا إلى مملكتين، شرقية وغربية، إلى تاريخ وفاة غودة أو إلى تاريخ وفاة بوغرطة. خلع الاميران لصالح شخص اسمه هيارباس الذي سيصبح عاجلا لكل نوميديا مع بولا وريجيا عاصمة. لم تكن روما لتترك أعداءها يمتلكون جهات واسعة خاصة بالقمح. كلف بومبي pompee بالسعي للقضاء على هيارباس (حملة 81) والماريان marianistes الذين كانوا تحت قيادة دوميتيوس domitiuse. فهزم دوميتيوس وقتله، كما استولى على بولا وقبض كذلك على هيارباس (80)

ونصب هيمبصال ثانية. وقد حكم هذا الأخير عشرين سنة على الأقل ، وبتردد الكلام حول ابنه يوبا الأول كملك في 50.

كانت تمتد دولتا هيمبصال ويوبا، بشكل واسع، ناحية الجنوب و ناحية الغرب من المقاطعة الرومانية وانطلاقا من ثيني thaenae ، وتحدان ناحية هيدروميت (سوسة) وتمتدان الى الغرب حتي توبوسوبتوبالقرب من بجاية. كانت سيرتا تتبع مملكة يوبا، فراما ستصبح إحدى عواصم الملك هذا. ولم تكن نوميديا متأخمة لموريطانيا، حيث كانت هناك مملكة أخرى هي المملكة التي ستعود لمانتانيزوزس، وتكلم النقود عن شخص اسمه ماسينيسا. فهذه المملكة اذن كانت تمتد بين موريطانيا وناحية سيرتا.

كان هيمبصال يتذوق الآداب، اذ سيكتب كتابا باللغة البونيقية عن أصل الشعوب الإفريقية. واستلم من روما لقب الملك ولم يكن له أى خلاف معها.

يوبا الأول

اراد يوبا أن يكون ملكا حقيقيا، عاهلا شبيها بالملوك الهلنستيين. كان جيشه قويا، وكان حرسه الخاص يضم فرسان اسبانا و غالين. لقد فرض يوبا نفسه على رؤساء القبائل، فنظم العديد من الحملات ضد الذين كانوا يرفضون سلطته، وتخاصم مع جيرانه الحورو وقف الى جانب البومبيين ضد قيصر César. فهذا الأخير كان قد منح فعلا حمايته لأحد النوميديين، وكان كاريون، وهو أحد عملائه، قد اقترح على مجلس الشيوخ حتى مصادرة مملكة نوميديا.

كانت افريقيا احدى الساحات الرئيسية لمعركة القبصريين و البومبيين. وكان بإمكان مجلس الشيوخ أن يجعل من الملك النوميدي « حليفا وصديقا » لروما، ثم يفعل اي شيء في هذا الشأن رافضا اقحام البربر في المسائل الداخلية لروما. في النهاية، أبرم فاريوس، الذي كان قد كلف بمواجهة مسيرة قيصر، حلفا مع يوبا.

عملة هيمبسان (١٥٥ - ١٥٤ ق. م)



(م)

رأس أمرد متوج بسنابل وغصن.

الظهر : الحصان الراكض في الجهة

اليمنى.

والحرف H في الأسفل.

والكل في تاج من الغار.



عملة هيارباس (١٠٨ - ٨١ ق. م)

(م) صورة بشعر متهدأ.

عملة ماسينيسا ١٨٥ ق. م منبه حبوب في الأسفل.

وعنقود عنب في الأعلى والكا في تاج من الأغصان



عملة يوبا الثاني. ريكس

يوبا. صورة الملك مكحلة.

عملة يوبا الثاني. الظهر. تمثال إفريقي

النصفي. ثنيات وتصفيق الفيل. سداسية في هلال.

خيطان مستعرضان (رمح).



عملة بطولمي. ريكس بطولمي تمثال

نصفي بالغار وثنيات الملك الأمرد.

الظهر : بطولمي زينة النصر (تمت

الموافقة لبطولمي في العالم الرابع من

حكمه، ٢٤ بعد الميلاد) أريكة

عليها وضع تاج مستند الى صلوجان.

تاريخ : XVIII (الى أعلى من جهتي

التاج) على الحاشية.



فعلى هذا الأخير أن يزود الجنرال الروماني بفرق المساعدة.
كان قيصر قد كلف كوريون Curion بالمسائل الإفريقية، فنزل هذا الأخير برأس بون في 49 ، وحاصر أتيكا. نقل يوبان نفسه النجدة لفاريوس وأتيكا، مفضلا الانتقام من كوريون الذي كان قد طالب روما بالحاق نوميديا. وأجبرت فرقة كاريون على التخلي عن حصار أتيكا، ونوفي القائد القيصري في المعركة ونقل رأسه الى يوبا، وغرق أغلب جنوده في البحر وهم يحاولون الانحاق بصقلية وسلم الذين لم يتمكنوا من الإبحار أنفسهم وأهلكوا. ودخل الملك النوميدي أتيكا سيدا، ثم عاد مع كل فرقة الى دوله، ومنحه مجلس الشيوخ البومبي لقب ملك وحليف الشعب الروماني (49).

جعل الانتصار يوبا بتعاضم أكثر فأكثر في أعين الرومان. فسييون الذي أقر قائدا أعلى لجيوش إفريقيا كان يتصرف بتواضع أمام الملك البربري، وكان عليه أن يعده كذلك بالمقاطعة الإفريقية مقابل عونه. حاول كاتون الذي كان قد جاء إفريقيا لمقاتلة قيصر أن يحول دون إستقلال يوبا. لكن يوبا تمسك بإظهار إستمراره مستقلا أمام البومبيين. فلم يقبل مثلاً أن يخوض الحرب ضد فرق قيصر الأكشريك، رافضا الخضوع للقائد الروماني. واستطاع أن يضع تحت تصرفه أربعة فيالق (légions) منظمة على الطراز الروماني، وخیالة كانت تحرسه وأنصارا جاؤوا من القبائل. يقال أنه كان يملك حوالي 120 فيلا، ومن المؤكد أنه كان يملك 64 منها في معركة تابسوس Thapsus. وتمسك بإقامة معسكره منفصلا وتجرأ حتى على المطالبة بالمعطف الأرجواني لنفسه، علامة القيادة العليا.

أعلن مجلس الشيوخ القيصري يوبا عدوا عاما، وفكر في هجوم على نوميديا عن طريق إيبانيا. وفي النهاية جاء قيصر بنفسه إلى إفريقيا مع عشرة فيالق. كان بإمكانه أن يعول على الملكين الموريطنانيين بوغوت Bogut وبوكوس، وبصفة خاصة على هذا الأخير الذي كان سيد جزء هام من الجزائر والذي كان يستطيع بالهجوم على يوبا أن يخلق إنشغالا سيكون مهما جدا بالنسبة لقيصر. كانت الحرب في البداية مترددة. إذ كان قيصر يملك القليل من الجنود، وكانت فرقة محاصرة من طرف البومبيين. إنظم وسيتيوس Sittius أحد المغامرين، إلى جانب قيصر وغزيا حدود المملكة من المغرب، فضاعت

وللالتحاق بأوزيتا Uzitta مع ثلاثة فيالق، و 800 فارسا منتظمين، والعديد من الأنصار وقبائل و 30 فيلا.

تأجلت نهاية الحرب، انه لفي أبريل 46 فقط نجح قيصر في إختراق أعدائه، وفي أرغام جيش سيبون على الفرار، وأن يستولي على معسكر يوبا في تابسوس. في نفس وقت قيصر، خرب سبتوس جيش سابورا النوميدي، واحتل جنرال يوبا وأسطوله هيون. وتمكن يوبا من النزوح إلى منطقة جبلية والإختفاء هناك مع بعض رفاقه. إنتهى يوبا مرفوقا بالروماني بتريوس إلى عاصمته زاما. لكن السكان لم يقبلوا أبدا بفتح الأبواب لأن يوبا كان، قبل سفره، قد وعد بأنه في حالة الهزيمة يحرق، في الساحة العامة، كل ثرواته وكل سكان المدينة وكذلك نفسه وأهله.

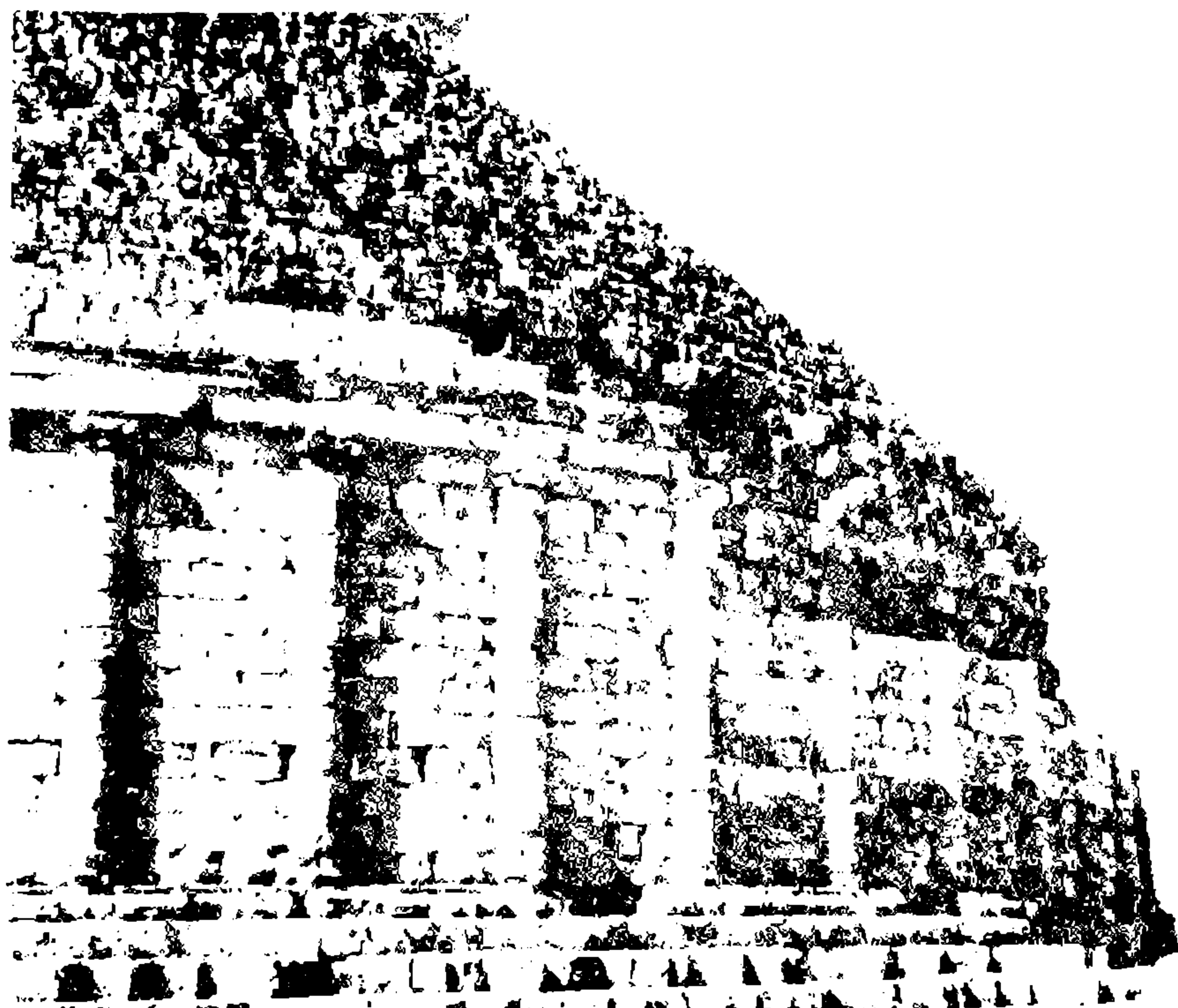
لما لم تقبل أية مدينة أخرى بإستقباله، قرر يوبا ضرورة موته. فانتحر (إنتحر بواسطة مبارزة مع بتريوس).

نوميديا بعد يوبا الأول

استلم بوكوس جزءا من الدول التي كانت تمتد ما بين سيرتا وموريطنيا، وعين حده الجديد بمصب الامبساغا (الوادي الكبير). الباقي منحه قيصر لسبتوس : الجزء الغربي من مملكة يوبا مع سيرتا. فاستقر رفاق سبتوس، لسبتوس، في المستعمرات السيرتائية : سيرتا (قسنطينة) وروسكاد (سكيكدة) وشولو (القل) وميلوف (ميلة). واحتفظت كونفيدريالية الأربع مستعمرات هذه بتنظيم اداري خاص حتى القرن الرابع.

قرر قيصر انهاء مملكة نوميديا، فتجربة بوغرطة و يوبا قد أوضحت أن ملكا نوميديا قويا ومستقلا متداخلا في الشؤون الرومانية خطر بالنسبة لروما. لهذا أنشأ افريقيا الجديدة Africa nova (المقاطعة القديمة سميت افريقيا القديمة Africa vetus حيث كان سلوست أول حاكم لها. اذا كان قيصر قد اقام بروليتاريين وجنودا مسرحين في افريقيا القديمة فانه على ما يبدو لم ينشئ الكثير من المستعمرات في نوميديا، فقد كانت تعرف أربع مستعمرات يرزية Juliae (من لقب قيصر = يوليوس سيزار)؛ كان استيطان نوميديا ضعيفا جدا

عند وفاة قيصر، عرفت افريقيا فترة مضطربة، فقد تعرضت الحكومة
لتنافس القيصرين والجمهوريين. فأعاد أرايون Arabion من ماسينيسا فبح
مملكة أبيه على حساب ستيوس، وقتل هذا الأخير خدعة. لكن رغم ذلك
احتلت سيرا والمناطق المحيطة بها.



الضريح الملكي لموريطانيا



كليوباترا سيليني



في 36 جمعت الإفريقيتان تحت سلطه ليبيد Lepide.

في 33 ، وعند وفاة بوكوس ، حكم أوكثاف موريطانيا بواسطة عاملين واستغل الفرصة لإنشاء مستعمرات : في ابجيلجيلي (جيجل) ، وفي صالداى (بجاية) التي استقبلت الجنود المسرحين من الفيلق السابع ، وفي روزازوس (عزفون) ، وفي روسغونيا (البرج البحرى) ، وفي كونوغو (بالقرب من قورايا) حيث سجلت مستعمرة في كتيبة خيالة حاكمية ، وفي كارتينيا (تنس) حيث استقبل الجنود المسرحون من الفيلق الثاني. أما في داخل التراب فكانت هناك ثلاث مستعمرات : في توبوسوبنو (تيكلات الى الجنوب الغربى من بجاية ، في وادى الصومام بمكان كان يمكن منه مراقبة القبائل الكبرى والصغرى) وفي أكالكيدا (حمام ريغة) حيث كانت المياه المعدنية مشهورة في القديم وفي زوكشابار (مليانة) .

خلال سنوات قليلة ، كان أكتاف قد أنشأ مستعمرات عديدة لإقامة جنوده المسرحين . واختار الأماكن بشكل جيد : إما في وسط ناحية خصبة حيث كان يمكن الحصول على الأراضي بسهولة ، وإما بالقرب من الحواضر الفينيقية القديمة وأما في موقع استراتيجي بهدف مراقبة البربر . رغم ذلك فإن أوكثاف ، بدل أن يجعل من موريطانيا مقاطعة ، جعل منها مملكة في صالح يوبا الثاني بن يوبا الأول .

يوبا الثاني لموريطانيا (25 ق. م - 23 م)

حكم يوبا الثاني موريطانيا نصف قرن تقريباً ، فكان نموذج الملك التابع نفسه كما كان متعطش الحب للحضارة اليونانية .

سقط الفتى الأمير ، الذي كان يبلغ الرابعة من عمره حينذاك ، بين يدي الديكتاتور الروماني ، في 46 بعد معركة تابسوس . فنقل الى روما ، وظهر استقبال نصر قيصر ، وبقي في إيطاليا . تربى على يد أخت أوكثاف ، وأراد هذا الأخير أن يهبه ليلعب دور عميل روما فاستلم لقب واسم حامية غايوس يوليوس نفسه . الذي لم بحمله بعد أن استلم لقب الملك ريكيس يوبا Rex Iuba . استلم هذا اللقب في 25 مع مملكة في إفريقيا ، متكونة من ممالك بوغود وبوكوس ويوبا الأول . كانت المملكة تمتد إذن على المغرب الأقصى

وملامسة لمصب مولوثة في الشمال الشرقي ؛ بين ذاك وأمساعا إستام كذلك بلاد الجيتول. لماذا عدل الإمبراطور عن الإلحاق ؟ لم يشأ أوغسطس ، الذي كانت له واجبات عسكرية ثقيلة ، أن يحتفظ إلا بالمقاطعة المنتجة للقمح في إفريقيا. تاركا للملك العميل دورا هاما في الدفاع عن هذه المقاطعة. إذ كان يرى أن ملكا أهليا هو الأفضل لموظفين رومان يجهلون الناس والبلاد. وكان على هذا العاهل أن يحمي كذلك المستعمرات التي كانت قد أنشئت. لم يمنح أوغسطس يوبا الثاني مملكة فحسب بل منحه زوجة كذلك ، كليوباترا سيليني بنت المشهورة كليوباترا ومارك أنطوان ، بمعنى منحه عاهلة حقيقية لأنها ولّيت السلطة الملكية. ويبدو أنها لم ترث روعة جمال أمها ؛ حيث يقدمها رأس من الرخام موجود في شرشال خالية من الروعة. لكي يظهر إعترافه بالجميل لأوغسطس ، أطلق يوبا إسم قيصرية Caesarea على عاصمته وأنشأ بها عبادة إمبراطورية ، عبادة كابريكورن ، اشارة لما كان مولد أوغسطس. وقد وجدت في شرشال شواهد أخرى كذلك على هذا الإعتراف بالجميل : تمثال بدون رأس يمثل شخصية مدرعة تقدم بيدها اليمنى اشارة الإمبراطور مخاطبا الجمهرة ، وتمثال نصفي لمارس أولتور Mars Ultor ، وهو الاله الذي انتقم لموت قيصر أبي أوغسطس ، وقبصر مؤلها ؛ الخ.

أراد يوبا الثاني أن يبدو ملكا عظيما مذكرا ، رغم أن تبعيته لم تسد لدى أسلافه ، بأنه ابن يوبا الأول ، العدو اللدود للإمبراطور ، وبأنه ينحدر من مسيبسا وماسينيسا العظيم ، وبأنه إفريقي. ومع ذلك يخبرنا بلين Pline القديم بأن « يوبا كان مشهورا بمؤلفاته أكثر منه بحكمه ».

لقد لقي يوبا مصاعب مع البدو الذين كانوا يرفضون الخضوع للرومان والذين كانوا يتمردون على الملك التابع (6). عاون يوبا الثاني الرومان في تدخلهم ضد الموزولام (جنوب قسنطينة وتونس الجنوبية). فيما بعد ، من 17 إلى 24 ، شارك بعض رعايا يوبا الثاني في النضال ضد النوميدي تاكفاريناس.

عمل يوبا الثاني

عرفت المملكة نوعا من الإزدهار في عهد يوبا الثاني. كان اختيار ايول عاصمة في محله : موقع له مزايا كثيرة، بمناخ لطيف وصحي، هضبة خصبة على حافة الساحل، ومنحدرات خاصة بزراعة الزيتون و الكرمة، ومواد البناء قريبة، مع جزيرة صغيرة تستخدم لوقاية الميناء. لقد اهتم الملك بتنمية التجارة البحرية وكانت له علاقات مع اسبانيا وايطاليا وبلاد الغال؛ وجدت في شرشال سبائك من الرصاص تعود لأصل اسباني، كما تبرهن أجراء فخاريات على الصناعات الإيطالية والغالية. وتبدو السنابل المنقوشة على نقود يوبا الدليل على نمو الفلاحة.

كان له بلاط هام والكثير من الحراس الشخصيين، وعدد لا يقل عن ذلك من الخدم المنزلي. كما كان في خدمته العديد من الممثلين والممثلات. أطباء وأمناء وفنانون كانوا يعيشون في البلاط. وكان هذا البلاط يتميز كذلك بتأثيرات بونيقية أكثر منها رومانية ويونانية. كان يوبا يجيد اليونانية واللاتينية والبونيقية كما كان في المملكة بعض التأثيرات المصرية، إذ لم تستسلم كلوباترا لسيان بلدها الأصلي، لكن هذه التأثيرات لم تكن تمارس إلا في البلاط. أما النصب الموجودة في شرشال فهي عمل من أعمال الهندسة الكلاسيكية؛ تسمح الآثار بتصوير قصر ومعبد ومصرح. وفي كل مكان تم العثور على قدر من التماثيل القديمة. لاتفسر وفرتها إلا بذوق وبذخ العاهل. لقد كانت نسخا لأعمال مشهورة. حيث عرض علينا متحف شرشال بعض النماذج منها : هيركل نسخة لبروتز ميرون، أبولون شرشال حيث كانت إرادة إكتشاف عمل من أعمال شباب فيدياس، أحد أثينا حيث أصله يعود إلى أحد تلامذة فيدياس، بوزيدون واقفا، إسكولاب جالسا، تمثالا نصفيا لديونيزوس، جذع تمثال لأفروديت، إلخ.

الكثير هم المؤلفون الذين يمجدون علم وثقافة يوبا الثاني. إذ كان علامة ولاشيني كان ينجو من فضوله، وقد كان شغفه كبيرا بالفلسفة. أما بنفسه مكتبة غنية جدا بالمؤلفات اليونانية وبالمخطوطات اللاتينية والبونيقية ولاشك أنه جمع مكتبة حرة بمصالح. نظم بعثات مكلفة بالبحث عن مبان

النيل، معتقدا في أن الطواف البحري حول إفريقيا ممكن ولكنه لم يحاور إثبات ذلك. حاول يوبا أن يعرف بعمله فألف الكثير من الكتب. تعرف عناوين تسعة من هذه الأعمال، كانت مكتوبة باليونانية حيث نجد إستشهادات منها لدى بلين وبلوطارك وأتيني. الأكثر شهرة منها هي المقالة المعنونة ليكا أين يقدم الملك، حول بلاد مولده، بالكثير من المعلومات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي والنباتي، إلخ... أما المقالات فهي: التاريخ الروماني والاركيولوجية، الرومانية، التشابهات، بابلونيكاً، أرايكا، حول الرسم، تاريخ المسرح، حول فساد المحادثة. والكثير من المؤلفين ذكروا يوبا الثاني في بيبليوغرافيتهم، فبلين ذكره ثمانى وثلاثين مرة في نص مؤلفه.

بطوليمي (23 أو 24 - 40)

كان بطوليمي Ptolemée آخر ملك موريطني وقد حمل، الابن الوحيد ليوبا الثاني وكليوباترا سيليني، منذ الصغر علامات الملك ولقب الملك. خلف أباه في نهاية 23. وحكم 17 سنة، ولم يرث صفات الأب، إذ كان لإمباليا، كسولا ويعيش في رفاهة تفاخرية. فتخلى عن السلطة لمعتقيه، الشبيئ الذي أغضب رعاياه ودفعهم إلى تبني قضية ناكفاريناس المشتركة. شارك بطولمي مع الرومان في أواخر الحملة التي وجهت ضد ناكفاريناس. ليست هناك معرفة كبيرة بحكم بطوليمي، ماعدا أنه بقي وفيا للرومان. ومن المعروف أنه أثار غيره غايوس قيصر، الإمبراطور المعروف بإسم غاليفولا (كان ابن خاله، زيادة على ذلك، لأنه هو أيضا ينحدر من مارك أنطوان) وأن هذا الأخير قد قتله. إستولى غاليفولا على ثروته وأمتلك عبيده. فنهض المور تحت قيادة أحد معتقي بطوليمي، وهو ايديمون، ودامت الانتفاضة 3 سنوات تقريبا.

ألحق غاليفولا موريطانيا، وقسمها كلود إلى مقاطعتين إمبراطوريتين: موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية (42).
لقد إحتلت روما إفريقيا البربرية كلها.

الضريح الملكي لموريطانيا

متى ومن طرف من شيد القبر؟

لاشك أن المحاولات الأولى للولوج إلى داخل القبر قد كانت إذن في عصر قديم نوعا ما؛ لا بد أن تكون سابقة للفتح العربي على كل حال. بعد ذلك حصل تراكم التربة وطمرت منافذ المدخل الصغيرة الواقعة أسفل سطح الأرض بسرعة. بطرح هذا النصب المفحوص الآن مسألة تاريخية هامة : متى ومن طرف من شيد ؟ فهذا الضريح غير مؤرخ. إذ ليست هناك أية إشارة كرونولوجية يمكن إستخلاصها من الرسوم المنقوشة على الأحجار المشذبة والتي تشير فقط إلى معامل ناحتي الحجر حيث كان لكل منهم علامة خاصة. بعض رسوم الناحتين هذه لها قرابة بالحروف اللاتينية أو اللبية أو اليونانية لكنها مع هذا ليست حروفا هجائية .

النص القديم والوحيد الذي نمتلكه، والذي يتكلم عن هذا النصب هو نص لمؤلف لاتيني، وهو بومبونيوس ميلا Pomponius Mela. حرر كتابه المعنون (De Situ Orbis) في حوالي سنوات 40 بعد المسيح، أي في الوقت الذي ألحقت فيه مملكة موريطانيا وجعلت مقاطعة رومانية. ففي الفصل 6، رقم الصفحة 38، من الكتاب الأول لبومبونيوس ميلا يمكن قراءة الأسطر التالية :

« يول (شرشال)، على ضفاف البحر، مدينة قديمة مشهورة الآن لأنها كانت الحاضرة الملكية ليوبا ولأنها تسمى قيصرية Caesarea. من هنا قصبات كارتينيا (تنس) وأرميناتيا، وقصر كيزا، وخليج لاتوروس ونهر ساردابال، ومن هناك الضريح المشترك للعائلة الملكية ... ثم أبكوريوم ». مع ذلك نسجل ان هذا المؤلف، في وصفه لساحل إفريقيا الشمالية، بعيد، مع قليل من المستجدات، ما جاء في كتاب أقدم عزاه ستيبان جزال الى فارون الذي توفي في 27 قبل الميلاد.

ان الفرضية التاريخية المقدمة بكثرة هي التي تعزو بناء القبر الى يوبا الثاني والى زوجته كليوباترا سيليني، ابنة المشهورة كليوباترا ملكة مصر والمثال الروماني أنطوان.

يقدم الينا يوبا الثاني كعاهل ها وللفن والثقافة. عمت عاصمته،
شرشال، بأعمال الفن المتتقة في اليونان والمستوردة من هناك
حكم موريطانيا خلال فترة طويلة، بإرادة الأمبراطور أغسطس،
من 25 قبل الميلاد الى 23 بعد المسيح.

اذا كانت العلامة التي على « النصب المشترك للعائلة الملكية » تعود
الى عصر فارون، فان الفرضية التي تعزو القبر الى يوبا الثاني تصبح غير قادرة
للاحتمال. وفي ما اذا كان العكس، يكون تشييد الضريح قد تم بين بداية
ونهاية يوبا الثاني. منذ بداية القرن و المؤرخون مختلفون في آرائهم. فالبعض
يفضل ان يعزوه الى يوبا الثاني، والبعض الآخر يعطيه تاريخا أقدم من هذا
الملك. من هؤلاء واحد مشهور هو م. ب. رمانيلي الذي يتبعد عن
الاتجاهين نهائيا، في رأيه، القبر الملكي لموريطانيا ضريح متأخر بل ومن
الممكن أن يعود الى القرن الخامس و القرن السادس بعد الميلاد ويرى فيه
تذكيرا بضريح هادريان المستدير في روما بصفة خاصة.

ما يمكن أدراكه هو ان المسألة التاريخية المطروحة من طرف هذا

القبر معقدة. Mounir Bouchenaki, *Le Mausolée royal de Maurétanie*, Alger,

970 pp. 21 - 24.

يوبا يتكلم بلهجه السيد

وره أوفد يوبا حاجبا ليقول لأكينوس، أمام ساذير، « يا امر
ملك، أوقف هذه المحادثة ». أربب هذا الأمر أكينوس الذي انسحب
نها، مطيعا الملك دون اعتراض. مواطن رمانى بلغ هذا الحد ؟ رجل أستاذ
الى الشعب الرمانى منصب الحاكم ! يطيع يوبا، في حين لازال له وطن
وكل املاكه، يطيع باربار قبل المثل لأمر صادر عن سيبون، أو حتى اختيار
الفرار من مذبحه أنصاره والعودة الى بيته معفوا عنه ! وأكثر من ذلك، التحا
يوبا الى الكبرياء أيضا، لا بالنسبة ل م. أكينوس، السيناتور البسيط ذى
لترقية الحديثة، بل بالنسبة لسيبيون الذي نجعله طبقة وألقابه الرسمية لامثيا
له. لما كان سيبون قد ارتدى المعطف الأرجوانى قبل و من الملوك،

يقال أن يوبا خاضه في هذا الشأن، مدعي أن على سيبون ألا يرندى نفس ثيابه. وحدث أن سيبون تقهقر إلى اللباس الأبيض، وامتلأ لأوامر يوبا، شبح العجرفة والحقاقة هذا.

وفاة يوبا وبيريوس

والحالة هذه، فإن الملك الذي أغلقت كل الحواضر أبوابها في وجهه، قد يش من النجاة؛ في نهاية المطاف، وبيريوس أن يتقاتلا بالسيف كي يمنحا نفسيهما وفاة شهمة. وانتهى بسهولة سيف بيريوس القوى في يوبا الضعيف. بعد ذلك حاول بيريوس أن يغمد سيفه في الصدر؛ لم يفلح، وحصل أن قتله أحد عبيده، وهذه المرة أشبع رغبته.

César, La guerre d'Afrique, Paris, Collection Gillaume Budé, 1949 pp.

53 - 54 et 87.

الفصل الثامن

المقاومة البربرية والإحتلال الروماني

لقد وضعت روما حدا لحلم الأغاليد العظام : وحدة واستقلال « البلاد ». فقد أدين التوحيد الملكي من طرف روما التي لم تعد تقبل أبدا بملوك حلفاء وتابعين. نظريا ستبقى روما، سيدة إفريقيا البربرية، محافظة على ثباتها أربعة قرون تقريبا، من 42 إلى 429. لكن يجب ألا نخدعنا هذه القرون الأربعة، إذ الاحتلال لم يكن تاما ولا دائما. ان السلم الروماني Pax romana لم يكن سوى تورية تخفى حقيقة إفريقية : كانت إنتفاضة البربر ضد الاحتلال الأجنبي شبه دائمة. حيث تشاهد الليمس Limes وهي في حالة تنقل دائم : لم يدرك الرومان إستقرار لسلطتهم إلا بين وسط القرن الأول ونهاية القرن الثاني بعد الميلاد، أي مدة 150 سنة.

مقاومة الاحتلال

إنتفاضة الجيتول والموزولام

كان الجيتول يقيمون في السهول العليا والمراكز الصحراوية لجنوب الجزائر وكان الموزولام مستقرين في النواحي المجاورة لقالة وتبسة وفي قدم جبل أوراس. لم يقبل الجيتول بالخضوع ليوبا الثاني الملك التابع ولا لآسياده الرومان. لقد نهضوا وقتلوا عددا كبيرا من الرومان. جرّ الجيتول معهم الموزولام. إتسعت الإنتفاضة ولم تكن تهدد يوبا الثاني لوحده بل كانت تهدد الرومان كذلك. وكانت روما مضطرة لإرسال أحسن جنرالاتها، بقدر ما إنضم، إلى الجيتول والموزولام المتفضين، غارامنت فزان وناحية السيرت. كانت الحرب

صعبة بالنسبة للرومان الذين لم يكن في إمكانهم ملاقات فرق المتفضين المتعددة المنتشرة حيث خلقت الغارات حالة حرب دائمة. لقد كابد الجنرالات الرومان في جهات عديدة، ولم يتصرفوا في هذه الانتفاضة إلا بمقابل مجهودات ضخمة. ويوضح لقب إمبراطور وكنية جيتوليكوس Gaetulicus اللذان أطلقا على الجنرال الروماني كوسوس كورنيليوس لونتولس كم كانت روما مهددة من طرف هذه الانتفاضة التي دامت ثلاثين سنة.

تمرد تاكفاريناس (17 - 24)

في سنة 17، كما يخبرنا تاسيت Tacite ، أبحط بربري، تاكفاريناس، الجيوش الرومانية. كان تاكفاريناس قد استخدم كتابع في الفرق الرومانية وفر من الجندية. حيث بدأ يعيش حياة الخارجين عن القانون وجمع الأنصار ونظمهم عسكريا : مشاة وخيالة متظمين. فأصبح الفار من الجندية ورئيس العصاة جنرالا. إستجاب الموزولام إلى ندائه، وكذلك المورورئيسهم مازيبا. كانت هذه القبائل قد شاهدت الرومان يستولون على أراضي السهول الغنية أين كانت قد تعودت على الإقامة في فصل معين من كل عام بحثا عن غذائها وغذاء قطعانها كانت ناحية الأوراس والحصنة وجزء من موريطانيا في حالة تمرد ضد الرومان. وكما يخبرنا تاسيت فإن تاكفاريناس : « قد احتفظ بنخبة الجنود، وكل من كان مسلحا على الطراز الروماني، لتدريبهم على الطاعة وتعويدهم على القيادة، وأن مازيبا قد نقل الحديد والنار إلى أملاك الامبراطورية بواسطة الفرق الخفيفة ». لقد أخذت الحركة حجما كبيرا وصلت إلى الجنوب؛ إنظم إليها الستين Cithiniens (جنوب المقاطعة الرومانية في السيرت الصغير). وتغلبت الانتفاضة في البلاد التي كانت خاضعة لسيادة روما إسميا.

في عام 17 شنت حرب كبرى، حيث كان تاكفاريناس قد قبل القتال. خسر لكنه لم يعترف بالهزيمة. انسحب إلى الصحراء، فأصلح قواته؛ من هناك شن العديد من الغارات وهاجم المزارع حاصلا على غنائم ضخمة. تمكن من الاستيلاء على قلعة رومانية صغيرة واقعة بالقرب من لامبيز وأجبر فرقة الخيالة الرومانية التي كانت تسبها على الفرار (20). وكان لهذا

الانتصار أثروا نوي معتبر. أباد القسم الأكبر من المذنبين والذين عفا عنهم
القدر جددوا بالانصرات. لقد مارس العديد من الجزرالات، ل. أبرونيوس
ودولايلا، فنهم العسكر ضد تاكفاريناس. وبدلاً من محاصرة المواقع
المحصنة الرومانية، التجأ تاكفاريناس إلى تاكتيك يوغرطة : حرب في مواقع
عديدة، والهجوم في الوقت والمكان الذين يختارهما بنفسه. أنهك الرومان
أنفسهم في المحلاتات التي لا جدوى منها. غنم تاكفاريناس غنيمة كبيرة
الشيء الذي حتم عليه الإقامة في معسكرات ثابتة. ففاجأه أبرونيوس وأوشك
أن يقبض عليه. لم يكن تاكفاريناس قد انهزم بعد. ففي عام 21 ظهر من
جديد بفرق جديدة. و«بعث بنواب إلى تيبير Tibère ليشره بالتخلي عن أرض
له ولجيشه عن طيب خاطر والآن فإنه يهدده بحرب لا نهاية لها». كان البربر
يطالبون بالأراضي التي تعودوا المجيء إليها شتاء. اغتاض تيبير لمطالبة
تاكفاريناس. « بخبرنا تأسيت أنه خجل لنفسه وللشعب الروماني من أن قارا
من الجندية، وقاطع طريق تجراً على معاملته معاملة اللد للند ». استخدم
الجنرال الروماني بليزوس تاكتيك نوميديا لمحاربة تاكفاريناس. قسم جيشه
إلى ثلاث كتائب وكل كتيبة قسمت إلى فرق عديدة وزود الحدود بمواقع
متقدمة. ووعد البربر الذين كانوا يسلمون أنفسهم بالعفو كما منح كذلك،
كما يؤكد بعض المؤلفين، هبات من الأراضي لبعض جنود تاكفاريناس
القدامى. كان المنتفضون يلقون صعوبات جمّة لكن الرومان لم يكونوا لينتصروا.
فقد كان تاكفاريناس حياً دائماً.

عند وفاة يوبا، فإن المور المستائين من ضعف بطوليمي، الذي ترك
المعتقين يستولون على السلطة، قد نهضوا واتحدوا مع تاكفاريناس. فاستغل
هذا الأخير سفر فيلق روماني إلى روما ليزيد في عدد أنصاره. كل النوبيين
قد نهضوا على صوت تاكفاريناس، الساخطون في المقاطعة والفرق المرسله
من طرف ملك الغارامنت، وانضم اليهم المور المتمردون.

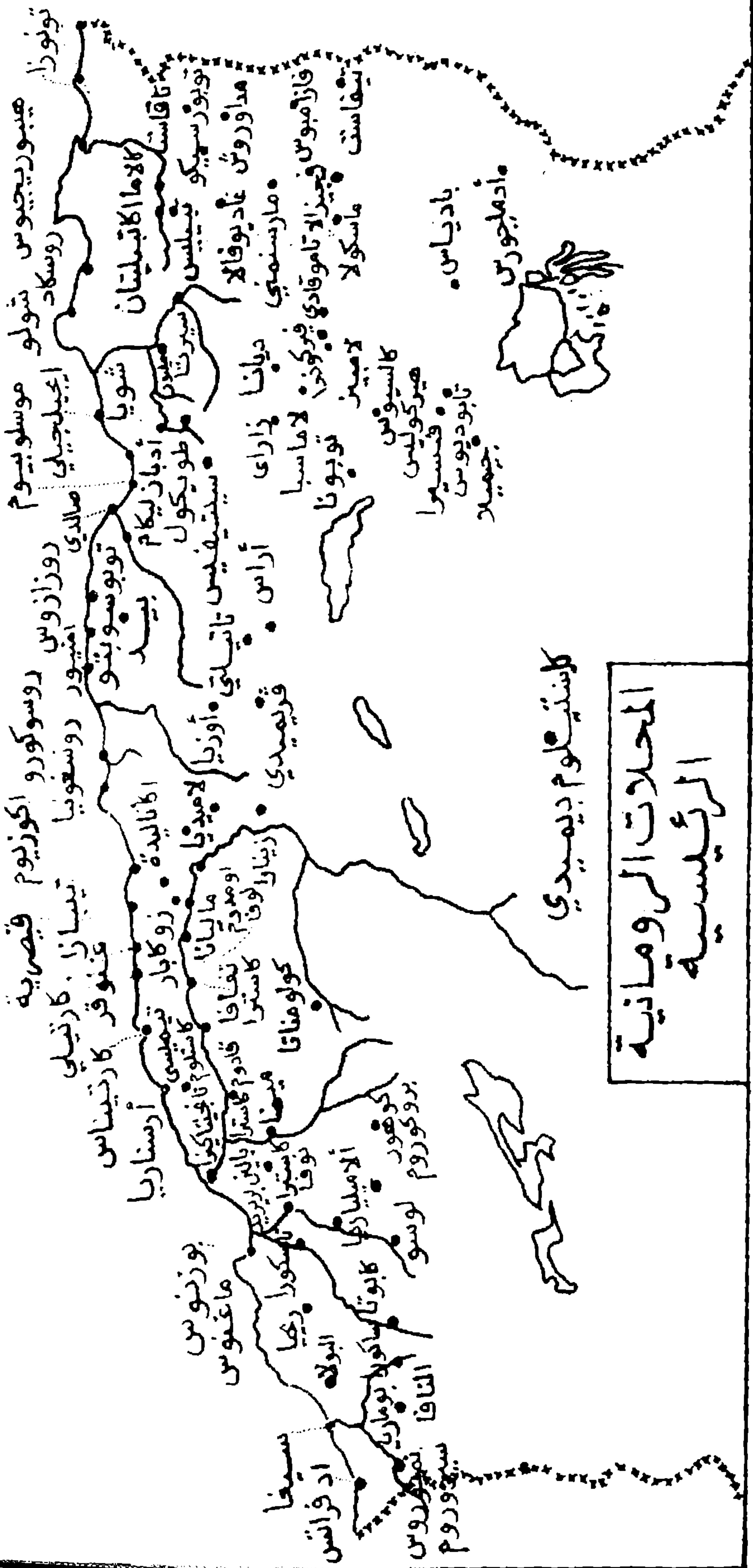
أقام تاكفاريناس المقر أمام توبوسوبتو (بالقرب من بجاية)، وأمام
وصول فرق دولايلا، انسحب وعسكر بالقرب من أوزيا (سور الغزلان) بوسط
غابة كثيفة. بعد أن دَعَم دولايلا العديد من المواقع حول الناحية، زرع الرعب
بذلك قطع رؤوس الأكثر نفوذاً بين الموزولام، وأدرك أوزيا وفجأ

تاكفاريناس الذي جرح جرحا قاتلا. وبهذه الحالة فرّ تاكفاريناس من الأسر. هكذا انتهت المقاومة الأكثر حيوية التي تلقاها الرومان منذ يوغرطة. لقد وسمت روما ترابها في اتجاه الجنوب التونسي. لكن الجانب الغربي استمر الموريطانيون يتمتعون باستقلالهم فيه.

فهرس هجائي للمحلات الرومانية الرئيسية

الاسم القديم	المقابل الحديث	الاسم القديم	المقابل الحديث	الاسم القديم	المقابل الحديث
آد باريليكام	القصر	كوريكول	جمبة	ريشكاد	سكبكة
آد فواتيس	الغزوات	ديانا	عين زانة	ريوسكورو	دلس
آد بورتوم	الحفة	غادوم كاسترا	جديوة	ريوانوس	عزفون
آد ماجوريس	نغرين	غاديوقالا	قصر صباحي	مالدي	بجاجة
ألا ميلاريا	بينان	جيميل	القصب	هيفا	تكمريت
أليولا	عين توشنت	غورغر	غورابا	سينفيس	سطيف
ألتاما	أولاد ميمون	هير ريجيوس	عابة	سوفازار	واد شرق
ألكا كاليديا	حمام ريفة	ياكوزيوم	الجزائر	تافنت	سوق أهراس
ألكا سيرينسيس	بوحنيفة	أيجيلجيلي	جيجل	تاسكورا	السيق
ألكا نيليتا	حمام مسخوطين	أيمنيوم	تغزرت	تاتيلتي	ناراس
أراس	نرمونا	كبرنا مأكورا	سيدي علي بنوب	تابوديس	نودة
أوزيا	سور الغزلان	لاماسيا	مروانة	تامقادي	تيمقاد
بادراس	باديس	لامير	لامير	تاتيرامزأكاسترا	البروانة
بالين برزيد يوم	الهيل	لاميديا	الحدية	تيفانت	نينة
بدا	جماعة صيريجي	مادوروس	مداوروش	نييليس	عمونة
قيصرية	شرشان	مالابا	الخميس	توبونا	طبة
كالاميا	قالمة	مارسبي	عين البيضاء	تيفافأكاسترا	وانتبس
كالسوهيركويش	القطرة	ماسكولا	ماسة	تيمبي	القفعة
كارتيتاس	تس	ميتوف	مينة	نيابا	تيابرا
كارتيلي	داموس	مينا	عيزان	توبوسون	نيكلات
كاستنباروم ديصيدي	مسد	تودوروس سيروروم	لالامغية	توتونا	القحانة
كستلوم النجانيم	أصم	أويد دقة	عين دقة	أوبابا	صايح
كاستروفا	لمحمدية	بيماريا	الفسان	فاباموس	مرسيت
كوبا	ريانة	بروانوس مافوس	بنوية	فاجيزلا	قصر الكتب
كوزو	القل	كيرا	ميسي بانغفار	فيري كويلا	مرتنة
كيرة	فستجة	ريليم	من جوب	فيسرا	بشكدة
كهوس بوكوروم	نافرمانت	ريجيا	عربال	زواي	زغاية
كرومانسا	مبدي حسي	ريومونا	ريج البحري	ريوكشادير	ميناء

المحلات الرومانية الرئيسية



10

11

12

انتفاضة ايديمون

لينتقم لبوطليمي استنهض أحد معتيه، وهو ايديمون البلاد؛ شملت الانتفاضة كل المور وحتى مور الأطلس. وفي الوقت نفسه بدأت القبائل النوميديّة تتحرك من جديد. وأغارّت قبائل الصحراء على الشمال. تمكن س. سوتونيوس بولينوس من الحاق الهزيمة بالمور؛ حينئذ قسّمت موريطنيا الى قسمين موريطنيا القيصرية وموريطنيا الطنجية (43). ومن جهته كان على غالبا Golbo برونقصل افريقيا أن يخوض حربا ضد النوميدين مدة ستين.

الجزائر تحت الاحتلال الروماني

كانت افريقيا الرومانية، المقتصرة على الموانيء الطرابلسية في الشرق وعلى الكتلة الجبلية في تونس و الناحية القسنطينية، تضيق حتى المركز التجاري القينقي روساذير (مليلة). وتظهر ثانية بعد الريف في مضيق جبل طارق وعلى الساحل الأطلسي للمغرب من طنجة الى سلا.

حتى نهاية القرن الثالث كان التراب الجزائري يشمل، الى الشرق، الناحية الممتدة من هيوريجيوس (عنابة) الى تيفاست (تبسة) و الذي كان ملحقا بالبرونقصلية؛ خارج ذلك وحتى أمساغا أسندت نوميديا في أول الأمر لسلطة مبعوث ثم خصّصت بنظام خاص وبعد ذلك ضمت من طرف سيبتيم سيفير الى عداد المقاطعات؛ أخيرا، والى الغرب، بين الوادي الكبير و الملوشة، هناك موريطنيا القيصرية التي كانت تمتد على 800 كلم.

الاحتلال الروماني (حتى وسط القرن الثالث)

موريطانيا
قيصرية

القصر

نوميديا

أفريقيا البروقنصلية

فوسارجيا
44 ق م عند وفاة قيصر
عند نهاية القرن الأول
في منتصف القرن الثالث
حدود الجزر الحالية



تقدم جبهة الاحتلال

ان التوسع الروماني الذي كان محدودا نوعا ما في القرن الأول قد حقق تقدما أكيدا في القرن الثاني. كان الرومان قد إحتلوا في أول الأمر بعض الموانئ في نفس الوقت الذي إحتلوا فيه مناطق سهلة المسالك في شمال تونس وحتى سيرتا. بفضل الطرق الرومانية إمتدت جبهة الاحتلال بعد ذلك إلى السهول العليا عن طريق ميلوف (ميلة) وكويكول (جميلة) وموبت Mopth وسيتيفس (سطيف)، من هنا وصلت وادي الشلف انطلاقا من مستعمرات أكاكاليدا (حمام ريفة) وزركشبابار (مليانة) وأبيدوم نوفوم. وتواصلت الحركة في القرنين الثاني و الثالث بفضل طرق أوزيا (سور الغزلان) نحو رابيدوم وتاناراموزاكسترا (البرواقية) وأبيدوم نوفوم وبفضل الطريق الرابط بين الشلف ومنطقة وهران عبر تيغافا (العطاف) وكاتيلوم تانجيتانوم (الأصنام) وكادوم كاسترا (مينا) وكاسترانوفا (المحمدية) تاساكورا (السبق) وريجيا (عربال) وبريزيديوم سوفاتيف ألبولا (عين تموشنت)، أما في الجنوب فقد تم التوسع الروماني عبر طريق تيفاست (تبسة) ولاميزيس (تازولت)، أين استقر الفيلق الثالث أوغسطس، هذه الطريق تجاوزت النمامشة والأوراي، وهكذا تم تأسيس معسكرات أد ماجوريس وبادياس وجيمبلا. لقد ظهرت كتاب من الفيلق الثالث في كاستيلوم ذيمدى 198. ومن المؤكد أنها وجدت هناك لقطع طريق القوافل البربرية. في نهاية القرن الثاني، حاولت روما أن تحوّل المناطق غير الخاضعة، في الجنوب، بواسطة طريق يربط تاتيلتي وآراس وغريميدى وعين توتة وبوغاروداغ وتمتد عبر كوهورس بروكوروم (السوق) وأميليأريا (بنيان) وكيتا ساكورا (سيدى علي بن يوب) وألتافا (أولاد ميمون) للوصول الى بوماريا (تلمسان) ونومبروس سيروروم (مغنية)

الليمس

ليس الليمس Limes خطا محصنا بسيطا ونظاما خطيا، إنه نظام دفاعي حقيقي في المعنى؛ يحتوى ثلاثة عناصر أساسية، أولا وقبل كل شيء

يحتوى فوساتوم Fossatum بمعنى خندق بأسوار، حصونا أو قلاعاً صغيرة، ثم إلى الأمام وإلى الخلف عناصر محصنة معزولة وبعد ذلك شبكة طرق تصل مختلف المواقع. إن الليمس اذن نوع من الثغور الحدودية.

ليمس نوميديا هو الأكثر شهرة. كان يصل، في القرن الأول بالجزائر، تيفاست آتيا من كابسا، ثم يلتف حول الأوراس من الشمال ثم يتجه نحو أوزيا عبر سهول سطيف ومجانة. ثم بعد ذلك يغطس إلى الغرب ليصل البرواقية، ووادي الشلف عبر أويلوم نوفوم، وكاستيلوم تانجيتانوم (الأصنام)، ويعبر وادي مينا والهبرة في كاسترانوفا (المحمدية)، والسيق في تاساكورا (السيق) ويصل في الأخير إلى الملوية في مصبه. في عهد فيباسيان، وفي الوقت الذي كان فيه معسكر الفيلق الثالث يتحول نحو الغرب، هيث طريق تربط تيفاست بهيبوريغيوس، في القرن الثالث، وفي عهد تراجان، حول المعسكر من جديد من تيفاست إلى لامبيزيس بهدف حراسة أفضل لقبائل الأوراس. لقد حصرت الكتلة الجبلية حينذاك بين شبكة حقيقية من المعسكرات والمدن المحصنة. في عهد هادريان تحاصر مرتفعاً بأولاد نايل (في السابق وكذلك آل سيفير وقع الشيء نفسه بالنسبة لبلاد جنوب الحضنة) بإنشاء كاستيلوم ذيمدى (مسعد) في 198. وفي موريطانيا القيصرية نظمت الطريق الحدودية في حوالي 301.

ما هو جدير بالملاحظة، هو أن حد الاحتلال الروماني نادراً ما يتجاوز المنطقة التالية. فعلاً، كانت هناك مواقع في الجنوب، مثل المعسكرات الكبيرة لأدماجورم (نجرين) وجيميل؛ لكن هذه المواقع كانت مهمتها بصفة خاصة منع القبائل الرحالة من الدخول إلى منطقة كان الرومان يريدون كسبها للفلاحة وللحياة الحضرية. إن المواقع البعيدة في الجنوب قد كانت تحرص اذن تنقلات البدو لا بد من التأكيد كذلك على أن الجبال قد احتلت بشكل ضعيف من طرف الرومان، وهذه كانت حالت الونشريس والقبائل وعلى أقل من الأوراس بالرجوع إلى النتائج الأركيولوجية الحالية. إذا كان الرومان قد واجهوا صعوبات كبيرة مع بدو السهول العليا، البافار كما كانوا يسمونهم، فإنهم قد واجهوا صعوبات أكثر مع الانتفاضات الجبلية. هكذا، وفي أقصى امتدادها في وسط القرن الثالث، كانت الحدود تنطلق من شط الجريد،

ثم تنحرف نحو الجنوب وتحاذي شمال شط ملفيغ ثم تتجه نحو الغرب على 20 أو 30 كلم موازية بالأطلس الصحراوي. كانت تسمى سهول الحصنة، ثم ابتداء من سيدي عيسى تنابع المنحدر الجنوبي للأطلس التي. انحصرت منطقة الاحتلال الروماني في شريط ساحلي من 120 الى 130 كلم تقريبا. ان السهول العليا الوهرانية قد ظلت خارج الأملاك الرومانية.

الاحتلال الروماني

في بداية القرن الرابع،

قيصرية

موردطانيا القيصرية

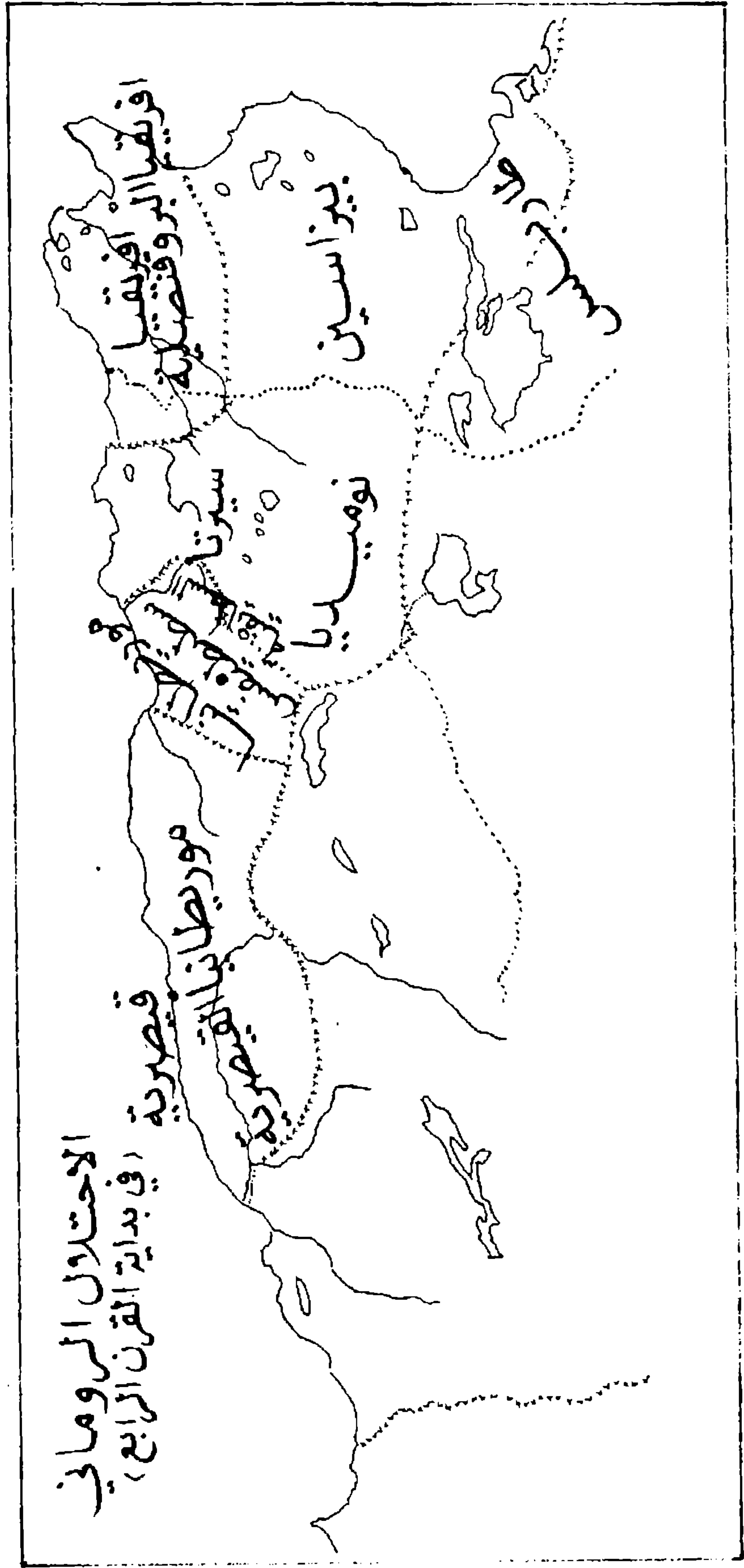
قيصرية

نوميديا

سيرت

بيزاسين

أفريقيا البروقنصلية



تاكفار يناس

XXIV كان تاكفار يناس قد بثّ شائعة مفادها أن القوة الرومانية قد خفّضت من طرف أمم أخرى وأصبحت عبارة عن بقايا، ولهذا السبب كانت مجبرة على مغادرة إفريقيا شيئا فشيئا : ما بقي منها هناك كان يمكن تطويقه، إذا بذل الرجال الذين يفضلون الإستقلال على العبودية مجهودات ضدها : إنه يرفع من قواته وبقيم معسكرات أمام توبوسوبتو ويضرب الحصار حول المكان. لكن ذولايبلا جمع كل ما كان لديه من فرق، ثم، بفضل الإرهاب الذي أوحى به اللقب الروماني وكذلك بفضل عدم كفاءة النوميديين في مواجهة مشاة منتظمين في صف، لم يسرى بالأحرى لرفع الحصار، بل حصّن مواقع أسناده، في الوقت نفسه أوقف ارتداد رؤساء الموزولام ضاربا أيامهم بالبلطة. ثم، متعلما من العديد من حملاته ضد تاكفار يناس، أنه كان من المستحيل على فرق مثقلة بالسلاح وتسير في هيكل واحد أن تلاحق بنوع عدوا متشردا، يدعو الملك بطوليمي ورعاياه وبشكل أربعة طوابير يسندوها إلى ضباط وقضاة عسكريين، قادة العصابات المكلفة بالفارات ضباط مختارون من بين المور، أما فيما يتعلق به هو، فإنه كان هناك شخصا لمراقبة الجميع.

XXV، مكررا ينقل خبر وصول النوميديين إلى حصن نصف مخرب، يسمى أوزيا، أحرقوه، ونصبوا قرابتهم (المفرد قربي - لمرجم) واستقروا في مكانه مطمئنين إلى الموقع المحاط بوشاد واسعة غابية من كل الجوانب. حينئذ، وهم بدون أمتعة وبدون أن يعلموا إلى أين يوجهون، اقتيدت الحفالة والأجنحة إلى الأمام، في مسيرات شاقة. كان النهار يبرز في أوله حين كان الرومان، على صوت الأبواق وصيحة مفزعة، يقتحمون البرابرة في وسط نومهم. كانت الخيول النوميديّة مشككة أو متفرقة في كل الاتجاهات ترعى. من جانب الرومان، كان كل شيء جاهزا للقتال، فالمشاة في صفوف مرصوصة والسرايا في ساحة القتال، أما لدى العدو فكان العكس، حيث كانت المفاجأة المطلقة، فلا أسلحة ولا نظاما وخطة، كأنهم كانوا قطعانا، كانوا يدفعون ويقتلون ويؤسرون. كان الجندي، قلقا من ذكرى أتعابه ضد عدو يتهرب من المعركة التي كان قد رغبها كم مرة، يشبع رغبته في الثأر والدم. نشر بين

الشرذمات أمر التعلق بتاكفاريناس، المعروف لدى الجميع بعد العديد من المعارك، اذ أن موت هذا القائد هي وحدها الكفيلة بوضع حد لهذه الحرب. لكن هو، حين رأى حراسه منبطحين حوله وابنه قد كُبل بعد، والرومان وافدين من كل جهة، قفز الى وسط الحراب وبواسطة موت لم يتم خاليا من الانتقام نجا من الأسر. تلك كانت هي النهاية التي وضعت للحرب.

Tacit, Annalies, Les Belles Lettres, 1966, XXIV et XXV, pp. 190 - 191

الإستيطان الرسمي

كان الإستيطان الرسمي، الشكل المفضل للسياسة الإمبراطورية، الموكل إلى جنود البلديات وأراضيها المسرحين من الفيالق، مصحوبا طبعا بفتح الطرق الضرورية لاستغلال الأراضي الممنوحة. إننا نعرف اليوم نموذجا لذلك في افريقيا الشمالية هو نموذج طرق الإستيطان حيث التوجيهات الإقتصادية مرتبطة دائما بمستقبل المراكز التي تخدمها.

كانت إقامة العسكريين القدامى مألوفة في بداية الاحتلال الروماني. لقد شاهدنا أغسطس يدخل مثل هذه المستوطنات في مملكة يوبا الثاني الحليفة، وكلود يقيم جنوده المسرحين في أويدوم نوفوم، ونيرفا في سطيف، وتراجان في تيمقاد... لكن على ما يبدو كانت هناك ناحية مفضلة في هذا الشأن بصفة خاصة: في عهد الأنطونين ANTONINS، وفي السهول العليا التي تحيط بلامبيز من الشمال ومن الشمال الغربي، أقيم عدد كبير من الجنود المسرحين في كازا CASAE وتادوتي وديانا فيتيرانوروم. ولاماسيا وفي لاميريدي. إثنان على الأقل من هذه التجمعات، وهما الثالث والرابع، أصبحتا مدينتين هامتين فيما بعد؛ لقد أثبتت شبكة طرقهما حيوية جميلة وتراكم العلامات الألفية في شكل مجموعة هناك.

هذا المثال، من بين العديد من الأمثلة الأخرى، يقدم توضيحها نوعيا حول الأسلوب الروماني في إستيطان التراب الإفريقي. كان الهدف المتوخى هو دفع إدماج الأهالي أكثر فأكثر، وإدخالهم في أسلوب الحياة اللاتينية. الأهداف التي ترمز إليها كلمة واحدة: الرومنة. الأسلوب المتبع هو دعوة السكان إلى الحياة الحضرية بإنشاء مراكز جديدة وتهديب القديمة. في هذا

الاتجاه هل جدد الرومان ؟ لا ، لكنهم نشطوا بحيوية تطور إقامة القبائل الرحل في إطار حضري ، هو إطار تجمع البربر في مواطن الحضارة المدنية . إلى القرية الأهلية التي ولدت فيها غريزة الأمن الجماعي أو الحاجة إلى التبادل ، ضمت في أحيان كثيرة أنوية الجنود المسرحين أوالتجار الرومان . حين أقيمت مراكز جديدة في جهات منبسطة ، فإنها لم تتأخر في أن تصبح محور جذب لفلاحي الضواحي ؛ بشكل شهود فيه ، بالإقتراب التدريجي والمزاخرة المساعدة ، تألق حقيقي نحو المؤسسات البلدية ، ومزايدة الحواضر للحصول على ألقاب جديدة ورقى إداري . إن حضارة أهلية بسيطة ذات نظام غير مستقر تأمل ، حين تصبح ذات نظام روماني ، في أن تدرج يوما ما في فئة المستعمرة ، الصغيرة لروما في التراب المقاطعي .

مثرى بالأعمال الخيرة الشخصية لواحد اسمه هادريان ، ولواحد اسمه سيبتيم سيفير ، فقد بلغ عدد المستعمرات والبلديات العديد من المئات في نهاية القرن الثالث في إفريقيا ، واتضح أن المسألة الحضرية فازت بالجولة .

Pierre Salama, Les voies romaines de L'Afrique du Nord, Alger, 1951, pp.

الفصل التاسع

« الجزائر » المستقلة

إلى جانب إفريقيا الرسمية، كانت إفريقيا المعادية للأجانب والتمردة على روما، إفريقيا البربر المرتبطين بتقاليدهم وبعاداتهم وبلغتهم، تنتصب ثابتة ووفية لنفسها وغيورة على استقلالها. لم يكن السلم الروماني Pax Romana سوى تورية تخفي الحقيقة بطريقة سيئة : حقيقة التمردات وثورات العامة على السلطة في الأرض المحتلة. فتاريخ السيادة الرومانية في البلاد البربرية، ماهو إلا تاريخ خمسة قرون من الحروب الضارية في سبيل الحرية والاستقلال. ونادرا ما يتكلم إلنا المؤلفون اللاتينيون عن أسباب وأهداف المتمردين وقدم جنراتهم دائما قمعهم كنضال الخير في مواجهة الشر في حين أن الانتفاضات كلها تقريبا كانت بسبب مصادرة الأراضي لضالح الرومان. خلال أكثر من قرنين سيكون الوقوف في وجه روما سلبيا : نزوح إلى الجبال وفرار إلى الصحراء. كانت روما تقترح العبودية، أما الحرية فكانت تفرض على البربر العيش بعيدا عن الحواضر « العودة إلى ما قبل التاريخ » في بعض الحالات. ان وزن إفريقيا في العالم الروماني الأكيد؛ فالتاريخ البربري خلال فترة الرومان يسجل تحت عبارة مقاومة الهيمنة الأجنبية والثبات الإفريقي. ان هذه المقاومة وهذا الثبات ناتجان عن تأثيرات قديمة، « البلاد » وتأثيرات خارجية من المشرق ومن شمال البحر المتوسط.

الانتفاضات

لم تتوقف الحرب الوطنية التي بدأها تاكفاريناس ومازينا في عهد دوميتيان (81 - 96) ، وبصفة خاصة في عهد هادريان (117 - 138) . واجه الرومان صعوبات جديدة في موريطانيا . ففي 123 نهض كل المور بموافقة حاكمهم لوسيوس ؛ فاضطر الإمبراطور هادريان أن يأتي هو بنفسه لتفتيش الدفاع وتدشين معسكر لامبيز . في 139 انتفاضة جديدة دامت أربعاً وثلاثين سنة (استغرقت عهد أونطونين كله وجزءاً من عهد مارك أوريل) ؛ يترك المور من الجبال ، وبهاجمون نوميديا ومدن الساحل ويتقدمون حتى جنوب إسبانيا . بعد وقفة قصيرة تنفجر تمردات من جديد في عهد كومود . وتتوقف مدة عشرين سنة في وقت كان يحكم روما أحد الأفارقة ، هوسيينيم سيفير من ليبتيس . في عهد آل غوردون ومع بداية القرن الثالث هاجم البربر المعمرين والملوك الرومان وفي 253 غزا المور نوميديا والبروقنصلية ، مخبرين المدن وماسكين للعديد من الأسرى . خلال هذه الفترة امتدت الانتفاضة إلى كل من نوميديا وجزء كبير من موريطانيا . فقد تحالفت قبائل جرجرة وبابور مع القائد العظيم فاركسان . حيث وصلت بعض الجماعات حتى مشارف قرطاجة تقريباً . واستخلص كاركوبينو من نقش إكتشف بمليانة عام 1917 معلومات هامة تخص الإضطرابات التي هزت إفريقيا في بداية النصف الثاني من القرن الثالث . تمرد البافار بين وادي الساحل والوادي الكبير في جبال بابور ؛ الكينكجيتاني بين صلداي (بجاية) وروزوكورو (دلس) وبين جرجرة والبحر ؛ الفاركسينانس سواء في القبائل الكبرى ، إذا نسبناهم إلى آيت فراوسن أو في كتلة بني عباس الجبلية . بدأت الانتفاضة من موريطانيا القيصرية وبلغت نوميديا . لقد أعاد كاركوبينو ترتيب المراحل المختلفة للانتفاضة كما يلي

في 253 المنتفضون يقودون رومان نوميديا أسرى . القديس سيريان Saint Cyprien بجمع تبرعات في قرطاجة للتكفل بدفع فديتهم .



نصب ساتون (تیمشاد)

•

•

•

نصب نغوس ، ساتورن إفريقي .
 في الأعلى مشكاة دائرية . تمثال
 ساتورن النصفى ، بغزارة اللحية
 والشعر الطويل . على الرأس غطاء
 متدل على الكتفين . يمسك الإله
 باليد اليمنى حجر الرباط وأمامه
 يضطجع كبش . التفسير : « هذا
 قال بالخير بدخ وانجاز في
 السعادة . قدم القديس فيليكس
 وديودور الى المولى ساتورن
 أضحية كبيرة فجرية .

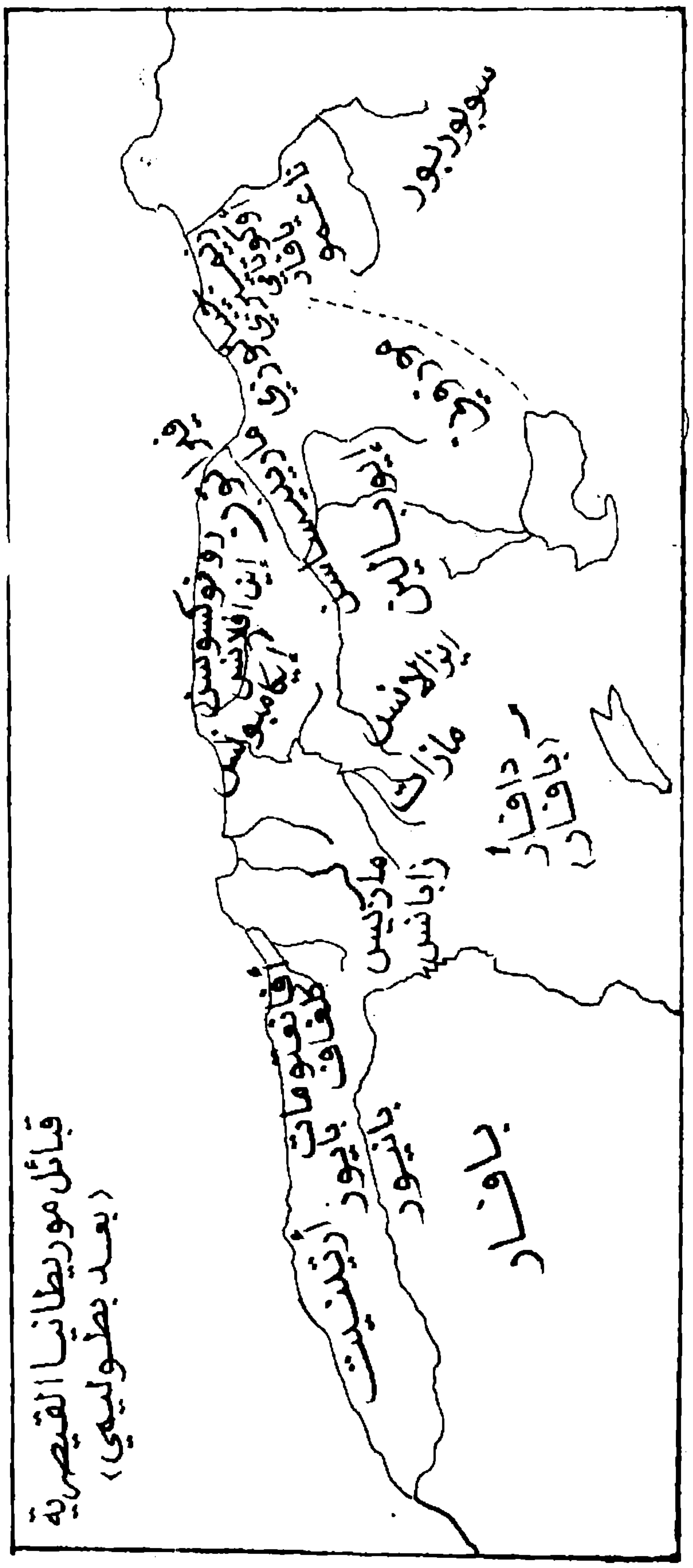


مولشور : روح لروح ، دم لدم
 حياة لحياة . في سبيل كونسيسا
 وفي سبيل تحبته ، بعد فلهور الإله
 وإكمالا لرغبة قلب مسرور ، فإنهما
 قد قدما أضحية ، في مكانها
 خروف .



عملة سيرتا المدينة ذات الاستقلال الذاتي . التمثال النصفى كتيشي .
 الظهر : حصان ملجم سائر نحو اليمين BD MLKRT (عملة سابقة لعام
 46) .

قبائل موريطانيا القيصريّة
 (بعد بطولوليبي)



أوت 254 : وكيل موريطانيا القيصرية م. أورليوس فيتاليس ، والعضو البلدي لألاتراكوم Alathracum يحتفلان بانتصار محقق في وادي لكال .
فيفري 255 : كان على قائد المعاوين Vexillation للخيلة المور أصلاء موريطانيا القيصرية أن يدافع عن مقاطعة في ناحية سور الغزلان .
بعد 255 : مرسول الأوغسطيين الثلاثة إلى نوميدنا ، فيتوريوس فيتريانوس يرفع نذرا ، في كويكول (جميلة) ، إلى جوبيتر ليشكره على تكليل جيوشه بالنجاح .
في 257 : فرقة الخيلة السادرين Sardes الثانية تحقق العديد من الانتصارات في ناحية ألتافا (أولاد ميمون) .
في 259 : س. ماكرينيوس ، مرسول الأوغسطيين إلى نوميديا يشكر الآلهة على الانتصارات التي أولتها عنايتها في ميلوف (ميلة) وفي تخوم نوميديا وموريطانيا على البافار والكينكجيتاني والفراكسينانس . ويعلن عن إستسلام قائد هؤلاء الآخرين .
في مارس 260 : ل. جارجيليوس مارتاليوس ، قائد خيالة المور ، الذي كان قد ضمن استسلام واعداد رئيس الفراكسينانس ، بقتل فجأة في ناحية سور الغزلان أثناء معركة مع البافار .
في 262 : بقام « النظام الروماني » في موريطانيا القيصرية .
تسأنف التمردات في عهد أورليان وفي عهد ذيوكليتيان ؛ من 289 الى 297 ، يحقق بربر جرجرة وبابور ومنطقة الشطوط العديدة من الانتصارات على الفرق الرومانية . كان الإمبراطور ماكسيميان مضطرا للتدخل شخصيا ؛ كان القمع فظيعا ؛ ذبح البربر أو أبعادوا . ولكن البربر لا يلقون السلاح ويستغلون الحروب الدينية ليقدموا الضربة القاضية للهيمنة الرومانية . فلانتفاضات اذن كانت سيدة الأطلس في جولات عديدة وذلك خلال سنوات عديدة .

« الجزائر » غير المرومنة أو قليلة الرومنة

ظل جزء كبير من الجزائر اذن خارج السيادة الرومانية و العديد من القبائل كانت خارج المراقبة الرومانية . لقد عرفتنا نقوش باسم البعض منها

بمناسبة التمردات. في الجبال ربما كان للبغاث موطنان أساسيان، كما يرى كامبس، واحد في المنطقة الوهرانية وآخر في جبال البابور. سكن الكاراريانس في الحصنة أو في الأطلس الصحراوي، وسكن الفراكينانس والكينيكجنتيان في القبائل الكبرى وكذلك فعل الماسينيسانس. ويتكلم نقش للامبير عن المازيس. وفي المواقع كانت بعض الجبال أقل سكاناً، أو على الأقل ترك سكانها القليل من الأثر، وهذه الحالة جبال مليانة، وجبال البلدة وجبال القبائل الصغرى والكبرى. وفي السهول هناك مثالان : السوبوربور وفالسوبوربور ذكروا من طرف بلين القديم ومن طرف بطليمي، وتجعلهم بعض النقوش في المنطقة القسطنطينية؛ في شمال منطجة البيضاء ومادوروعين كامليل (بين خنشلة والشريعة) وتالا وجيدرة.

لدينا القليل من المعلومات عن هذه القبائل؛ للإشارة إليها كانت تستعمل كلمة gens، أو natio وكانت تستعمل أحياناً كلمة قوم ETHNIQUE فقط. كان للـ gens أرض نظام خاص وكان يتم في بعض الأحيان الانتقال من الـ gens إلى res publica؛ كانت تدار الـ genes من طرف رئيس يسمى rex في منطقة القبائل.

كان الرومان مجبرين على احترام النظام الاجتماعي البربري، والإكتفاء بمراقبة قبائلهم وكونفيدرالياتهم بواسطة ضباط، وعامل أو وكيل. إن ديمومة لقب سوفات لتكشف سر ذلك. فقد كانت روما مضطرة للموافقة على القادة المنتخبين من طرف القبائل وأن تكتفي بتنصيبهم.

المقاومة الدينية

لقد دافعت العبادات القديمة البونيقية أو الليبية عن نفسها. كانت أضرحة المعمرين الرومان تحاذي أبواب المدن وامتداد الطرق، في حين كان البربر يدفنون موتاهم على الطريقة الليبية في مقابر شبيهة بالدولمن. في حانوت وتحت جدار. واستمرت عبادة الآلهة المورية التي يمثلها العديد من النذر. في المدن كانت تشرك الآلهة الوطنية مع الإيطالية ولو كان يعبد بعل هامون تحت اسم ساتورنوس أو غسطن Augustus وثابت الآلهة البونيقية تحت اسم سيلستيس Caelestis لكن في الأرياف لم تكن تعرف سوى الآلهة النوميديّة؛

فكان يعبد هاووس حول تيفاست ، وليليوس في مادورا وجورو في نواحي سيرتا ومادوروس Medaurus القرب من لاميزو بالدير Baldir في قالمة. تواصلت كذلك عبادة الملوك الأهالي ؛ فعبادة يوبا كانت شعبية لدرجة أفلقت الاساقفة المسيحيين. إن تاريخ الكنيسة نفسه يفسر في الجزء الأكبر منه بعداوة البربر هذه لروما. لقد اهتدى البربر الى دين المحرومين والمضطهدين الذين كانوا يجعلون المساواة والعدالة الاجتماعية. كانت المسيحية بالنسبة للبربر التعبير عن رفضهم للسيطرة الرومانية. لقد انفصلوا عنها يوم مثلت الكنيسة الرسمية روما. لم تسمح الجماهرة الكبرى من البربر لنفسها أن تتأثر لاعن طريق الدين الروماني ولاعن طريق حضارتها. يضاف الى هذه الديمومة الدينية بقاء اللغة. لقد انتشرت اللغة الليبية خاصة خارج السيطرة البونيقية القديمة، مستعملة في ضرب نقود مدن الساحل ؛ انها معروفة بفضل النصب المزودة اللغة. لم تبق البونيقية لغة الشعب فحسب بل لغة أفراد الطبقة الوسطى كذلك. فأوغسطين يخبرنا بأن هذه اللغة قد كانت مستعملة في المجادلات مع الدوارين Circo-neellions وهذا البقاء يحمل معنى كبيرا إذا أخذ بعين الاعتبار المعنى الإفريقي الواسع الذي يمنحه كورتواس Courtois للكلمة البونيقية. عبرت الديمومة الإفريقية عن نفسها على مستوى الفن كذلك.

العلامات التي تحدد أراضي القبائل

1 - علامة تشير إلى حد حقل إمبراطوري وحد مستعمرة أميديرا وحد أراضي الموزولام، في آن واحد.

النقش : Inscriptions Ilities de l'Algérie (n° 1. 939 bis) Exauctoritate imp (eratoris) Ner (vae) Traj [Da] ni Caes (aris) Aug (usti) Germanici [Da] cici,co (n) s (ulis) VI imp (eratoris) XIII L (ucius) Acilius Strabo Clodius Nummus L (e) g (atus) Aug (usti) pro pr (actore) inter Aug (ustum) et Amedere (nses) et Musul (amios)

الترجمة :

بسلطة الإمبراطور نيرفا تراجان قيصر أوغسطس جيرمانيكوس، قنصل ست مرات، منادى به إمبراطورا 14 مرة، فإن لوسيوس سترابو كلود كلود يوس نوموس، مرسول أوغسطس الحاكم الشرعي (قد نصب هذه العلامة) بين أراضي أوغسطس وأراضي أهل أميديرا والموزولام.
2 - علامة تشير إلى الحدود المعينة للنوميديين.

النقش : Corpus Inscriptionum Latinarum (tome VIII, n°8.814) Ex indulgentia imp (eratoris) Caes (aris) Hadriani Aug (usti) fines adsignati genti Numidarum per C (aium) patronianum Cal - crem proc (uratorem) Pro (vinciae) Caes (ariensis)

الترجمة :

بتسامح الإمبراطور قيصر هادريان أوغسطس، الحدود المعينة لشعب النوميديين من طرف كيوس بترونيانوس سيلير، وإلى مقاطعة موريطانيا القيصرية.
علامة تشير إلى الحد بين مادور والموزولام.

النقش : St. Gsell, Inscriptions latines de l'Algérie (n°2828) Ex auctorita [te] Imp (eratoris) Nervae Caes (aris) Aug (usti) Germanici, Dacici, L. Minicius, leg (atus) Aug (usti) pro pr (actore). inter Madaurenses et Musulamios.

الترجمة :

بسلطة الإمبراطور نيرفا تراجان قيصر أوغسطس جيرمانيكوس داسيكويس، فإن لوسيوس ناتاليس، مرسول أوغسطس الحاكم الشرعي (قد

نصب هذه العلامة (بين مادور والموزولام.

4 - نقش عين عيد : (A. Bertniet, Nicibes et Suburbures dans

. Bulletin d'archéologie algerienne (tome III, 1968p; 295)

النقش : EX au (c) torit (ate) Imp/(eratoris) Vespasia (ni) / Cae (saris)
Aug(usti) agr (i) / pub(lici) Cir(tensium) ad (signati) Sub / urb(uri) b(us)
Reg(ianis) et / Nicibibus pèr / Tu(l)lium Pomponianum / Capito-
nere / leg(atum) Aug(usti).

الترجمة :

بقرار من الإمبراطور فيسباسيان قيصر أوغسطس؛ أراضي البرتانس
الدومينية المعنية للسوبروربور ريجياني وللنيسيب (المنفذة) من طرف توليوس
بومبونيانوس كابيتو، مرسول أوغسطس.

شاهدة قبر مزدوجة

لأحد الجنود المسرحين حيث
الكنية تبدو لأصل جيتولي.

النقش : Inscriptions Latines de l'Algérie,
Paris, 1958, tome I (137).

C. Iulius G(a)e tu lus, vet (eranus), donis
donatis torquibus
et armillis, dimissus et in civit (ate) sua Thllio
flam(en)perp (etuus).

الترجمة :

كيوس جوليوس كيتولوس جندي مسرح مع رسمه الفلاداب
والأساور، سرح من الخدمة (العسكرية) والكاهن السرمدي لتولهم حاضر.

إهداء الى الملك النوميدي هيمبصال

العبارة المقدمة من البربر الى ملوكهم القدامى تؤكد لها نقوش عديدة.

النقش : Inscriptio laines de l'Algerie (tome I, n° 1. 242).
Reg [i Numid ? [arum ?] Hiempsa [li] Gaudae reg is[fi] lio, [cives et i] ncolas
Thu [bursic (enses) ae] dific [aver(unt).] et in glor (iam opt [imae (?) patriae]
Iulius Procu lus.].

الترجمة : الى ملك النوميديين ، هيمبصال بن الملك غودة ، ان مواطني
وسكان توبورسوكو قد شيدوا ... وعلى شرف أفضل الأوطان ، جوليس
..كامل.

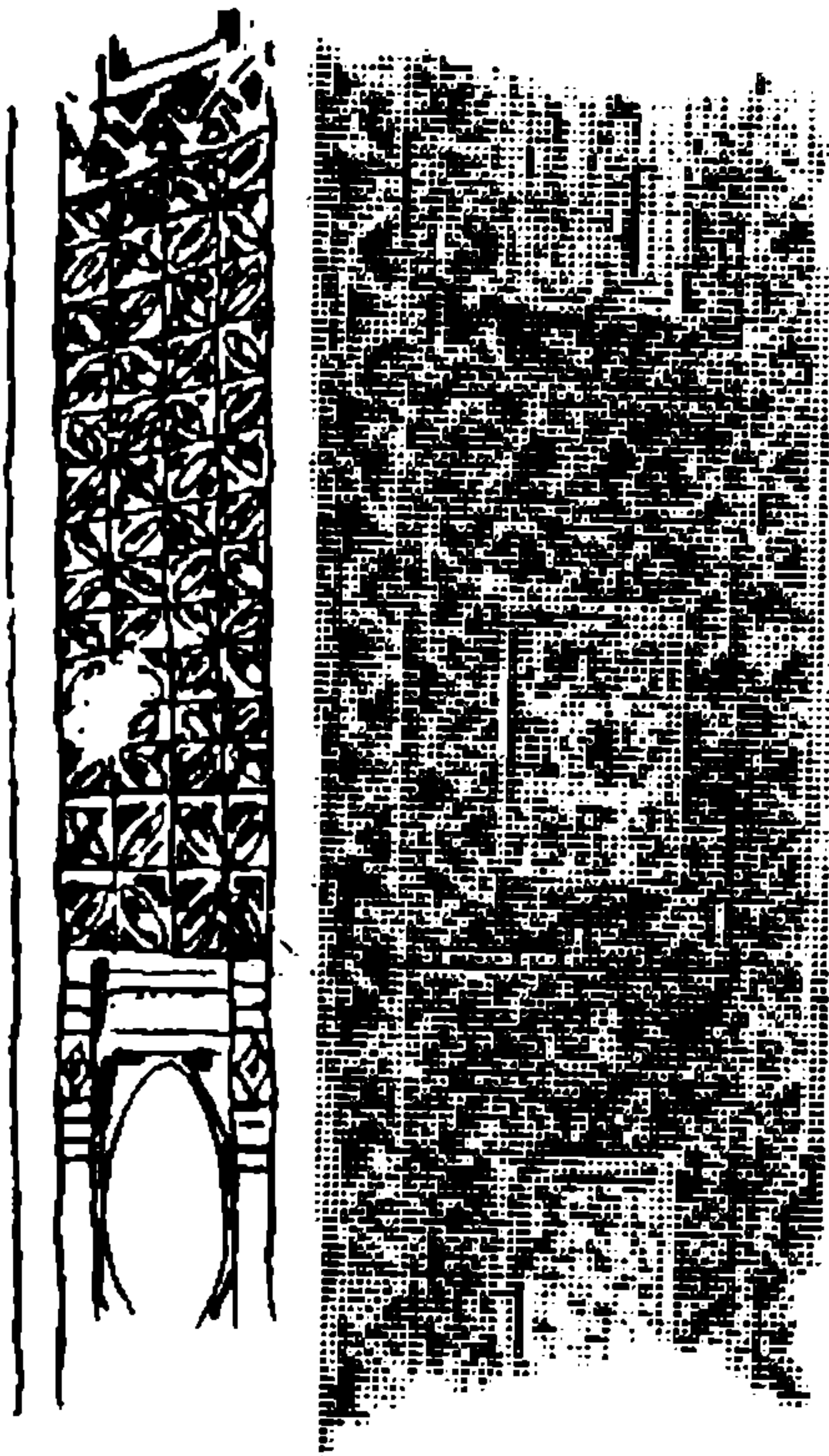
نقش متعلق بالربة مورا

(ديانا أو غوستا مونوروم)

نقش يشير، في عهد حكم ديكليتيان، الى تصليح معبد ديامورا dea
Maura من طرف س. ايليوس فورتوناتوس ، قيم ومراقب جمهورية ألبولا.
ويعرفنا هذا النقش باسم المدينة الذي سبق اسم عين تموشنت (متحف
وهران).

النقش : Imp (eratoribus) Diocletiano et Maximiano Aug (ustis) et C {ons} tantio et Maximiano Caes (aribus) C. jul (ius) Fortina tus cur (ator) ac
disp (unctor) reip (ublicae) [AI] bul (ensis) tempulum d cae Mourae ad
pristinum statum reformavit, [du] umvira (t) u C. jul (ii) Gaitatis U Jun
(ioris et Aur (elius) Dom... str et Aur (elius) quintum et (A) emi [lius]...
promissa ? sua ex (h) ibuerunt. T. FL [avius Fortun] a l'us scripsit. Anno
[provinci] a (e) CCLX.

الترجمة : في عهد الأباطرة ديكليتيان وماكسيميان أو غسطنس
وكونستانس (كلور) وماكسيميليان (هيركل) القياصرة النبلاء جدا ، أعاد
جوليوس فورتوناتوس قيم ومراقب جمهورية ألبولا معبد الربة مورا الى حالته
الأولى تحت سيادة الدومفيرة س. جوليوس غايتاس جونيور ول. سيوس فليكس
والقيم ل. أريوس و س. موسيوس جونيور وأوريليوس كيتوس وإيميلوس ...
قد وفؤ بوعودهم (؟) . كتب (هذا النص) ث. فلافيوس فورتوناتوس عام
المقاطعة 260 (299 بعد الميلاد) .



مارس الحرفيون البربر تزيين المعابد
والبازيليك وبيوت الصلاة المسيحية
وزخرفة بيوتهم ومنقولاتهم، ولما كانت
الدوناتية حركة بروليتارية فلاحية على
الخصوص، فإن التزيين قد وجد
مكانته في بيوت الصلاة الدوناتية طبعاً.
وهذه ركيزة للكنيسة الدوناتية بخصلة
تعرض حوافاً مثلثة النقب تحيط بعبارة
البدعة الأفريقية. « ديولوديس ».

D'après G. Marçais, *Art Chrétien
d'Afrique et Art Berbère* dans *Annali
dell'Istituto Universitario Orientale di
Napoli*, 2^e série, volume III

الفصل العاشر

الاستغلال والسيطرة الرومانيتان

أدت الحاجيات الى الأرض بالرومان الى الحاق البلاد. وكان الجيش الوسيلة الممتازة للاستيطان والسيادة الرومانيتين. ودفع البربر الذين نهبت أراضيهم الى الصحراء، الذين ظلوا باقين داخل الليمس، وباستثناء أقلية برجوازية مرونة، كانوا هم العمال المضطهدين الذي يدين لهم الرومان بثروتهم وازدهارهم. أما الادارة فكانت تختلف تبعا لأقدمية ودرجة رومنة الجهات، وكذلك الحال فيما يخص نظام المدن ووضع الأفراد. فقد كانت روما بأربعة في فنّ فرق تسد.

أدوات السيطرة

الجيش :

كانت روما تمتلك جيش احتلال يشمل فيلقا من 5500 رجل و 13000 معاون للدفاع عن البروقنصلية ونوميديا، و 1500 معاون auxiliaires لحماية الموريطانيات. ان الفيلقيين المجندين في أول الأمر من النرب اللاتيني والشرق اليوناني قد أخذوا ابتداء من القرن الثاني من افريقيا نفسها. كذلك ابتداء من نفس العصر انتهت الكتائب التابعة (المعاونة) الآتية من كل المقاطعات الرومانية في أول الأمر الى احتواء عناصر من السكان الاصليين، كانت بعض فرق الخيالة افريقية كلية. فرقة الخيالة المورية Cohrs Maurorum في نوميديا وفرقة الخيالة الموزولام C. Musulamorum في موريطانيا. كان الجيش كذلك أداة للاستيطان والرومنة. فالبربري المجند كان ينحصل على المواطنة بعد 25 سنة من الخدمة وحينئذ يستقر كجندي مسرح

في إحدى المستعمرات وتمنحه الدولة قطعة أرض.

كان الفيلق الثالث أوغسطس مشهورا في إفريقيا، فقد كان يرمز له « النظام الروماني ». استقر في أول الأمر في حيدرة (في الشمال الشرقي من تبسة)، ثم بعد ذلك في تيفاست (تبسة)، ثم انتقل إلى لامبيز. ونجا دائما من يد بروقنصل إفريقيا حيث كان مرسوله تابعا للامبراطور مباشرة. في سنة ١٠٠٠ فصل الفيلق الثالث إحدى فرق خياله في قرطاجة، والباقي من التعداد كما يقم في نوميديا. تقدم لنا آثار لامبيز فكرة دقيقة جدا عن المعسكر المركزي للفيلق الثالث. لنشر كذلك إلى أن أسطولا إفريقيا موضوعا تحت سلطة حكومة موريطانيا القيصرية قد كان له كقاعدة الميناء العسكري الصغير بشرشال.

الطريق :

كانت الطريق بالنسبة لروما أداة سيطرة واستغلال اقتصادي. والعديد من الطرق فتحت باليد العاملة العسكرية، وقد سمحت بتقدم جبهة الاحتلال من تيفاست إلى تاموقادي ومن لامبيز إلى جيمبلا ومن قرطاجة إلى تيفاست ولامبيز ومن ستييفيس إلى أوزيا ومن غادوم إلى تاسوكورا وأبولا ومن هوموس بروكوروم إلى نوميروس سيروروم. كانت شبكة الطرق كثيفة بالجهة الشرقية من قرطاجة. وغالبا ما كانت الطرق واسعة (20م) بالنسبة لطريق قسنطينة - سكيكدة)، ومشيدة بطريقة جيدة. حيث كانت تحتوي طبقات منضدة. وكانت تسمح الكثير من أعمال الفن بتجاوز المنخفضات، فالجسور كانت عديدة : « كان لجسر القنطرة عقد من 10 أمتار، وقبة من ثلاثة أضلاع، وتجويفات مزينة بنجميات ورأس حصان منحوت على مدخل قبة العليا ». وكانت العلامات الألفية تشير إلى المسافات، وتحمل العديد من النقوش التي أفادت جدا في معرفة تاريخ الناحية.

الاستيلاء على الأراضي

« أصبح تقدم الاستيطان بالطبع مرادفا لامتلاك أراضي البربر. تحققت الوثبة الكبرى على يد أوغسطس. وقد رأينا أنه كان هناك ثلاثة أنواع من إحتلال الأراضي : مستعمرات كان يعيش فيها مهاجرون إيطاليون والعديد من البربر الذين كانوا يحتفظون بتنظيم التقليدي، والباغوس الروماني Pagus بأراضيهِ وتنظيمه الخاص إلى جانب السيفيتاس civitas البربري ومستعمرات كبرى مثل مستعمرة سيرتا. كان الاستيلاء على الأراضي من إلحاق نومبديا وموريطانيا في أصله. شرع في نقل القبائل وفي حصرها في النواحي الأكثر فقرا وفي سرقة حقولها في عهد تراجان. هكذا فقد الموزولام أغنى أراضيهم، وكان على السوبوربور، بالقرب من العلمة، أن يرضوا بأرض أقل في ناحية شط البيضاء. ويمكن اعتبار أن الدومينات في الأراضي الأقدم احتلالا كانت تدار بواسطة مسيرين يعملون بواسطة أجراء باليوم وأقنان أوعبيد. في الأراضي الأقل رومة كان يمكن لملاك القدامى أن يستقروا على الدومين العام دافعين أتاوات. وكانت الملكية الصغيرة مرهقة بكل أنواع الضرائب.

استغلال البلاد

كانت افريقيا البربرية مستعمرة استغلال بالنسبة لروما. لم يكن الرومان عديدين. فلم يقطن افريقيا سوى بعض الموظفين الكبار، وتجار المراكز الكبرى، وبعض الملاك القليلين المقيمين وبعض المنحدرين من الجنود المسرحين. كان العمل مقدما من طرف اليد العاملة البربرية : فلاحين مرتبطين بالأرض وعبيد. وكان الإستغلال الروماني استغلالا للإنسان البربري. وكان يعني كذلك انهاكا للأرض وقضاء على الغابة.

كانت افريقيا في القرن الأول توفر القمح بصفة خاصة. فبلين بخبرنا « أن عزَّ البلاد في الحصار ». شجعت زراعة القمح جدا، لأن الأرض الإفريقية تدر مردودا جيدا من جهة، ومن جهة أخرى كان التصريف أكيدا. كانت (روا) متضخمة السكان فعلا، فكان على الأباطرة أن يزودوا المدينة بتوزعات مجانية من القمح. وكان الأباطرة يعملون كما : حتى قمح

افريقيا : أصبح القمح الزراعة الأساسية في استغلال افريقيا، حيث كانت روما تشجع هذه الزراعة الاحادية. وكان الزيتون والكرمة في حالة ارتداد بالمقارنة مع الفترة القرطاجية. وكان هناك التين و الرمان كما كان عناب وكم افريقيا مشهورين، أما التمور فكانت ثمينة جدا. في مملكة الحيوان كانت تجارة البغال والأسود والفهود ملحوظة. وكانت افريقيا توفر منتجات الرفاهية كذلك : رخاما مشهورا وأخشاب العصفية وأحجارا كريمة وألوانا وقمشا أرجوانيا. ويبقى القمح التجارة التي كانت مهيمنة. لكن من جهة أخرى لايعني هذا أن الإنتاج كان يفوق الاستهلاك وأن هناك تحسنا في مستوى المعيشة بالنسبة للفرد.

في القرن الثاني، يفسر انهالك بعض أراضي القمح واستغلال أراضي جديدة والحرية الكبرى التي تركت للمقاطعات نمو زراعة أشجار الزيتون والتين بالقدر الذي كان فيه الزيت والخمر ينقصان في روما. اتسعت زراعة الزيتون بشكل كبير في ناحية سوق اهراس وثبسة وفي أودية منطقة القبائل. وظلت سهول قسنطينة العليا وقفا على زراعة القمح. نمت في نوميديا تربية القطعان الضخمة : ربما بدأ الجمل يأخذ مكانة هامة في الحياة الريفية في نهاية القرن الثاني. شرع كذلك في استغلال مناجم الحديد والرصاص الفضي والنحاس. وكانت روما تزود كذلك بخشب بالبناء وخشب التدفئة.

هكذا كان استثمار افريقيا في صالبح روما؛ لقد كانت افريقيا مستغلة لتزودها بالقمح في أول الأمر، وبالخمر، وبالزيت وبمنتجات زراعية أخرى وبالمواد الأولية بعد ذلك. كان العمل مقدما من طرف جماهير العبيد الكبيرة، الشيء أفضى الى تخريب النظام الاجتماعي البربري. هذا الاستغلال كان في فائدة روما، وفي فائدة أقلية من الملاك الكبار والتجار الإيطاليين وفي فائدة بعض البربر المملاتين. شاهدت الجبهة الكبرى من البربر مستواها المعاشي يتناقص واطارها القليبي والجماعي يتفكك. فلم يكن الازدهار الروماني سوى واقع أقلية؛ فالجبهة البربرية لم تعرف سوى الاستغلال والكدح الشاق والبؤس.



فيسفاء الحرث بشرشال



الصيد البحري. حافة مزينة لفينوس (جميلة)



مطحنته وجدت في إحدى
المدن (تيارا)



حب قاطف العنب
(نيسه)

التنظيم الإداري الروماني

من وجهة النظر الإدارية كانت الجزائر تشمل ثلاث نواحي ذات نظم مختلفة : الجزء الملحوق بالبروقنصلية ونوميديا وموريطنيا القيصرية.

كان الشريط الترابي الممتد من عنابة وسوق اهراس وقالمة الى الحدود التونسية الحالية كله تقريبا محتلا من طرف الرومان. فكان يديره بروقنصل معين مبدئيا لمدة سنة من طرف مجلس الشيوخ ويقيم في قرطاجة. وكانت نوميديا، الملحقة نظريا بالبروقنصلية، تحكم من طرف مرسل يحمل لقب الوكيل *Propréteur* يعينه الإمبراطور. وابتداء من القرن الثالث فقط أصبح لنوميديا كيان خاص، فعلا، ابتداء من عهد كاليغولا أصبح المرسل الوكيل تابعا للإمبراطور كلية. وأقام على التوالي في ايميدار ونيسة ثم لامير ابتداء من القرن الثاني. ونشر الى أن مدن شمال نوميديا، البعيدة عن العاصمة كان لها حصانات بلدية واسعة.

أما موريطنيا القيصرية فكانت تحكم من طرف وكيل معين من الإمبراطور وله صلاحيات مدنية وعسكرية.

تفسر هذه الأنظمة الإدارية المختلفة بتاريخ دخول النواحي الثلاث ضمن لامبراطورية الرومانية، ودرجة تطورها وأهمية رومنتها.

كان للمدن كذلك نظم مختلفة. يمكن لمدينة أن تكون مستعمرة رومانية بالفعل، ومعتبرة جزءا من روما وراء البحر، وكان سكانها يعاملون كرومان حقيقيين؛ أو بلدية رومانية *Municipa rommain* حيث كانت الأملاك العقارية تخضع لآباء المستعمرات، أو بلدية لاتينية *M. latin* حيث كان للسكان حق مواطنة ذنبا، متفضة. كانت هناك حواضر مغتربة كذلك حيث السكان كلهم بربر وكان يديرها رئيس قبيلة معترف به من روما.

وضع الناس

كان المجتمع البربري متنوعا جدا تجاه روما فهناك المدمج والرعية وغير المدمج والبربر الحر. هذا الاختلاف كان معقما بنوعية الحياة التي اختلفت في المدن والأرياف. أو الصحراء وبواسطة اللغة المتطورة : بربرية وبونيقية - بربرية أو لاتينية. وكان وضع الأفراد مختلفا اذن أكثر من اختلاف الجماعات. حيث يميز بين الناس الأحرار والعبيد.

كان الناس الأحرار يشملون المواطنين الرومان، والذين يتحصلون على الحق اللاتيني والغرباء. وكان يمكن لللاتينيين الدخول في المواطنة الرومانية، وبذلك كان لروما وسيلة للإعتراف بجميل الذين كانوا يخدمونها بوفاء. في 212 منع أمر كاراكالا المواطنة للأغلبية الساحقة من الإمبراطورية الأحرار. فجاء هذا الإجراء رغم ذلك متأخرا جدا لاشباع رغبة الأقلية البرجوارية. ضمن مرتبة المواطنين كان يحتل الشيوخ (أعضاء مجلس الشيوخ) والفرسان المقام الأول في المجتمع؛ يلي هؤلاء باقي المواطنين المختلفين فيما بينهم : برجوازية الملاك الريفيين، والقضاة وأعضاء مجالس المستعمرات والبلديات، وفي قاعدة السلم كان يأتي الشعب الصغير للمدن والأرياف. وكان للعمال المؤجرين ومعمري الأملاك الكبرى نظام قضائي خاص بالانسان الحر.

عرفت افريقيا الرومانية العبودية، حيث يذكر جزال، اعتمادا على هذا التأكيد، فقرة بيترون أين تبجح شخصية خيالية بامتلاك قدر كبير من العبيد موزعين عبر أرياف نوميديا يمكنها أن تستولي بواسطتهم على قرطاجنة (القرن الأول). قدمت بودونتيلو، زوجة أبولي، هبة لابنائها لاتشمل على أقل من أربعمئة عبدا (القرن الثاني). وثبتت تعرفة جمركية في زاراي (بين نومييا وموريطانيا القيصرية) نقل عبيد كانوا موضوع تجارة في افريقيا. والإشارات الى العبيد ليست نادرة في عهد الإمبراطورية العليا؛ فمن المعروف أن موريطانيا كانت تصدر منهم في وسط القرن الرابع. ويتكلم القديس اوغسطين عن وجود العبيد في كل البيوت تقريبا. كان أغلب العبيد من البربر المهزومين، ومن الأسرى. حيث كانت الإمبراطورية تملك منهم وكذلك البلديات والمنازل. كان عبيد الأرياف عبيدا جدا، اذ تتكلم النقوش عن العبيد

في المزارع، وفي الأملاك الإمبراطورية وعن الذين أجبروا على الاستسلام للانشقاق والفارين المتردين. استثمرت العديد من الدومينات بالعمل الرقي. قسم العبيد الى زمر وكانوا يؤجرون في كثير من الأحيان مع الأرض لأحد المزارعين، أو يسيرون مباشرة من طرف المالك. وفي بعض الأحيان كان هناك قيم، هو عبد كذلك، يسيروهم ويقدم حسابه عن تسييره الى سيده، أو الى معتمد Procurator أو الى مسير (Actor) عبد الملك. في الإقطاعات الممنوحة الرقية كان السيد يسلم أحد عبيده قطعة أرض يفلحها ويحتفظ بالمتوجات مقابل دخل يسلم للسيد.

لم يكن للعبيد أية حقوق : لا الحقوق الشخصية، ولا الحقوق الزوجية، اذ لم يكونوا قادرين على عقد زواج معترف به، وتأسيس أسرة وامتلاك ثروة خاصة وكان يمكن الخروج من العبودية بواسطة العتق، ويمكن أن تبقى روابط بين المعتوق وسيده. وكان عدد المعتقين كبيرا فلا بد أن يأخذوا مكانة هامة في المجتمع الافريقي.

نقش عين واصل

هذا النقش هو شرح للـ Lex Hadriana (قانون هادريان) الذي كان يطبق إدارة الأملاك الإمبراطورية لكل إفريقيا. لقد أعاد منشور الوكلاء Procurator tractus في نصه الفقرات التي كان لابد من تطويرها.

أ (تحية الإمبراطور قيصر، لوسيوس سيبتيمون سيفيروس بيوس وجوليا دومنا، أم الكمبيين، فإن بارتوكلوس، معتق الأغسطسين الثلاثة والوكيل قد أقام هيكلًا بحمل قانون الإلهي هادريان، وينظم النظام المنقوش أسفله.

ب (نشرت نسخة من قانون هادريان على هيكل منشور الوكلاء. هاهو كيف يسهر قبصرنا، في عنايته التي لاتعرف الكلل، على منافع الإنسانية.

1 - كل الحقول المزروعة زيتونا وأشجار أخرى للفواكه التي تقع في وحدات المئة لسالتوس (أملاك) بلانديانوس أودانيس وفي أجزاء سالتوس لامينيانوس ودومستيانوس المجاورة لسالتوس سوستريتانوس، كل هذه الحقول لا تأخذ وحدات المئة ولا أثر احتفاظ المسيرين بخول للمحتلين

حق امتلاكها، والاستفادة من مدخولاتها ولا يورثها نورتهم، وهو الحق الذي يوافق عليه من طرف قانون هادريان بالنسبة للأراضي البكر والأراضي التي تظل غير مزروعة عشر سنوات متتالية.

2 - من جهة أخرى، سوف لن تغرم محاصيل حقول مالتوس بلاند يانوس أودنيسيس المؤجرة من طرف المسيرين للمحتلين إلا بالماضي. لـ ...
3 - إذا غرس أحد الحائزين أو طعم أشجار الزيتون (في الأراضي البكر أو غير المزروعة منذ عشر سنوات متتالية)، فإن أية ثمار يجنيها خلال العشر سنوات الأولى سوف لن تغرم.

كذلك، سوف لن تغرم الأشجار المثمرة خلال السبع سنوات التي تلي الغرس أو التطعيم.

في جميع الحالات، سوف لن تغرم ثمار الأشجار التي ليست في حالة الإعفاء إلا إذا عرضها الحائز للبيع.

4 - يجب أن تسدد الأتوات المتعلقة بالثمار الجافة للأرض من طرف المحتلين في السنوات الخمس التي تلي الجني ولدى المسير الذي يحتل الأرض.

بعد هذا الأجل (سوف يتقل الدين) لحساب (الدولة).

Carton La Lex Haddriana et son Commentaire par le Procureur

Patroclus dans Revue archéologique, n° 21, 1893, pp. 24 – 26.

شاهدة قبر (التقطت بالقرب من ميلة).

ك (ينتوس) ستاتيوس ماسيليوس بوتراغاش سبعين سنة.

قضى في هذا الحقل خمسا وثلاثين سنة.

انتبوشيس، زوجته، وولداه أمير وبرفوتوروس مع أخواتهما، اله، أبيهم
الفاضل جدا.

شاهدة قبر لآحد أبناء هذا الفلاح

بروفوتوروس عاش سبعا وخمسين سنة. قضى في هذا الحقل خمسا
وثلاثين سنة رفقة أبيه بوترا، واثنين وعشرين سنة بعد وفاة أبيه. أمير وأخواته

الى أخيهام الفاضل جدا.

عاش الأب بوترا اذن 35 سنة على هذه الأرض ، ومن انتيوشيس التي تقول عن نفسها إنها زوجته التي تحمل اسم عبدة ، كان له عدة أطفال ، حيث الأكبر ، وهو بروفوتوروس ، ولد حوالي العصر الذي استقر فيه بوترا في هذا المكان . لقد مات بروفوتوروس بدوره في نفس المكان ، بعد أبيه بـ 22 سنة . يحمل بوترا أسماء تشير الى أنه مواطن روماني (يحمل ، زيادة على اللقب والنسابة ، إسمين إثنيين ، وهذا شيء مفرد) . ربما كان قد عتق من طرف مالك الحقن ، اسمه كـ . ستاتيوس ، حيث كان عليه شرعا أن يحمل اسمه ، مضيفا اليه تعسفا إسم سيسيليوس . لاندري لماذا . والحالة هذه ، ظل كل من المرأة التي ظلت رفيقة العبودية وأطفالها الذين ولدوا قبل عتقه عبيدا : من الصعب الاعتقاد أن نسابة واسم بروفوتوروس كانا قد أهملتا على شاهدة قبره ، لو كان مواطنا مثل أبيه . انني أفترض أن بوترا قد تحصل من سيده على اقطاعية رقية ، أصبح حرا ، كان عليه أن يحتفظ بها ، وبعده ، تنتقل الى أطفاله . هذه هي ، في اعتقادي ، الترجمة الأكثر رجحانا للآثار التي تكشفها هاتان الشاهدتان البسيطتان .

Stephane Gsell, Esclaves ruraux dans l'Afrique Romaine dans
Mélanges Gustave Glotz, 1932, tome I, pp.413 - 414.

الطرق والتجارة الرومانية

عند الانتقال من تيفاست الى هيبوريجيوس ، وفي الطريق كان يجمع زيت السهول العليا القسنطينية حتى ماذور حبوب ناحية قالمة .
تليت وسوفيتولا وسوفيس هي مراكز رئيسية لناحية زيتية مزدهرة جدا كانت تفضل أن تباع منتجاتها على الطريق التي كانت تبلغ الساحل بين هيدروميت وتيناي ، وكانت تصرف في الوقت نفسه زيت تونس الوسطى وزيت الساحل ومنتجات بيزاسيوم هذه حيث يفخم الكثير من كتاب العصور القديمة خصوصيتها .

ألم تكن روسيكاد المنفذ الطبيعي للقطاع الزيتي للاميز - قيمقاد ، وميناء سيرتا ؟ وصلداي وموسليوم منفذ قطاع الحصاد العجيب السطايفي ،

ايجلجيلي ميناء الزيت الذي كان يمّون، من بين الصناعات الأخرى،
الصناعات الكبرى لساطافيس ؟.

لم يجد زيت توبوسكتو، المعروف الى غاية مصر، أدنى صعوبة
للوصول الى بجاية؛ ربما كانت قموح سور الغزلان تكابد أكثر للوصول الى
رسغونيا. وبينما كانت تتمتع تيازا وقيصرية بأراضي خلفية واسعة نوعا ما كانت
المحصولات الجيدة لوادي الشلف نصب في كارتيناس وفي كيزا، وأما
محصولات موريطانيا القيصرية الغربية فكانت تصب في بورتوس ماغنوس أو
في سيغا.

رغم أسبقية تمويل الدولة، فقد كان التصدير الحر يستغل بعض
حريات التصرف والتجارة الخارجية لأفريقيا مع المقاطعات الغربية
للامبراطورية، إسبانيا وبلاد الغال وينشط حركة طرق كبيرة نوعا ما نحو موانئ
موريطانيا القيصرية.

الأدلة التي تساعدنا في إعادة رسم مجمل حركات التصدير الواسعة
هذه ليست قليلة، فعلى سبيل المثال هناك محطة مسماة هوريا HORREA
على الطريق سطيف - بجاية، كذلك نصب تذكاري عثر عليه في لامبيردي
بالقرب من لامبيز، يحمل تحت تجويف معد لكيل القمح، إسم روسيكاد،
ميناء الأبحار البعيد، كذلك هناك تمثال أقيم لخصبة ربيعة، مارست في عهد
تراجان شراء الحبوب لحساب الدولة على الأرجح، في دائرة تيفاست، والتي
كانت تنتقل فيما بعد إلى هيون، إن الفسيفساءات الجميلة التي كان
أصحابها الأفارقة يزینون بها قاعات إجتماعاتهم في أوستي، ليست بالنسبة
لنا سوى نقاط تفصيلية في ميدان فيه كل شئ يثبت أهمية الطريق، في نفس
مستوى الملاحة البحرية وفي السياسة الاقتصادية لروما.

Pierre Salma, Les voies romaines de L'Afrique du Nord, Alger, 1951, pp.

الفصل الحادي عشر

الرومنة

المدن

ترجمت بصمة روما في المظهر الريفي وفي المظهر الحضري على مستوى أكبر. فالآثار الحالية تؤكد ذلك بإسهاب. وإذا كان البربر في أغليتهم قد عبروا عنهم تمردهم على روما، فإن ذلك لا ينفي أن جزءا من الحضرة والبرجوازية الحضرية بالتحديد، قد كسبته الرومنة. إن هذه الرومنة قد برزت كذلك في الأدب الإفريقي، وسيكون من المهم معرفة إلى أي حد ظل الكتاب الأفارقة أوفياء لوطنهم. ويمكن التساؤل كذلك حول ما إذا كانت المسيحية والكنيسة قد فضلنا حركة روما أم سمحتا للأفارقة بتأكيد خصوصيتهم؟

تحويل المظهر الطبيعي

المظهر الريفي :

ترجم الحضور الروماني في المظهر الريفي بتحويلات هامة. لقد لوحظ توسع وحدات المئة Centuriation، وتعيين حدود الأراضي الزراعية والمناطق البور (آثار وحدة المئة واضحة في جنوب سطيف مثلا). فالصور الفتوغرافية الجوية قد كشفت عن آثار شبكة ري؛ وتقدم لنا تعرفه لاماسيا (مروانة) مثالا عن نظام للري. وفي ناحية باتنة نظام آخر يحدد بدقة توزيع الماء بين مختلف الملاك؛ أما قنوات شرشال وعنابة فتعطينا فكرة عن أهمية المنشآت المنجزة الخاصة بالري. السدود والأنابيب والخزانات عديدة جدا. ستقدم دراسة القرى والمزارع، التي لازالت في الانتظار زيادة على ذلك، فكرة عن تحول المظهر

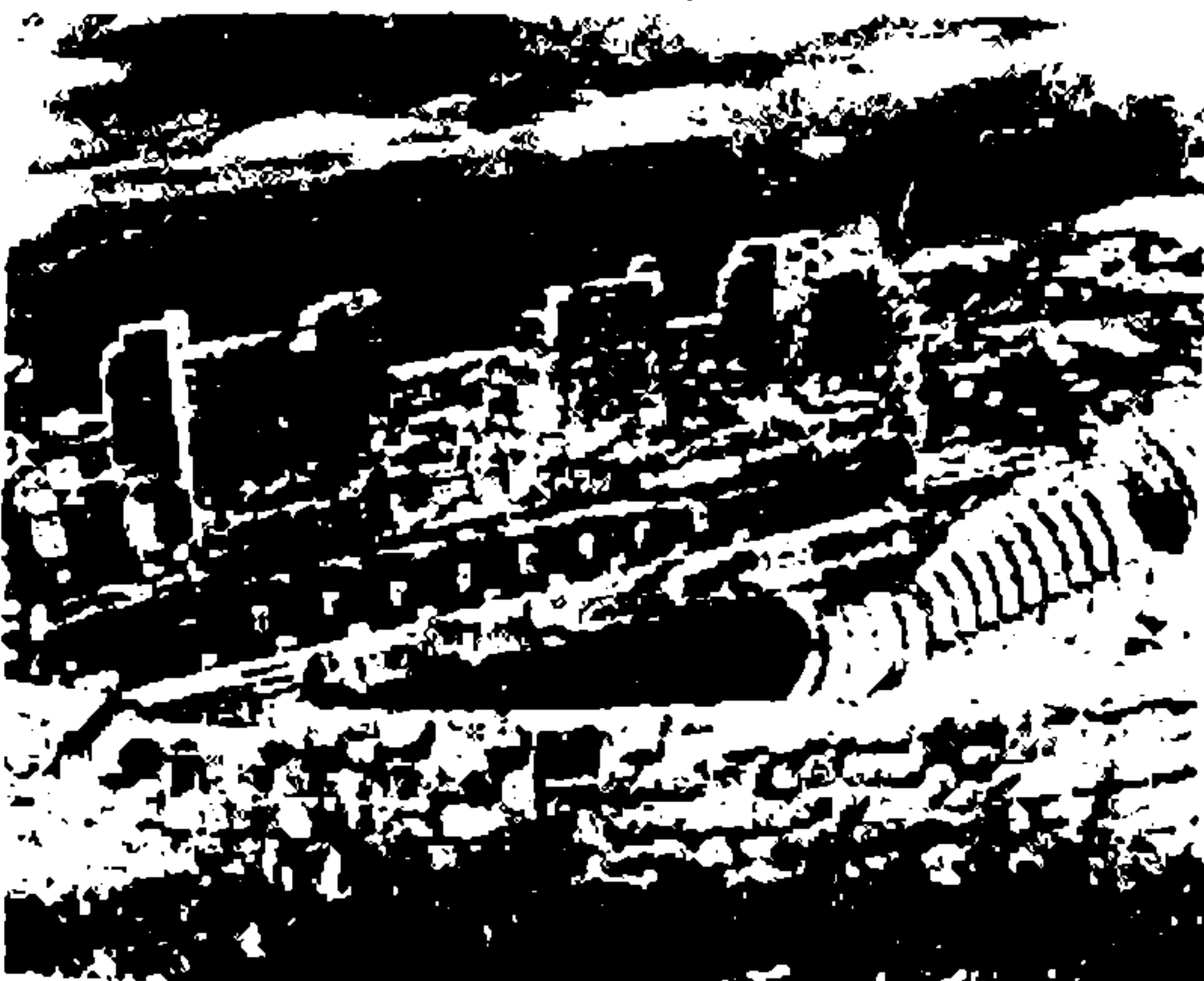
الريفي. تحتل المزرعة (المسماة فيلا) مكانة هامة في السكن الريفي. تقدم فسيفاء واد العثمانية، بالقرب من قسنطينة، فكرة عن تلك : بناءات رشيقة بحمامات وقاعات كبيرة تستخدم للسكن ومنظمة حول فيناء واسعة بعيدا عن ذلك بقليل بنايات للاستغلال وزرية بمياه وأرض للطيور. توجد خارج الفيلا جميع الأنواع الممكنة للمساكن الريفية، القرى والقريبي والكوخ الأكثر فقرا والمزارع المعزولة الأكثر بسرا.

المظهر الحضري

تقدم الآثار الحالية فكرة عن أهمية المدن الرومانية. الأغلبية تبرز كمدين صغيرة من 5 الى 6000 ساكن، حوالي 10 000 بالنسبة للكبيرة. لم يكن في هذه المدن تجار وحرفيين فحسب بل كان هناك فلاحون أيضا يقطعون، صباحا ومساء، المسافة بين المدينة وأراضيهم أو الذين يقيمون تبعا للظروف في المدينة أحيانا وفي الريف أحيانا. كانت المدن توجد في كل مكان، على طول الساحل وفي داخل البلاد. على طول الساحل لدينا هيبوريجيوس (عناية) وروسيكاد (مكبيكة) وشولو (القل) وايجيلجيلي (جيجل) وصلداي (بجاية) وايومنيوم (تيفزرت) وروسوكورو (دلس) وروسفونيا (البرج البحري) وايكوزيوم (الجزائر) وتيبازا وقبصرية (شرشال) وكارثينالين (تنس) وبورتوس ماغنوس (بتوية)، وفي السهول العليا الرطبة توجد مادوروس (مداوروش) وتبورسوكو نوميداروم (خميسة) وكويكول (جميلة) وسيتيفي (سطيف). وهناك مدن أخرى توجد على طول طرق التسلل نفاست (نسة) وماسكولا (خنشلة) وتاموقادي (تيمقاد) ولاميزيس (لاميز).



الديكومانوس والقوس المسمى تراجان (نيمقاد) أسست المدينة في عهد
تراجان (58 - 117).



المسرح (جميلة)



الإمبراطور أوغسطس



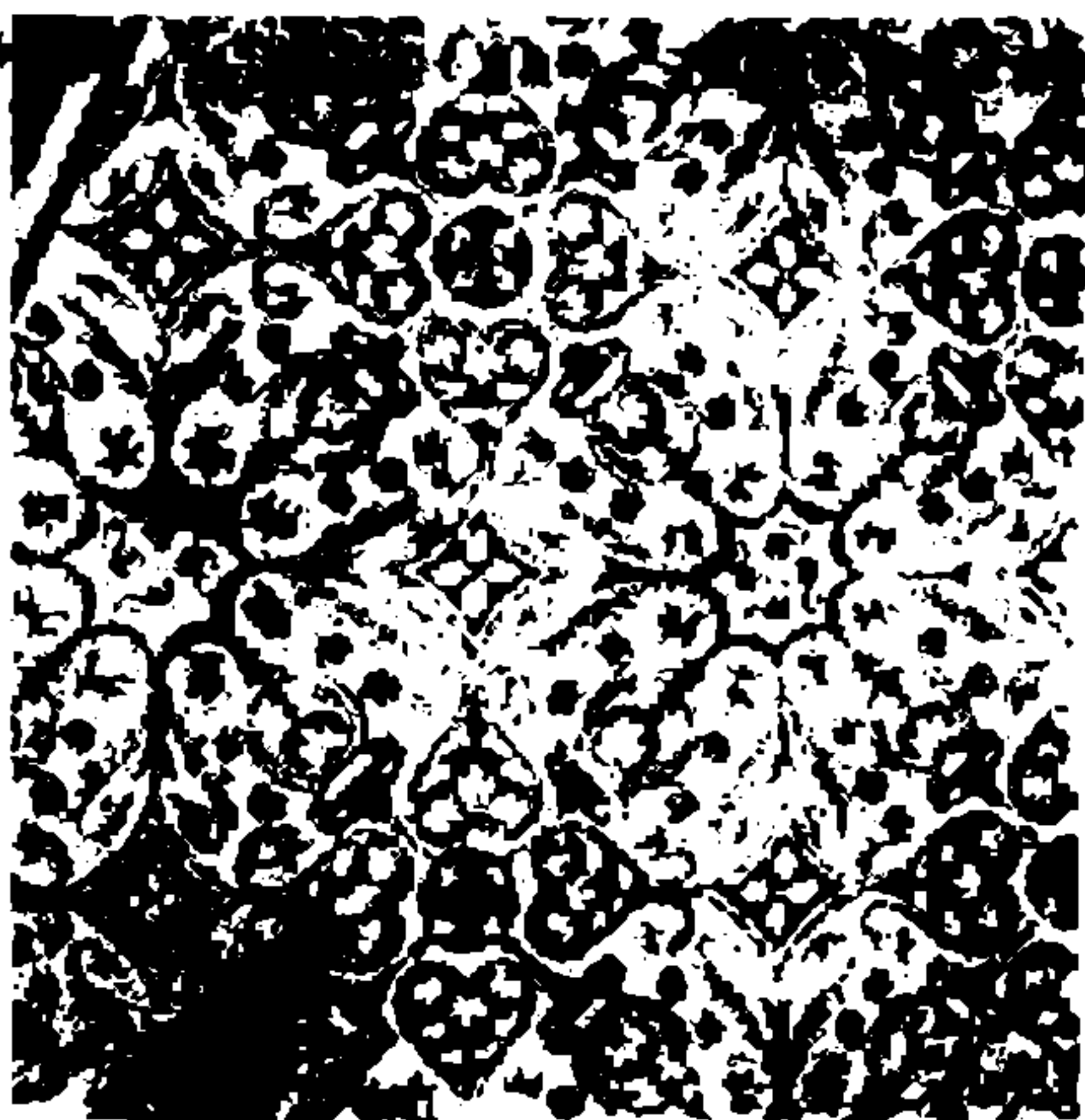
تيمقاد (منظر عام)



عضو بلدي (سوق
أهراس



سوق سيرتبوس



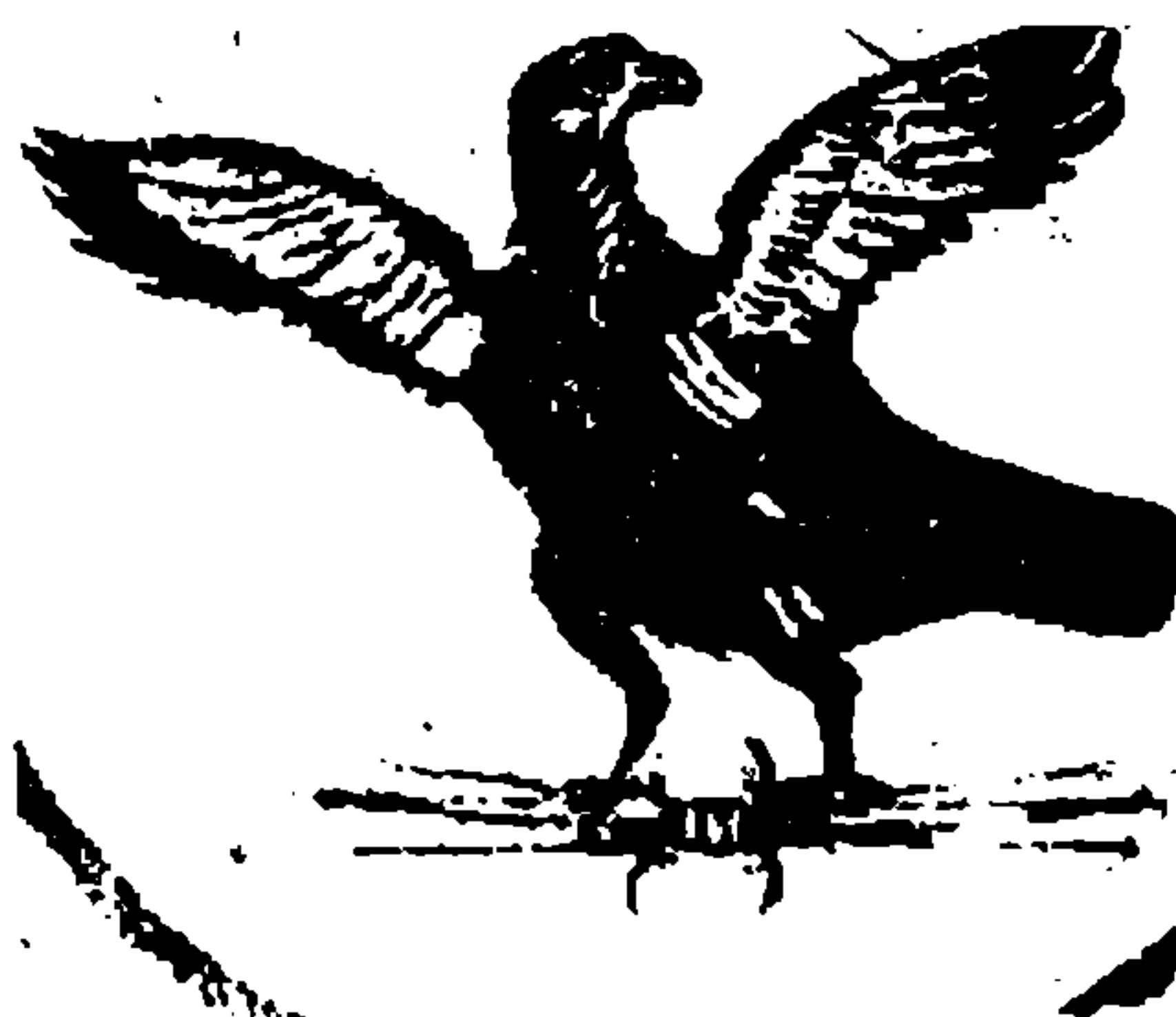
فسيفساء تيمقاد



فسيفساء تيمقاد



فسيفساء جميلة



النسر. فسيفساء سيدي مسيد (قسنطينة)

أنشئ العديد من المدن على مواقع حواضر قديمة، وهذه وضعية غريبة. فقد كان هناك مركز تجاري فينيقي ابتداء من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بعد أربعة قرون ربطت هيون مصرها بمصر قرطاجة وكان ذلك عملا تجاريا، وبعد 201 قبل الميلاد اختيرت مقرا للإقامة من طرف الملكين النوميديين سيفاقص وماسينيسا، فكانت هيرو الملكية. وأوضحت رومانية بعد انتصار قيصر، في 46 قبل الميلاد، وكان سالوست أول حاكمها. لقد عرفت المدينة حينذاك ازدهارا سريعا، بلدية بسيطة أولا في عهد أوغسطس، ثم مستعمرة في عهد آل انطونين، فأصبح بربرها مواطنين رومانيين. كانت الرومنة تكسب الأرضية. كانت المدينة تغطي حينذاك 60 هكتارا، وتجمع عددا كبيرا من الدومينات والمزارع المشهورة بكرومها وحبوبها، كما كانت مؤمنة المواصلات بشماني طرق. حتى الآن يمكننا أن ننهر أيضا من قنواتها وفيفساتها، من حماماتها الحارة ومن مسرحها.

ربما كانت تيبازا أقدم، فقد وجدت محطات تيبازا تعود إلى الباليوليتي الأعلى، وتشير المقبرة الجنائزية الموجودة في مخرج المدينة نحو شرشال مع أثاث يعود تاريخه إلى القرون الرابع والثالث. والثاني قبل الميلاد، إلى أن المركز التجاري كان أكثر أهمية، فقد كان في أول الأمر، حاضرة خاضعة لقرطاجة، ثم ضمت إلى مملكتي سيفاقص وماسينيسا، وأخيرا ضمت إلى المملكة الموريطانية، ويعود تاريخ ضريح الملوك الموريطانيين المشهور أكثر باسم القبر الملكي لموريطانيا إلى هذا العصر في 46 وافق الإمبراطور كلود تيبازا على نظام بلدي مع امتياز الحق اللاتيني لسكانها. بين 145 و 150 أضحت تيبازا Colonia Allia Tipasensis وكانت المدينة في حالة توسع.

المدن العسكرية معروفة بشكل جيد. فتمقاد، مستعمرة الجنود المسرحين، خططت بشكل واضح ومنتظم: تصميم هندسي منسجم جدا بطريق متعامد بعضها على بعض، وموقع معين لكل بناء. لكن الضراحي أكثر مرونة. في لاميز حيث المعسكر منتظم، فإن المدينة المشيدة بجواره مخططها غير منظم. تتناقض جميلة، مستعمرة الجنود المسرحين، مع كويكول الأكثر اتساعا والتي اقترنت بسطح الأرض والتي كانت تبدو مدينة نشيطة جدا.

تسمح لنا الآثار الحالية بتحليل المميزات الأساسية للمدينة الرومانية. فهناك أولا الطريقان الكبيران، الـ *Cardo maximus*، المحور شمال - جنوب والـ *Decumanus maximus*، المحور شرق - غرب مع ميدان أو عدة ميادين بالقرب من تقاطعهما. ثم العديد من المباني، المخصصة للإدارة؛ الكورى (مقر المجلس البلدى) حيث يجتمع المجلس البلدى، البازيليك المدنى أين يفصل فى المنازعات وتناقش المسائل التجارية؛ المخصصة للعبادة، المعابد أين تقيم الآلهة جوبيتر، جونون *Iunon* ومينيرف على الخصوص. كانت الحمامات، بقاعاتها الخاصة بالتعريق واستحماماتها الحارة والباردة تستوجب بناء *Frigidarium* و *Tepidarium* و *Callidarium*. حتى المراحلص الجماعية كانت فاخرة، فى أغلب الأحيان. لابد من إضافة المسارح والمدرجات والسيرك فيما يتعلق بأوقات الفراغ. هذا المجموع من المباني تعرف به المدينة الرومانية.

عثر فيها على الكثير من أعمال الفن. ففي شرشال مثلا يمكن حتى اليوم الإنهار من تماثيل يونانية أو نسخ من نماذج يونانية : أبولون، التمثال الجبار لأوغسطس؛ فسيفساءات هيون، ونيبتون وأمفيتريت *Amphitrite* على إحدى فسيفساءات قسنطينة، ومشاهد دينية وخمرية إلخ.

المدن هي التي حملت بصمة روما بصفة خاصة. فبعض المرومنين من البربر إستولت عليهم الحياة البلدية حول الميدان والمباني وبواسطة الحياة المريحة. لسيد القصر فى الفيلا الريفية.

صعود البرجوازية الحضرية

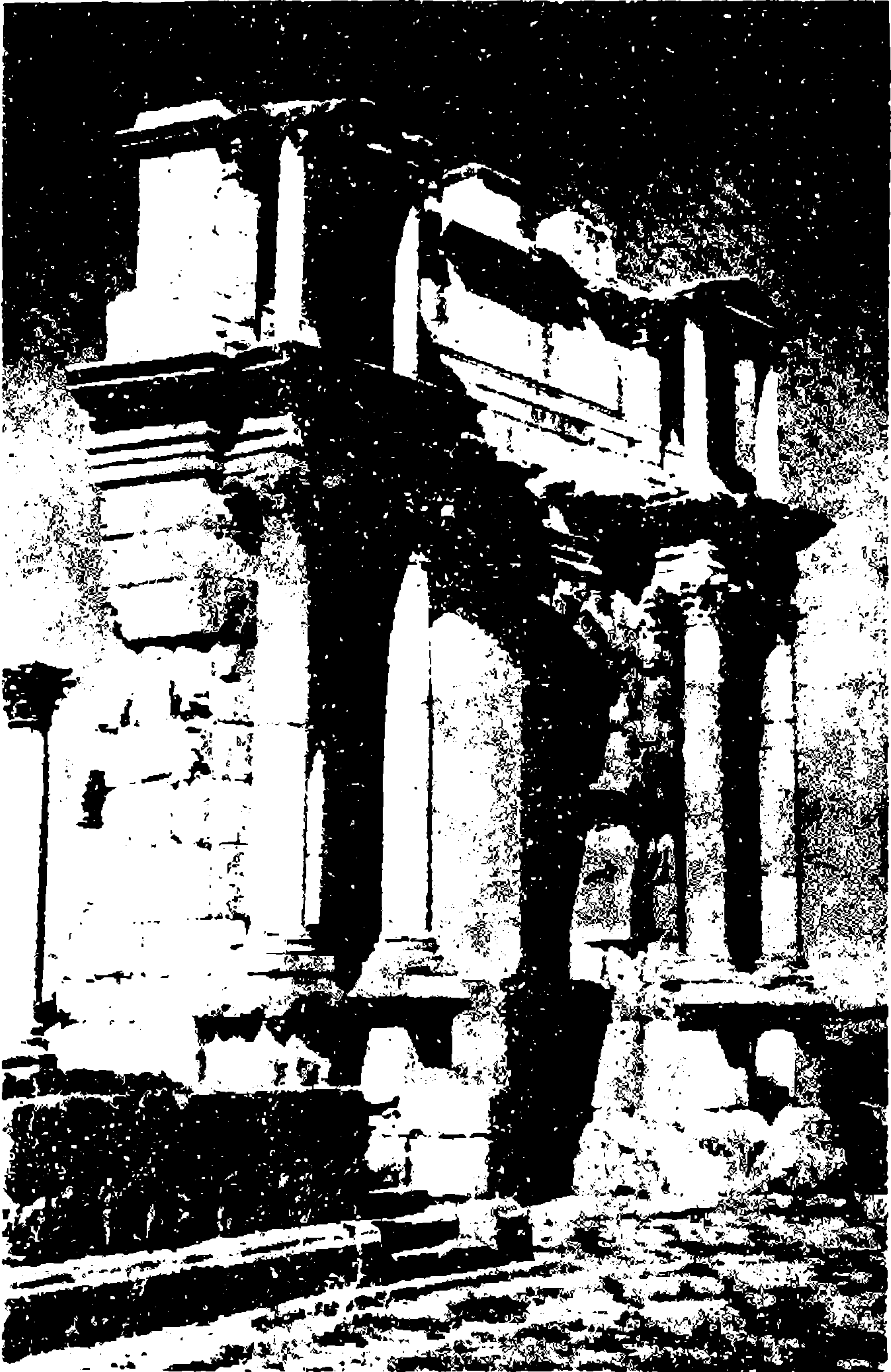
لدينا العديد من الأمثلة عن الرقى الاجتماعى للبرجوازية. إذ تسمح رومنة أسماء البربر بإتباع هذا التحول. يعود هذا الصعود إلى الثقافة (كما كان الحال بالنسبة لأبولي مادور) وإلى الثروة مثل الدخول فى الطبقة الفردوسية لألبوس تيميميموس مادور « صبر فى العمل واقتصاد وبقظة وقناعة، فإنه قد جمع إلى ثروته ثروة لايسهان بها وأدخل سلالة الفقيرة فى الطبقة الفردوسية ». لقد تمكن بعض الأفارقة من الدخول إلى مجلس الشيوخ، حتى قبل آل سيفير وفى عهد سيفير وكاراكالا كان 15٪ من أعضاء مجلس الشيوخ أفارقة.

لقد طبعت البرجوازية إفريقيا بنشاطها. يظهر أن أساس ثرائها كان الأرض. ففسيفساء شرشال وفسيفساء قطاف العنب مثلا تكشف عن ذوق حقيقي وروابط أكيدة بين الإستقرارية والأرض. كان الثراء (الذين يبلغون نصابا معيناهم الذين كانوا يدخلون الكورى ويصبحون ولاية) والثقافة يسمحان بممارسة سلطة معينة. إذا كان على القضاة والقساوسة والأعضاء البلديين حين يتقلدون شرفا أن يدفعوا واجبا ماليا، والبعض يقيم نصبا، ففي جميلة مثلا بني السوق من طرف آل كوزيني، وفي نيمقاد سوق آل سيرتيوس؛ يترجم بناء المعابد ونصب أخرى فائضا في الثروات مستثمرا في سياسة البذخ، وعلى الأقل ثروات بعض الطبقات. إن ظاهرة التمدين، ببناءاتها الهامة لترجم إذن ثروة حقيقية وفي نطاق كبير من العلاقات بين الأرض والمدينة.

هذا الثراء وهذه المدن كانت تترجم رفاهية أقلية من الإستغلال الإقتصادي للبلاد إغنت، والتي إستفادت من عمل جمهرة البربر الكبرى. لقد كانت ترمز إلى إلى غنى الملاك، حيث الكثير منهم كان لا يقطن حتى في إفريقيا.



الميدان (هيون)



قوس كاراتاكالا. (جميلة) نصب مكرس لكاراتاكالا
الإمبراطور الشعبي بسبب كونه أصيل إفريقيا

شاهدة قبر نوميدي مرومن

النقش : Inscriptions latines de l'Algerie (tome I, n° 2. 856) Aemil (ius) :
Cilo, Musavis (fillius), musulamus v (ixit) a (nnis) LXXV.

الترجمة :

قربانا للآلهة مانيس ايميليوس موزافيس الموزولام. عاش 85 سنة.

شاهد قبر بريسيليوس صائغ سيرتا

« أنا الأبكم الآن أروى حياتي في هذه الأشعار، لقد تمتعت خلال مدة طويلة بالأشعة البراقة. لقد كنت بريسيليوس، مواطن سيرتا، أين مارست حرفة صياغ. كنت دائما شريفا مخلصا. كان لي نفس الود لجميع الناس، كما شفقت على الجميع. عشت مبتسما عيشة مريحة مع اصدقائي الأعزاء. بعد وفاة السيدة الطاهرة فاليري، عشت عيشة لذيدة ونقية مع زوجتي. احتفلت بذكرى المولد السعيد مائة مرة بكرامة. لكن يأتي اليوم الذي تغادر فيه الروح الأعضاء المضعفة. شاهدة القبر هذه التي تقرأها حضرناها في حياتي لعماتي المفاجئة في الساعة المختارة من طرف الحظ الذي لم يتخل عني أبدا. اتبعوني كما كنت. انني انتظركم هنا ففعالوا. »

Cité par A. Berthier, LiAlgerie et son passé, pp. 89 - 9

أفارقة مشهورين

أفارقة آخرون نجحوا في حياة الوظائف العامة نجاحات فعالة أو ساطعة. فابتداء من عهد تيتوس (79 - 81) وصل الى القنصلية أحد الأفارقة، باكتيميوس أصيل سيرتا. وفي القرن الثاني كان المورى لوسيوس كيتوس من أحسن ضباط تراجان، ولوليوس من ضواحي سيرتا، كان عاملا لروما، كان انتيستوس أدفانتوس وهو من المدينة الصغيرة نيبيليس (عمونة اليوم، بين قسنطينة وقالمة) قنصلا ومكلفا بقيادات هامة، وأصبح اخوه، وهو قنصل أيضا، المارك - أوريل، فكسب الكثير من النفوذ لدرجة أن ينتقد كومود في ضرورة قتله، باعتباره مشكوكا في طموحه الى الإمبراطورية، قاد

أفريقي آخر هو توليوس جيش إسبانيا. كان الكثير من الفرسان ذوي الأصل الإفريقي ضباطا وولاة في المصالح المختلفة للإدارة الإمبراطورية؛ أدرك العديد منهم الوظائف العليا ذات المرتبة الخيالية.

تحقق الغزو الأسمى في 193، حين أصبح أحد الأفارقة، سيبتيم سيفير، إمبراطورا. كان من ليبتيس بطرابلس، وكانت عائلته مرتبطة جدا بأفريقيا، في حين كان جده خطيبا ذائع الصيت في روما، ابتداء من نهاية القرن الأول، بعد حياة إدارية جميلة وحياة عسكرية، وصل سيبتيم سيفير، بفضل حيويته وتأثير فرقه العسكرية، إلى سدة الإمبراطورية منتصرا على منافسين كان بينهم أفريقي آخر، هو كلوديوس ألبينوس من سوسة. كانت فترة هامة في تطور المؤسسات الرومانية تلك الثمانية عشرة سنة التي دامها عهده (193 - 211) : فقد خفّض من دور مجلس الشيوخ بشكل حاسم، ومن دور أرستقراطية دافعي الضرائب والوراثية عمليا، ووسع في دور الرجال الجدد المنحدرين من الجيش أو الوظائف الإدارية. خرجت من زواجه بسورية مملكة منها ثلاثة حكموا بعده : كاراكالا (211 - 217) وإيلاغابال (218 - 222) وسيفير ألكسندر (222 - 235). بين كاراكالا وإيلاغابال أقحم الحكم القصير (217 - 218) لأحد المغتصبين، هو ماركين، الإمبراطور الأول الذي لم اختياره من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وجدير بالملاحظة أن ماركين كان أفريقيا كذلك وفارسا أصيل شرشال.

E. Albertini, L'AFRIQUE DU NORD FRANÇAISE DANS L'HISTOIRE, Paris - Lyon, 1955, pp. 90 - 92.

إهداء إلى الإمبراطور أوريليوس أنطونينوس

(كاراكالا) عثر عليه في سيف (متحف وهران)

النقش : [Imp (eratoris)] Caesari [Marco A] urel(io) Anto(nin)o :
pioaug(usto) [L. (ucii) Sept]l(imi) Severi pii [Pert(inacis)A]ug(usti) ar(abia)
a(dia) enici... [folio] M V. L...

الترجمة :

إلى الأمبراطور قيصر ماركوس أوريلوس أنطونينوس الورع ، أغسطس
بن ل. سيبتيمون سيفيروس الورع ، بيرتيناكس أغسطس العربي الإديابيني ...
مولد ...

الفصل الثاني عشر

الرومنة (تابع) المسيحية الأدب النوميدي
الموريطني

في نطاق كون المسيحية قد ارتبطت بالاحتلال الروماني وكون الكنيسة الرسمية قد إنتهت إلى البحث عن حماية الإمبراطورية، يمكن إعتبار الرومنة والمسيحية قد إنتهتا إلى التناظر دون التساوي. لم تكونا كذلك دائما : فقد كانت الكنيسة لمدة طويلة مضطهدة، قبل أن تكون معفوة عنها ومحمية من طرف الإمبراطورية. كان لأوائل المسيحيين موقف معادي للإمبراطورية وإرادة حقيقية في الإستقلال الذاتي يعبر عنها التنظيم الكهنوتي. ولقد تمكن البربر من الانخراط في الدين الجديد معبرين عن عداوتهم لروما. يمكن أن تطرح المسألة نفسها بنفس الشكل فيما يخص الأدب النوميدي - الموريطني : فقد إستوعب بعض البربر الثقافة الرومانية وكتبوا باللغة اللاتينية، لكن هذا الأدب ذا التعبير اللاتيني ألا يعكس روحا إفريقية ؟

المسيحية

إن إحتلال أورشليم من طرف تيتون (70 بعد الميلاد) قد دفع العديد من اليهود إلى الإنتشار في العالم المتوسطي. فنشرت الطوائف اليهودية فكرة دين توحيد في إفريقيا، والعديد من أفرادها هم الذين إستقبلوا المبشرين بالمسيحية. إنتشر الدين الجديد في المدن على الخصوص. تواجدت كنائس في نوميديا وموريطانيا إبتداء من القرن الثاني. كانت الكنيسة الإفريقية تضم حينذاك مائة سقف. لم تكن المسيحية الدين الرسمي، فقد كانت مضطهدة من طرف روما. وتبناها العديد من البربر أيضا، معبرين بذلك

مواجهة روما حينذاك

في حوالي 248 إنتخب القديس سيرياس Saint Cyprien أسقفا لقرطاجة، إنه هو الذي نظم الكنيسة الإفريقية. فأشغال المجمع الديني في 256، الذي شارك فيه 87 أسقفا إفريقيا، تسمح بتأكيد تقدم المسيحية. كاتب سيرنا وميلوف وكويكول وتيفاست وباغاي وتاموقادي ولاميزيس وبادياس المقرات الرئيسية لأسقفيات نوميديا. وفي الغرب كانت هناك أسقفية سبتيفيس وأسقفيات أوزيا وتيبازا وقيصرية. تميز توسع الكنيسة بأهمية البناءات الدينية كذلك. والأكثر لفتا للانتباه هي كنائس تيفاست وهيبو وتيمقاد وتيبازا. ونشير كذلك إلى وجود العديد من البناءات المنعزلة في الضيعات وحصون الليمس والكنائس الدوناتية المتزايدة في الأرياف الأكثر بعدا. كان تيرتوليان Tertullien يؤكد أن المسيحيين يشكلون أغلبية بالمدن في بداية القرن الثالث : يخبرنا مؤلفهم أن المسيحية في الأرياف كانت أكثر أهمية كذلك. لهذا لم تحل مسألة الدين الجديد وأنه لمن الصعب أيضا تقدير عدد البربر المسيحيين والأكثر من ذلك نوعية هذه المسيحية المنهكة بالإضطهادات والإنقسامات واستمرار العادات الوثنية.

لقد عاشت كنيسة إفريقيا كثيرا من إضطهادات كومود (80) وإضطهادات ديسيوس (250) بالخصوص. لقد أضحي عدد المتمردين Lapsi أكبر من إعتبار الارتداد يجر إلى توبة دائمة. وقد وافق كذلك شهداء، رغم إرادة الأسقف، على أذونات لإدماج المرتدين من جديد في حظيرة الكنيسة. هاجم فاليريان قمة التنظيم وفي 258 أعدم القديس سيريان. كان أعنف إضطهاد هو إضطهاد ديوكليتان، فقد أراد هذا الأخير تقوية الوطنية بالعودة إلى الديانات الوطنية وإلغاء الديانات غير المثولة ومنها المسيحية. وفرض عبادة الألوهية على الجيش، حينئذ أصبحت الكنيسة معادية للعسكرية. ففي تيفاست أجاب أحد المجندين : « لايمكنني أن أخدم الجيش، لاأستطيع أن أفعل الشر فأنا مسيحي. لايمكنني أن أخدم الجيش. إقطعوا رأسي إني جندي الله لاأستطيع أن أكون جندي الدنيا فقد قلت لكم ذلك، إني مسيحي ». وقطعت رأسه. أمرد ديوكليتيان (284 - 305)

بإتلاف الكتب المقدسة، وسلم العديد من الأساقفة الكتابات إلى السلطة، مفضوحين هكذا بإسم « مسلم ». لقد إنقسمت الكنيسة، ستكرس الدونانية هذا الإنقسام.

الأدب النوميدي - الموريطني

كان للأدب النوميدي منذ القرن الثاني والموريطني منذ القرن الثالث، ككل الأدب زيادة على ذلك، تقاليد وفنه الخاص به. أثبت الأفارقة أنهم طلبة جيدون. فبعد أن يتابع طلبتنا دروسهم، وكانت هناك مدارس جيدة للقواعد في المدن الإفريقية، كانوا يتجهون للبحث عن تعليم عال في الحواضر الكبرى في حوالي سن السابعة عشرة والثامنة عشرة. كما كان الموريتزودون بالثقافة الهلنستية في قيصرية، وعرفت مدارس سيرا وتيفاست ومادور زمن شهرتهم. لقد كان شباب موريطانيا ونوميديا المثقفون يسرعون لإتمام دراستهم بمدارس قرطاجة أو بالأحرى يسرعون ليتعلموا على يد المعلمين الأفارقة : فرونتون، وأبولي وأرنوب ولاكتانس وتيرتوليان وسيريان وأوغسطس.

لقد استوعب المؤلفون الأفارقة الثقافة الكلاسيكية كثيرا، ولكنهم لم يأخذوا إلا ما كان يتلاءم مع مزاجهم. خطباء كلهم تقريبا، لكنهم كانوا خطباء إفريقيا المحافظين على ذكرى لغة البلاد « تحية غير واعية للأسلاف البربر ». الشيء الذي كان يميز الكاتب الإفريقي عن الكاتب الروماني هو أن الكاتب الإفريقي يرث مزايا وعيوب الأجناس الإفريقية القديمة : الخيال الخصب والحساسية المؤثرة وروح المبشر والباحث عن الإقناع والهدى. والكل يترجم في أسلوب تأخذ فيه الصورة والغلو والمبالغة مكانة كبيرة. أما الروابط بين المؤلف والبلاد فصريحة.

المؤلفون الوثنيون

قائمة المؤلفين الوثنيين الأفارقة كبيرة. الشاعر مانيليوس مؤلف Astronomiques، وهي نوع من الأبحاث في التنجيم شعرا، الخطباء كورنوتوس من ليتيس، وفلوروس الكاتب الإفريقي الأول الذي لازلنا نملك له مؤلفات لاتينية نثرا، وفرونتون الفصيح الذي يعتبر كسيبيرون آخر، وأبولينير قرطاجة

النحوى العلامة الموهوب، وأبولي الذي أدركت افريقيا معه عبقرينه الأدبية. اثنان من بين هذه الأسماء الكبيرة كانا أصيلي نوميديا : فرونتون سيرتا وأبولي مادور.

فرونـتون FRONTON

فرونـتون « الخطيب والقنصل والمعلم لأمبراطورين » كان في وقته في المرتبة الأولى بين الكتاب. ولد في سيرتا، في بداية عهد تراجان، ودرس في نوميديا ثم تابع دروسه في قرطاجة وفي روما بعد ذلك. نجح نجاحا باهرا ودخل مجلس الشيوخ وهو صغير جدا، وكان عشرين ثلاثة أباطرة، أدهش المدنيين والسياسين بفصاحة خطبة وبمرافعاته. ولم يبق من خطبه إلا بعض المقاطع، حيث الكثير من مؤلفاته المحفوظة غير كامل. في عمله، الذي يعود كلية الى الفصاحة، فإنه لم يوجد إلا بالخطابة وللخطابة. فظل خطيبا افريقيا حتى نهاية، وكتب يوما الى الإمبراطورة : « انني باربار ... وانني لبيبي ومن دين اليبين البدو ». قال عنه مونصور : « مرة أخرى، كان يتهل بأبهة الى الآلهة الأهلية، لهامون والآلهة الليبية، ونعلم من مينوسيوس فيليكس بأن حديثه ضد المسيحيين كان له دوي قوي في قدم الأطلس. في طبعه سمات افريقية : مغالاته المفرطة، كثرة تعلقه المسرحي بمارك - أوريل الذي صرح أنه يقبله حتى في المحلم، عادته في تفخيم حمايته، والمباهاة جهرا بعقائده الدينية، طلاقة لسانه المستفيضة حين يتكلم عن نفسه، وصراحته الفظة التي لا تعفي حتى الأباطرة. هذا الطبع الإفريقي يكتشف في اللغة أيضا : مزيج من الكلمات الهلنستية القديمة، ومن الكلمات الشعبية، وتلك هي اللاتينية التي كان ينطق بها منذ مدة قديمة في نوميديا كما هو الشأن في قرطاجة. ».

أبولي مادور APULEE DE MADAURE

ربما هو أكبر كاتب لإفريقيا، ومؤلف بلاد مولده الأثير، فقد رسم أبولي طريق الأدب الإفريقي. كان أبولي فخورا بأصوله، وفخورا بملدوره، أين رأى النور حوالي 125.

مثل الكثير من المؤلفين، فبعد ان درس في مادوروفي قرطاجة اكمل دراسته برحلة في اليونان الى اثينا أين قال : « لقد شربت كل الأقداح ». لكم كان تعطشه الى المعرفة كبيرا. رحل الى الإسكندرية كذلك لكنه توقف في أويا OEa (طرابلس) أين استقبل من طرف عائلته أحد أصدقاء الدراسة، بونتيانوس. وانتهى بالزواج من والده هذا الأخير، الأرملة بودونتيا. ولما كانت غنية فإن أعداء أبولي قد اتهموه بالالتجاء الى السحر للاستيلاء على قلب الأرملة. فدافع عن نفسه في هذا الشأن بمرافعة ماهرة Apologie (التبرير). مستقرا بعد ذلك في قرطاجة؛ فقد مارس وبنفع مهنة محامي وطبيب وفيلسوف وعالم وخطيب وشاعر روماني... من جهة أخرى، كان يتباهى بكفاءاته : « انني أنظم أشعارا من كل نوع وأبياتا مصحوبة بالقيثارة مع القوس، وبالرباب مع الأصابع، وأبياتا تطابق السحابة أو الكوثرن. هذا قليل : هيجاء، والغاز، وقصص مختلفة، وخطب مفخمة من طرف الرجال الفصحاء، ومحاورات ممدوحة من طرف الفلاسفة، انني أكتب عن كل شيء وذلك باليونانية وباللاتينية، ودائما بنفس الرضى عن الذات، وبنفس الحماسة وبنفس النجاح. ».

ضاع الجزء الأكبر من أعماله، وبقي لنا الاستحالات-Métamorphoses، ومجموعة النباتات Florides والتبرير، وبعض مقالات الفلسفة البحتة. ترك كعالم كتابا في علم الحساب وآخر في الفلك، ومؤلفات حول الفلاحة، وكتابا ضخما مسائل طبيعية Questions Naturelles حول الأسماك، وأبحاث طبية. Recherches médicales لازال لدينا كتابه حول اله سقراط، Le Dieu de Socrate، وكتابه عقيدة افلاطون، Doctrine de Platon، ودراسة العالم Taraité du Monde. لكن شهرته تعود الى فصاحته. فروايته الاستحالات المكناة حمار الذهب أثارت الإعجاب الحماسي لقرائه. إنها نوع من الرواية ذات التدرجات في حلقات عديدة جدا ومتنوعة جدا حيث الإطار توفره مغامرات رجل استحال حمارا. إنها مجموعة من الخرافات المؤرخة التي كانت شعبية جدا في القديم. يقدم لنا أبولي مجموعة من الحكايات الخلافة جدا بعضها منحوت بدقة. اينما حلّ غيره يلاحظ أبولي المظهر الطبيعي والمجتمع يقدم لنا ألف مخطط لعادات عصره. لقد شخص أبولي، العبقرية الأدبية لبلاد مولده.

المؤلفون المسيحيون

لاكتانس LACTANCE.

مهما إنقاد لاكلانس بحياته المهنة بعيدا عن بلاد مولده، فإنه بظل إفريقيا بمولده وبتربيته وبعض سمات عمله. يفيدنا نقش بأن عائلة كاتبنا قد كانت أصلية سيرا. سيولد في حوالي 250. كان عليه أن يعلم في إفريقيا قبل أن يشتغل في نيكوميدي. وأقام كذلك في بلاد الغال.

عمل لاكلانس عمل معتبر ومتنوع، فلنذكر كتبه : ال Symposim أو الوليمة، ال Grammatius مؤلف حول النحو أو علم العروض. ضاع العديد من مؤلفاته : مقالات الجغرافيا، والنحو، والفلسفة، لقد حاول أن يحصل حتى على مجد الشعر. في ال De Mortibus يبدو ولاكتانس مؤرخا، ويقدم معلومات نادرة حول السنوات الأخيرة من القرن الرابع، حول الإضطهادات ودور ديوكليتيان. يشتمل عمله التبريري والفلسفي على ال Divinae instotutionnes (الأنظمة الإلهية) في خمسة كتب، وال Epitome أو ملخص الأنظمة الإلهية، كتيبتي De opificio Dei و De ira dei. كان لاكلانس يعرض في عمله التبريري مذهبا، مذهب درجات المعرفة. التقدم نحو الحقيقة عبر مجموعة من المراحل : انكار الشرك، ثم الإنظام الى الوحدانية والمجاهرة بالمسيحية. كان لاكلانس يثبت أيضا بطلان الشرك، ووحدانية الله وعدم كفاية الفلسفة وضرورة دين وحقيقة المسيحية. يميز التوفيق بين العقل والإيمان كل عمله.

القديس أوبتا

أوبتا المولود حوالي 320 هو أصيل ميلوف (ميلة)، وقد كان اسقفها في الثلث الأخير من القرن الرابع. أنه نوميدي، وكان يهتم بكل ما يمس نوميديا و « غطرسته الإفريقية يسخر من الأصل الأجنيبي لبارمينياس، وهو لا يغفر لمنشقي البلاد ارادتهم في اختيار اسباني أو غالي رئيسا. تبدو هذه الوطنية الإفريقية والمنتحيزة بهذا. القدر مقتصرة لديه على أبعاد وطنية نوميدية أحيانا ». والقديس أوبتا هو أقدم ممثل للأدب اللادوناتي. قال Libri Optati (كتب

أوبتا () ، والمعروفة أيضا تحت العناوين Contra Dchismate Donatistarum أو Parmenianum تشكل العمل الأساسي لأوبتا ضد الدوناتيين. وكان أول من طرح مسألة شرعية الإنشقاق بوضوح. فأوبتا مشهور كمؤرخ كذلك ، حيث أجهد نفسه لإعادة بناء تاريخ الإنشقاق مستعملا المؤلفات المتعلقة بالدوناتية بأسلوب علمي : المعطيات التقليدية والشهادات المعاصرة. لقد كان أوبتا مجادلا. كذلك والتاريخ بالنسبة له كان سلاحا ضد الكنيسة المنشقة. في شكل رسالة بارمينيانوس ، يقدم لنا أوبتا نوعا من المحاوراة بين دوناتي وكاثوليكي ، أن مؤلفه ، الذي هو شكل من أشكال الحوار المتناقض ، هو أقدم كتاب من هذا النوع. مجادلا أثبت براعته في اتقاء الضربات ظالا على الإخلاص والدقة دائما. في مواجهة اتهامات الدوناتيين قدم براهين حسب الأصول. رغم ذلك ترجم الوقائع بطريقته الخاصة حين نفى مسؤولية الدولة في الإضطهادات. فقد وافق على إجراءات الإكراه لإقامة الوحدة من جديد والنضال ضد أهل البدعة. كما وافقت الكنيسة حينذاك على طلب تدخل الإمبراطور في الشؤون الدينية.

كان أوبتا المجادل والمدون للوقائع والكاتب الموهوب مشهورا في زمنه. لقد كان نذير ومعلم أوغسطين.

بيتيليانوس قسنطينة PETILIANUS DE CONSTANTINE

بيتيليانوس ، الوجه الأقوى للكنيسة الدوناتية ، في زمن أوغسطين ، كان اسقفا لقسنطينة خلال فترة الصراعات الكبرى بين الكنيستين الإفريقيتين. ولد حوالي 365 وكان في أول الأمر مجاميا لامعا ، وخطيبا كبيرا ، ولهذا السبب قرر دوناتيو المدينة أن يجعلوه أسقفهم حوالي 395. فهاجم من اسقفية الكاثوليك ثم الكنيسة الرسمية وكل ممثلها في إفريقيا. خاض مجادلات مباشرة ضد أسقف هيون الكبير. كان خطيبا نشيطا ، وكاتبا ماهرا ، لكنه كان رجل نشاط كذلك. مؤلفاته الرئيسية هي : مقالة نقد ضد الكنيسة الكاثوليكية ورسالة حول الكنيسة الكاثوليكية ومقالة نقد ضد أوغسطين ودراسة إنشقاق الماكسيميانين ودراسة حول التعميد والعديد من الخطب في ندوة قرطاجنة. كان عمله جذابا على الخصوص. فكان بيتيليانوس الخصم الكفء الوحيد

البعقرية هي التي تعوزك؛ لكن قضيتك هي السيئة».

غودنتيوس تيمقاد GAUDENTIUS DE TIMGAD

ولد غودنتيوس حوالي 355 بتاموقادي أحد الأماكن القوية للدونانية. انتخب أسقفا في بداية عام 398 ، فاشتهر بصفة خاصة برفضه المثل لأوامر القاضي العسكري دولسيتيوس الذي كلف من طرف الإمبراطور بتطبيق القوانين المضادة للدوناتيين في نومبديا. فقد إنزوى غودنتيوس في مدينته وصرح أنه يفضل أن يحرق فيها على أن يسلم نفسه. ظهر غودنتيوس في حياته كما في عمله مكرسا نفسه لكنيسته بشكل أعمى، فانتصب يوم القمع « لتأكيد إيمانه، الوقي الخالص في ثباته، عنيدا دائما، عنيدا حتى الموت».

ليست لدينا وثائق لتقييم غودنتيوس الخطيب في ندوة قرطاج ومقدم المواعظ للأوفياء الذين إنزروا معه في بازبليك تاموغادي : « الحقيقة الحقيقة الدونانية، واجب مقاومة القمع، شرعية الانتحار أمام المعذنين والجزاء المحتمل هو اللجنة المفتوحة للشهداء». رسائله إلى دولسيتيوس ورسائله إلى أوغسطين معروفة. وبالإضافة إلى القيمة الأدبية فإن لمؤلفاته فائدة تاريخية أكيدة لدراسة الدونانية ولمعرفة الحياة الإفريقية في تيمقاد.

إيميريتوس سيزاريا EMERITUS DE CAESAREA

كان إيميريتوس خطيبا دوناتيا كبيرا؛ تميز الحماسة والإعتقاد الراسخ والصبر بلاغته. وهو معروف بأعماله ولكنه معروف بشهاداته أوغسطين بصفة خاصة. كان في قيصرية، المولود بها حوالي 350 ، أسقفا دوناتيا ابتداء من 385. بعد مجمع باغاي في 384 اعتبر قائدا للحزب الدوناتي في موريطانيا. وكانت سمعته متينة بقدر تحاول معها أوغسطين أن يدخل في علاقة معه وأن يجره إلى محاوره، لكن بدون جدوى. هناك منه خطب بصفة خاصة؛ الـ Sentencia (الحكمة)، المحررة في 394 لمجمع باغاي، والخطب الملقاة في ندوة قرطاج والعظات الملقاة بعد هذه الندوة. كان الخطيب يبدو من خلال هذه الأعمال محاميا داهية وغير موجز أبدا في قرطاج حيث كان

واحدا من المحامين السبعة المفوضين من الحزب الدوناتي صمد لهجومات أوغسطين. واصل وهو المهزوم المبعد النضال محتجا ضد قرار قرطاجة وضد أمر الاتحاد، إلى غاية ندوة قيصرية أين رفض أن يردّ، تطوعا أم لا، على إنتقادات وتهكمات أحد الأوغسطين الظافرين.

القديس أوغسطين SAINT AUGUSTIN

ولد في 354 بتاغاست (سوق أهراس)، وتوفي في 430، ينتمي أوغسطين إلى « العصر الذهبي لآباء الكنيسة ». وطنه هو إفريقيا بكل ما تمثل من « روابط مادية، وعاطفية وروحية ». كما يعود طبعه العنيف والحماسي إلى إفريقيا. درس في تاغاست، ثم في مادور وقرطاجة. كلا لم يكن طفلا نموذجيا وإنما كان ولدا صغيرا مثل الآخرين. عاش عيشة جد حرة وكانت له في الثامنة عشرة من عمره عشيقة. فحطمت أمه المسيحية المحتدمة علاقته هذه أمضى ثلاث سنوات حاسمة بعيدا عن وطنه : في روما وفي ميلان وفي أوستي. لم يعمد أوغسطين إلّا في سن الثلاثة والثلاثين عاما، ويمثل في الكنيسة النوع المهدى زيادة على ذلك.

عائدا إلى البلاد، فكرس نفسه لوطنه ومخصصا له ألمع نشاطه. قضى ثلاث سنوات في تاغاست متقاعدا؛ في 1391 إنتخبه شعب هيبون عرافا وفي 395 خلف فاليريوس أسقفا. بعيدا عن الإستقرار في عاصمتها لم يتوقف أوغسطين عن أن يجوب إفريقيا بهدف التنصير ومواجهة حجج خصومه بأدلة خلال البدوات والمجادلات. كان بطلا مسلما به في هذه المباريات فأصبح أوغسطين مشهورا جدا. كان يحكم بالعدل ويقوم بدور القاضي أحيانا. فيتدخل في كل ما يهم شعبه : الإدارة والتحكيم والعمل الخيري ودون التخلي عن الحياة الداخلية والسامية للعقل. وكان يحتفظ بمهمته لخدمة شعبه، راجعا بدون ملل الى فكرة : « أن الأسقف وجد ليعلم لا ليستعيد، وليكون عند الأقدام لا على الرأس » وأنه لمع الشعب بوجود الأسقف عند أقدام الأسياد. كان كاتبا وخطيبا من الدرجة الأولى. ثبت صيغه في زبور أبجادي مع العديد من المقالات التي رفضت المسائل الدوناتية ومسائل بلاج Pelage الذي كان بصر على أن الإنسان يستطيع أن يصنع خلاصه بنفسه دون عون

من النعمة (الالهية). العمل الأدبي لأوغسطين وفير، فهو بملأ أربعة عشر حجماً من ال Patrologie latine لمينيات Mignet . وتنوع هذا الانتاج مدهش، فكل الأنواع الأدبية للعصور القديمة ممثلة، وكل الفروع الثقافية مطروقة. هناك مؤلفان بارزان؛ مدينة الله أين يقارن أوغسطين مدن الأرض الزائلة بمدينة الله الخالدة، بمدينة الله الخالدة، والإعترافات، المؤلف المتعلق بالسيرة الذاتية أين يظهر نفسه كما فعل « رجل سلّم نفسه لقواه الخاصة، لخطاياها ».

لا الأريوسية سلمت منه ولا المانوية. فقدم هاجم أوغسطين الديانات الوثنية واليهودية. وكانت الدوناتية بالنسبة لأوغسطين « المحنة العظمى بالنسبة لخدمته الكهنوتية ». أن تحليل موقف أوغسطين لأكثر حساسية من الدوناتية التي كانت تظهر غموضاً خطيراً، غموضاً يعود الى التشابك المعقد للعناصر السياسية والعناصر الدينية التي وجدت نفسها مورطة في هذا الانشقاق الإفريقي. لقد حاول أوغسطين في أول الأمر أن يقدم حواراً مع زملائه الدوناتيين، محاولاً لاتصال بدل القطيعة. ولكن، خشية من بلاغة أوغسطين، تجنب القيادة الدوناتيون الحوار « وحدة الكنيسة، وكاثوليكية الكنيسة هكذا بدت لأوغسطين المسألة الحقيقية المطروحة من نواجد كنائس مختلفة ». رجل النشاط الشجاع وعالم اللاهوت الشامل هو الذي ناظره أوغسطين الى أقصى حد، وكانت تكيفه دزينة سنوات لأن يجعل الكنيسة الكاثوليكية تنصرف. لقد اكتمل ملفه الشيء الذي انجزه مؤرخ جيد استعمل فيه علم اللهجات « أنه كان يعالج مسألة من مسائل الحقوق كمحامى روما، ومسألة تأويل كأحد دكاترة الاسكندرية. وكان يبرهن كأحد فلاسفة أثينا، ويعقوب وثيقة أرشيف كالأكثر بحثاً من المؤرخين. ويروى نادرة كأحد برجوازيي قرطاج، ومفخرة دواوين كعامل في ميناء هيون... ليس هو صاحب الخبر ربما، وليس قادراً على أن يكون فعلاً كمحامى، فإن أوغسطين قد حمى كنيسته المهاجمة من الدوناتيين. لقد صاغ مبدأ مريعا « الإرهاب » النافع وبرا قهر الدولة ».

الجندي المسرح تياسيوس

استجواب الجندي المسرح الذي لم يقبل بخدمة الجيش أبدا والذي استشهد في 298 بيتغافا في ناحية قيصرية.

- الكونت كلوديوس يقول لتياسيوس : « ماأسمك؟ وماتفعل؟ ».

- اسمي تياسيوس. انني جندي مسرح. الآن أخدم المصلوب (Christ) في السابق كنت اخدم الدنيا ».

- يجيب تياسيوس : « أنه ليس سواد الحداد، فلباسي في الحقيقة أبيض. عندما يلبس المسيحيون نسيجا رديئا، فذلك في سبيل الحصول على الغفران، لخطيأهم. يقرأ في الكتابة : « سعداء هم الذين يكون، لأنهم سوف يحصلون على العزاء. »

- الكونت كلوديوس يقول : « دع عنك هذه الحماقات. امثل لأوامر الأباطرة وعد الى راياتنا الظافرة. ».

: يجيب تياسيوس : « لأحد يعود الى المعركة، بعد الظفر. أنا هزمت الدنيا؛ أنا مجند بين خدام المصلوب، انني جندي المصلوب، انني أخدم المصلوب واذا أردت أن تعاقبني بقسوة فللمصلوب سأتعذب ».

: الكونت كلوديوس يقول : « ألا تعلم أن الفارين من الجيش الذين يغادرون الرايات يلقي لهم الى الحيوانات ».

- يجيب تياسيوس « أنا، لست فارا من الجيش. كما يعلم كل مواطني، فاني قد خدمت دون أن استحق العتاب. لقد استلمت اجازتي المشرفة مع تهاني الإمبراطور ماكسيميان ».

: الكونت كلوديوس يقول : « كنت قد سرحت بقوانين الإمبراطور؛ لكن الإمبراطور يستطيع أن يغير ما كان قد أمر به. قلت أنه هو الذي وافق على اجازتك المشرفة؛ انه هو نفسه يأمرك الآن بواسطة قرار من الوحي الإلهي بالعودة الى الخدمة مع كل الجنود المسرحين. ».

: يجيب تياسيوس : « أنا جندي المصلوب. لاأستطيع أن أخدم تحت أوامرك »

: الكونت كلوديوس يجيب : « ضَعْ لِلآلهة ».

: يجيب تيباسيوس : « أنا أقدم تضحية المجد للمصلوب ؛ مجده دائما في فمي أما بالنسبة لأوثانكم الخشبية فاني لن أعبدتها » .
: كلوديوس يقول : « انني لا أدري أى قرار ميؤوس منه اقتنعت به للاستخفاف بأوامر أمباطويينا ، افعل ما أمرك به الأوغسطيون أباطرتنا ، عند الى الخدمة والآن فإن عبرة موتك ستعلم الفارين من الجندية ما يخشونه » .
: يجيب تيباسيوس : « لقد قلت لك بعد ، انني جندي المصلوب . انني لا أستطيع أن أعود الى حياة الدنيا » .
يقول الكونت كلوديوس : « ماجدوى الأقوال ؟ ليوضع له النطاق ، ولتعط له الأسلحة » .

Pau, Monceaux, la craie légende dorée dorée, Paris, 1928, pp. 263 – 265.

وطن أبولي

أما بشأن وطني فانكم قد تذكرتم ، حسب كتاباتي الخاصة ، أنه كان يوجد على حدود نوميديا وبلاد الجيتول نفسها . لقد صرحت بالفعل ، في ندوة عامة بحضور اوليانوس أفيتوس ، انني كنت نصف نوميدي ونصف جيتولي . ولكنني لا أرى أن هناك شيئا آخر بالنسبة لي أكثر خزيا مما هو عليه كوروس القديم لكونه من دم مختلط نصف ميدي ونصف فارسي . اذ يجب الى مكان مولد الفرد بل يجب النظر الى طبع ؛ لا في أى بلاد لكن ما يجب اعتباره هو على أية أسس يرتكز وجوده . من المقبول وبحق أن يتكلم بائع خصر ، وبائع خمر عم المزدرع لوضع سعر مرتفع لخضرهما ولخمرهما . فيقال خمر تاسوس وخضر فليونت . فمجاويل الأرض هذه تكتسب طعاما أكثر لذة من خصوبة البلاد ، ومن رطوبة المناخ ، ومن لطافة الأنسمة ، ومن النشاط الخيري للشمس من سخاء التربة . ولكن بالنسبة لروح الانسانية ، هذه الأجنبية التي تأتي لتقيم في الجسد كضيف عابر ، ماذا تستطيع هذه الشروط أن تضيف اليها أو تزرع فيها شيئا من فضائلها أو عيوبها ؟ ألم يشاهد أنه في كل عصر تنتج كل الأجناس عبقریات مختلفة ، مع أن البعض منها تبدو متميزة أكثر بالغباوة أو الذكاء ؟ أنه لعند السيت ، القوم السمان ، ولد الحكيم أنا رشارميس ؛ لدى الأثينيين النبهين ولد ميليتيديس الأبله .

حول مواهب الجنس البربري وفضائله النبيلة

لنذكر بعد ذلك الفضائل التي تعتبر شرفاً للرجل والتي أصبحت طبيعة ثانية، تسارعهم إلى اكتساب خصال حميدة، نبيل الروح الذي يجعلهم في مقدمة الأمم، الأفعال التي استحقوا بها ثناء الكون، بسالة وحيوية الدفاع عن ضيوفهم ومواليهم؛ الوفاء بالوعود والالتزامات والمعاهدات، الصبر عند الشدة، الحزم في البلاوى الكبرى، لطف المزاج، التسامح أمام أخطاء الغير، الغزوف عن الثأر، الطيبة تجاه التعساء، إحترام الشيوخ والأتقياء، التسارع في إغاثة المعوزين، مهارة، ضيافة، إحسان، شهامة، بغض الجور، القيادة الأخلاقية التي كانت تبذل ضد الإمبراطوريات التي كانت تهددهم، الانتصارات المحققة على أمراء الأرض، الإخلاص لله ولدينه، تلك هي، بالنسبة للبربر، مجموعة من الخصال المشهورة وهي صفات مروثة عن أسلافهم حيث عرضها كتابة يمكن أن يكون مثلاً للأمم اللاحقة.

Iben Khaldoun, Histoire des Berbères, Paris, 1925, Tome I, pp. 199-200.

هذا لا يعني أنني أخجل من وطني ولو مازلنا مدينة سيفاقص. لكن بعد هزيمة هذا الأمير، نقلنا فضل الشعب الروماني إلى تحت سيادة ماسينيسا؛ لقد ذلك أنشئت حاضرتنا من جديد من إقامة الجنود المسرحين؛ ونحن الآن مستعمرة مزدهرة. في هذا المستعمرة شغل أبي الصف الأول من الدومفيرة duumvir بعد أن مر على كل التشريفات؛ منذ أن أصبحت اتعي إلى المجلس البلدي، فاني أحتفظ بوضعيته في الدولة، دون الحياد عن الطريق، مكرماً معتبراً، اتعني ذلك.

لما كل هذه التفاصيل؟ انها من أجل تسكين غيظك يا ايميليانوس، وبالاحرى للحصول على عفوك، اذا لم أكن قد اخترت موطن دقة التغيير وهذا ربما خطأ، فان ذلك من أجل مولد زارتك Zarath.

Apulce, Apologie, Collection Guillaume Budé, 1960, pp. 29 – 30.

الفصل الثالث عشر

نهاية روما

ترومنت نوميديا وموريطانيا بدرجة أقل مما ترومنت المقاطعات الأخرى كالبروقنصلية وبلاد الغال مثلا. إذ لم يبلغ النفوذ الروماني سوى الساحل والسهول، ولم يلمس تقريبا سكان الجبال وسكان الصحراء. لقد شاهدنا البربر أنهم كانوا باقين على وفائهم لملابسهم وأدواتهم وممارساتهم الجنائزية وآلهتهم. كانت القبائل المستترفة من طرف الموظفين الرومان تنتظر اللحظة المواتية لكي تنتفض. ولما بدأ الصرح الروماني يتحطم أراد حنى البربر المرومنون أن يخلعوا عنهم نير الأجانب. بمعنى كم كانت الرومنة سطحية.

اكتست الأزمة مظاهر عديدة : سياسية بنظام قائم منذ 238 على ارادة وقوة الجيش الذى كان يضع ويخلع الأباطرة؛ اقتصادية بانخفاض العملة وعدم استقرار الأسعار وارتفاعها، والمصادرات التعسفية للمحصول؛ اجتماعية بتفوق اريستقراطية عاطلة مستغلة لعبيدها بل ولصغار ومتوسطي الملاك أيضا.

وهى النظام الروماني

كان الأباطرة المشغولون بالصراع مع الطامعين الذين كانوا يسعون لخلعهم وبالدفاع عن حدود الإمبراطورية المهددة من البرابرة، وبمقع واضطهاد المسيحيين، لا يتمكنون من فرض احترامهم في المقاطعات؛ لم يكن الموظفون يمثلون ولم يمثل لهم. فكان البربر يشاهدون الإمبراطورية وهي تتصدع. فهذه الفوضى تفسر الى حد ما الهجوم البربرى. لم يكن

المدينون الايطاليون صالحين ، عند التجنيد ، الا للاختلاف وراء أسوار مدنتهم ؛ والدفع بالمسرحين الى الحكومة لاتمام الخدمة العسكرية. ولما كانوا أقل استعداد لخدمة الجيش فانهم قد أصبحوا غير أكفاء للدفاع عن الإمبراطورة. كان الجيش يتحول نحو التجنيد من العائلات العسكرية البربرية. ولم ينس الجنود والضباط الأفارقة أصلهم ؛ خلال انتفاضة فيرموس التحقت فرقان من الفرق الرومانية بالقائد المستفرض ؛ انتفض كذلك جيلدون ، قائد كل فرق افريقيا ، ضد روما. ورفض أن يسلمها القمع الذي كانت في حاجة اليه. وأضحت قبائل الحدود التابعة تهديد المعمرين الإيطاليين.

في الحواضر زاد انحلال النظام البلدى في وهن روما. حيث أصبح ممثلو العائلات البلدية الموعودين بعضوية مجلس الشيوخ مواطني روما ؛ فقدوا بالنسبة لحاضرة مولدهم ؛ وكانت أراضيهم معفية من الرسوم التي تجيها البلدية. وسقط ممثلو الطبقات الوسطى في البؤس والأمن. فدفعتهم الأوبئة والجفاف الى ربيع أملاكهم الى الأغنياء فأضحوا مزارعين بسطاء ومعمرين وأكارين أو عمالا فلاحين. وكان أعضاء مجلس هم المستفيدين من هذه الأزمة في أغلب الأحيان. وكانت الحواضر تفقد سكانها ، فلم يعد الرجال يبحثون عن المناصب الحكومية المكلفة ، ولم تعد الجمعيات الشعبية تنعقد. ففقدت الحياة البلدية أهميتها رغم مجهودات الإمبراطور للابقاء على تنظيم يضمن مدخولات الضريبة.

ان الأزمة التي ضربت الملاك الصغار قد أدركت كذلك معمري الدومينات الخاصة والإمبراطورية. اضحى الإستيطان في عهد الإمبراطور السفلى اجباريا ودائما. وربط المعمرين بالأراضي التي كانوا يستغلونها ؛ فلم يتمكنوا من الارتقاء الى وضعية سامية. وفقدوا جريزتهم. اذ أرغموا على ممارسة دين ملاك الدومينات التي كانوا يعملون بها. وأدمج بعضهم في العبيد المستخدمين في الزراعة. لقد عرف القرن الرابع عدة تمردات فلاحية ؛ كان برولتاريو الأرياف يرفضون دفع الأتاوة ، وينهبون ويهاجمون أسيادهم.

هكذا فان ضعف السلطة الإمبراطورية ، وانحلال النظام في الجيش ، وانحطاط الحياة البلدية ، والأزمة الاقتصادية والاجتماعية تفسر بشكل كبير تراجع السيادة الرومانية. لقد ساهمت المسيحية نفسها في تفسخ افريقيا الرومانية.

الأزمة الدينية

لم تحصل الانتخابات الإسقفية على اجماع، في 305 بقسطنطينة، وفي 11 بقرطاجة. انتخب سيسيليانوس أسقفا لقرطاجة. فأعلن خصومه، الذين لاموه على منعه المسيحيين من زيارة الضحايا المسجونين، وعلى اقراره لأحد المسلّمين، دونات Donat رئيسا لهم (313). وانضم الى هذا النزاع سبعون أسقفا من نوميديا. لقد لقي الإنشقاق تجاوبا عبر افريقيا. وكان الدوناتيون عديدين وأقوياء جدا في نوميديا، كانت باغاي وتاموقادي معقليهم. كانوا لا ينوون انشاء كنيسة منشقة عن باقي الكاثوليك وتوجهوا كذلك الى الإمبراطور كونستانتان ليطالبوا منه التحكيم في الخلاف. بعد ادانتهم فقط من طرف مجمعي روما وآرل، ثم من طرف كونستانتان، أنشأوا كنيسة خاصة، معارضة للكاثوليك وللإمبراطورية. ودعموا في عهد فالانتان ثمرد فيرموس الى درجة أن اطلق عليهم اسم « الفيرميين ». ولكن الواقعة الأهم كانت تحالفهم مع المتمردين، بروليتاريي الأرياف والدواوين (الذين يحومون حول مستودعات الحصيد).

ظهر نشاط الدواوين كمطالبة بعدالة اجتماعية أكبر. فقد تجندوا الى جانب الدهماء الريفيين أكثر مما تجندوا الى جانب دهماء المدن. يقدمهم أوغسطين كجوالين، رجال بدون عمل، ضالين وعائشين على النهب وحتى من قطاع الطرق. أما بالنسبة للديوان الإمبراطوري فإنهم كانوا رجالا أحرارا لم يكونوا عبيدا يتعردون. يمكن التأكيد على أن الدواوين كانوا يشكلون في القرن الرابع نوعا من البروليتاريا الفلاحية الحرة. فنحن بعيدون عن قطاع الطرق الموصوفين من طرف أوبتا وأغسطين اللذين وصفا الدواوين بالمعتوهين وبالأفراد الذين لا إيمان ولا قانون لهم. لقد أرهبت افريقيا الغنية والعاقلة من طرف ثوار القرن الرابع الجدد. كان ذلك « محاولة حقيقية لثورة اجتماعية تتوجه نحو تحرير المضطهدين العبيد أو اليد العاملة البطالة ذات الوضع الحر ». فلأمر يتعلق « بظاهرة اقتصادية ذات رد فعل البروليتاريا زراعية مدقعة ».

لم تنظم هذه الجمهرة من الدوارين كلها الى الدوناتية. يبدو، كما استنتج بريسون، أن « ثوار سنوات 340 هؤلاء قد كانوا ينادون عفويا في مطلبهم بكنيسة منشقة حيث القيادة كانت ترى بضرورة عدم الجازفة مع الثوار معرضين لأن يسببوا لكنيستها اضطهادات جديدة ». رغم مقاومات القيادة فإن الدوارين قد اتخذوا هم بأنفسهم قرار تقربهم من الدوناتيين. كان هناك انزلاق من ظاهرة اقتصادية الى ظاهرة اجتماعية. فقد كان الدوارون يرون في الإنشقاق الديني دين الفقراء. فكان على الكنيسة الدوناتية أن تخصص مكانا للذين كانوا ينادون بها. وقد قدم الدوارون للدوناتيين المضطهدين دعما لم يكن منتظرا، وعاملوا الاساقفة الكاثوليك معاملة الملاك العقارين الكبار. لقد احتلوا مكانة هامة في تمرد فيرموس جيلدون، والمسألة تطرح نفسها فيما اذا لم تكن الدوناتية بالنسبة لهم التعبير عن ارادة في استقلال سياسي.

الرفض البربري

انقلبت القبائل الخاضعة على الرومان، واقتربت القبائل المستقلة من النواحي المحتلة وشدت على الدوائر التي تحد منطقة الرومان. في 372 ، حمل القائد البربري فيرموس لواء التمرد في جبال جرجرة. وينتمي فيرموس بن نوبال الى عائلة مرومنة، وهو وحده بين اخوته الذي كان له اسم روماني. كان فيرموس مسيحيا ودونانيا بالتاكيد تقريبا. كان قصره بالقرب من الشية بممر بني عائشة من أين كان بإمكانه مراقبة ممر مهم، هو ممر متيجة الى القبائل أو الى ناحية سور الغزلان. لم يكن فيرموس قادرا على تحمل سلطة كونت افريقيا، فحمل السلاح ضد الرومان. وحلمه هو: أن يتفصل عن روما وأن يقيم لقب أوغسطين لصالحه ربما. وجه نداء الى « البلاد » وتحالف مع الدوناتيين. فأحرز انتصارات ساطعة على رأس عشرين ألف رجل، احتل ايكوزيوم، وقبصرية التي أحرقتها عن آخرها، وتنس ولكنه فشل أمام تيبازا. هزم الكونت رومانوس قائد جيش افريقيا، وبلغت الإنتفاضة القبائل الشرقية والأوراس. ونودي بفيرموس ملكا.

فيرموس معترفة به بذلك كانت هدنة فقط اذ عادت الحرب فدامت ثلاث سنوات : لم ينهزم فيرموس ولكنه تعرض للخيانة. ففضل الانسحاب على السجن (375). وتواصلت المعركة من طرف أخيه ساماك. وتوفي هذا الأخير، الذي جرح بعد مدة من هزيمة أخيه، نتيجة تعمق جرحه.

أما جيلدون وأخوه فبدوا أنه ظل وثيا. فقد وقف موقفا معاديا لأخيه وكوفيء من طرف الرومان في 387 عمل كونت افريقيا، سيد الملبشباتين وقائدا بهذه الصفة لكل جيوش الإمبراطورية من منطقة طرابلس الى الملوقة. ولم يتأخر جيلدون في مواجهة السلطة الرومانية. فرفض لثيودوز الفرق التي كان يطلبها منه؛ في 395 انتفض ضد الإمبراطور هونوريوس موقفا أسطول قرطاجنة الذي كان ينقل قمح افريقيا الى روما. أراد جيلدون أن يقيم الاستقلال الإفريقي هو بدوره، فوجه نداء الى القبائل البربرية والى الدوناتيين. وأرسلت روما 5000 من خيرة جنودها، فدارت المعركة في ابيدرا (حيدرة). هزم جيلدون، وأراد أن يرحل الى القسطنطينية لكنه قبض عليه وزج به في السجن أين شق نفسه. لقد كان القمع رهيبا، فكان على انصار جيلدون والدوناتيين أن يتقلوا الى الجبال. في هذه القضية خانت الكنيسة المتحالفة مع الإمبراطورية والملكية آمال البربر. كان اخفاق الكنيسة يضاف الى اخفاق السيادة الرومانية. كانت القلاقل تتواصل، فكان النظام الروماني ينهار.

حرب فيرموس

كان الجنرال الكبير، وهو هائج بفعل استبشاره بمآثره وبأشياء مماثلة، يريد أن يجعل من نفسه معكرا للنظام بصفة شخصية، وكان، مشغلا كل وسائله ومتوقفا لذلك طويلا عند مونيمونتوم ميديانوم، يتمنى أن يتمكن من تسليم الرجل بالالتجاء الى عدة مناورات نابعة من التفكير الناضج. وهو يفحص الوضعية بتأمل وباهتمام عميق، يدرك أن هذا قد عاد الى عند الايزافلانس : يدفع بجيوشه نحو هؤلاء ويهاجمهم على التو. تقدم ملكهم الملقب اغمازن، وهو شخصية مرموقة جدا في أرضها ومعروفة بشرواتها، بجسارة أمامه وقال : « من أين أنت وماذا جئت تفعل هنا؟ ». فيسلط عليه

ثيودور نظرة تهديدية ويقول برباطة الجأش : « انني كونت فلانتيانوس ، سيد العالم ، أرسلت لأسحق قاطع طرق مشؤوم ؛ ان لم تسلمه لي في الحال ، كما قرر الامبراطور الذي لا يقهر ، فانك ستهلك كلية ، مع الشعب الذي تحكمه . » عند هذه الكلمات انسحب اغمازن تحت طائلة الغضب ، والألم ، بعد أن قذف الجنرال بشتائم عديدة .

عند أول اليوم التالي تقدمت الجيوش الى المعركة ، مهددة ، وانتصبت حوالي عشرين ألف بارباري في الخطوط الامامية ، في حين كانت فصائل احتياط مخفية خلفهم ، بالشكل الذي تطوق به شيئا فشيئا جنودنا الذين كانوا يشون ، بفضل كثرتهم التي لم تكن منتظرة ؛ يضاف اليهم الأتباع الايزالانس العديدين ، الذين قلنا أنهم وعدونا بالامدادات والتموين . وفي مواجهة الرومان الذين ، رغم قلتهم ، منحتهم بسالتهم وانتصاراتهم السابقة الجرأة ، دعموا ميسرتهم ميسرتهم وشكلوا القفعة بواسطة الأدرع ، ودعموا الصدام بثبات ودامت المعركة من طلوع الشمس الى نهاية النهار ؛ قبل المساء بقليل شوهد فيرموس ممتطيا حصانا كبيرا ، ومرتديا معطفا أرجوانيا واسعا جدا ، يحث الجنود بصيحات عالية ، اذا كانوا يريدون أن يتحرروا من الأخطاء المحزنة بهم عليهم أن يسلموا ثيودور بانتهاز لحظة مناسبة ، ومسميا هذا بالوحشي الباربار ، مخترع التعذيبات القظة . دفعت اقواله غير المنتظرة ببعضهم الى الإقتال بحماس أكبر ، ودفعت البعض الآخر الى التخلي عن المعركة ؛ ثم حين بدأت الراحة الليلية ، كان جزء من الرجال فرعا من الظلمات التي طوقتهم ، وعد الجنرال الى كاستيلوم دوو ديونس فاستعرض الجنود ، وقتل الذين غير الخوف من فيرموس . وأقواله من رسم معركتهم ، مصدرا أحكاما بمعاملات مختلفة ، فالبعض كانت ايديهم اليمنى مفروعة والبعض الآخر أحرق حيا . رتب الحراسة بعناية يقظة ، وأباد البعض من البراة الذين كانوا يتجرون على مهاجمة معسكره خفية ، بعد اختفاء القمر ، أو سجن الذين كانوا يقتربون منهم بجسارة كبيرة جدا ؛ بعد ذلك ابتعد ، في مشية حيوية ، وهاجم الايزالانس بسبب ولائهم المريب ، عبر دروب ضيقة ملتوية لا يمكن توقعها ، وانزلهم الى حضيض الفقر ؛ ثم عاد الى استيفليس مرورا بأوبيدوم موريطانيا القيصرية ؛ فقد تبعت من ألم نار كاستور ومارتينيانوس ، الله يكن في نشاطات وجرائم رومانوس .

استؤنف الحرب، بعد ذلك، مع الايزافلانس، ومنذ الصدام الأول تراجع عدد كبير من البرابرة وذبحوا، واستسلم ملكهم اغمازن، الذي تعود الانتصار حتى ذلك الوقت، خائفا من الإرهاب الذي أوحى بها الشر الحاضر، واعتقد أنه، اذا امتنع عن المتاجرة وانقاد للعناد الكبير، لن يبقى له أي أمل في الحياة، فمع قدر من الاحتراس والسرية يمكن ألا يحدث ذلك فتقدم وحده خارج الصفوف وحين رأى تيودوز نرجاه أن يحضر اليه مازيس مازيلا - عن طريق هذه الواسطة المرسلة كما طلب الملك، نصح هذا الجنرال المنصلب طبعاً بمباحثات سرية بتهديد مواطنيه بحيوية حتى يترك له امكانية عمل ما كان يريد، وبواسطة ازعاج دائم يؤدي بهم الى الخوف والإنهاك بالخسائر المتزايدة، رغم تعاطفهم مع المتمردة طبقاً لتلك العهود، وبواسطة معارك متتالية أزهق تيودوز الايزافلانس بالقدر الذي كانوا يسقطون فيه هم أنفسهم كالقطيع، وكان فيرموس يفر خفية، لكن بفراره عبر دروب خفية غير مستعملة ومليئة بالمنعرجات، أمسك ثانية أسيراً من طرف اغمازن في الوقت الذي كان يفكر فيه في هذا الفرار؛ ولأنه كان قد علم من مازيلا بالمساومات السرية؛ اعتباراً منه أنه في أقصى الحالات لن يكون هناك سوى حل واحد، قرر أن يدرس ارادته في الحياة ويمنح نفسه وبارادته الموت : في الوقت الذي كان فيه حراسه الذين أشبعوا أنفسهم خمرًا متعمدين ذلك وسبحوا في النشوة، مغمورين بنوم عميق وفي سكون الليل كان هو يقظاً بفعل هلع متولد عن الأسرة الذي يعانيه، غادره فراشه بخطوات صامتة زاحفاً على اليدين والقدمين، وابتعد قليلاً فوجد الحبل الذي كان قد أعدّه للانتحار المتحمل، وثبته في مسمار مغروز في الجدار، ومرر عنقه فيه وتوفي محدثاً أنين الموت.

Ammien-Marcellin (XXIX,45,55) (traduction M. M. Moreau)

الجدلية الأوغسطينية

تعود الجدلية الأوغسطينية الى مايلي :

1 - الذي يعيش خارج الطائفة الكاثوليكية يحرم تلقائيا من نعمة خلاصه الفعالة من طقس الاسرار المقدسة التي يحفظها المسيحي المعزول رغم ذلك.

2 - لانقاذه، لابد من تحريره من الانعزال.

3 - القضية بالاحرى أصعب من الإنسان الضعيف عموما.

4 - لاغاة الإنسان الضعيف وتحريره من الخطيئة، فانه يجدر اذن تحريره من ارهاب الانتقامات موضوع تهديده من اخوته في الدين.

5 - لابعاد هؤلاء عن حالة متابعة تهديداتهم، هناك اجراءات مشتركة منصوص عليها من طرف القانون.

6 - بقدر ما هي شرعية مقاومة المسيحيين للقوانين الجائرة حتى الاستشهاد بقدر ما هو مطابق للكتاب السهر على القوانين حينما تكون جيدة.

7 - « يجب ألا يؤخذ بعين الاعتبار الاكراه في ذاته لكن يجب اعتبار ما يهدف اليه الاكراه، أن كان خيرا أم شرا، ».

8 - حسب استعمال هذه الكلمة المستعملة في الإنجيل، « إنه اضطهاد غير عادل ما يلحقه الكفار بكنيسة المصلوب، وهو اضطهاد عادل ما تلحقه كنائس المصلوب بالكفار ».

A.Mandouze, Saint Augustin, Paris, 1968 ,pp. 379 – 382

كيفية تقييم أوغسطين

في هذا الميدان، يجب القول في الواقع ودون تردد، ان النقد يوضع نوعا من المانوية التلقائية عموما :

- فلما أن يكون المؤول « مؤمنا » وكاثوليكيا بتحديد أكثر و (أو) قليل التأثير بالمسائل ذات الطبيعة السياسية (الشيء الذي غالبا ما يكون جال أعضاء الاكليروس بصفة خاصة) : حيثئذ فهو على استعداد لتبرئة أوغسطين، في جميع النقاط واتهام الدوناتية منهجا. وإما أن يكون المؤول معاديا

للكاثوليكية، لأسباب دينية أو لأسباب سياسية : محافظا أو « تقدما » كان فهو حينئذ على استعداد للوقوف الى جانب الدوناتيين وإدانة موقف أوغسطين راديكاليا فيما يخص (مع احتمال تمييز عدة شخصيات فيه، من جهة أخرى، وامنداح « دكتور اليونان »، لابدون أثر، لأنه عرف كيف يكون « بروتستانيا » قبل الرسالة، في مواجهة البلاجين).

يبدولي أن الوقت قد حان ليعي النقد هذه الحدود، وإن تبذل الانتقادات الجهد الحاسم لمحاولة الخلاص؛ أكثر ما يمكن فعله، لـ « تكيف » ها الخاص، فإن ما هو مستلزم قبل كل شيء :

1 - لما كان شخصية دينية، فإن أوغسطين يدرس أولا تبعا للمعايير الدينية : فيما يخص هذه النقطة، فإن من يمتنع عن تعاطف منهجي، على الأقل بهدف البحث، فإنه يجعل نفسه مشبوها بتحيز يبعده قبلها عن كل امكانية في الدراسات الأوغسطينية السليمة.

2 - لما كان شخصية هامة ولما أدخل في أحداث خطيرة، فهو إذن « معرض للخطر »، فإن أوغسطين يجب أن يخضع الى تحليل يأخذ في الحسبان العوامل السياسية، الاجتماعية، الخ : من يرفض ذلك سيكون بكل بساطة متهما رأسا باهما ما يخص مؤلف مدينة الله De civitate Dei والتميز الأسامي بين المدينتين و« اختلاط »هما في الدنيا.

3 - يتم تدخل عناصر التقييم غير الدينية، مثل تدخل المعايير الدينية البحتة، تبعا لمعرفة دقيقة أكثر ما يمكن للسباق نفسه الذي عاش فيه أوغسطين، وليس تبعا لايديولوجياتنا الحديثة أبدا مهما كانت.

A.Mandouze, Sagustin, Paris, 1968, pp. 334 – 335.

الفصل الرابع عشر

الجزائر والوندال

4

يبدأ تاريخ الوندال قبل وصولهم الى افريقيا بقرون عديدة. فقد وصلت القبائل الوندالية سهول أودير فيستول، تاركة وراءها البلطيق، وأقامت في ناحية الراين الأوسط، ثم عبرت بلاد الغال، وتسلمت الى اسبانيا، ثم استولت على الباليار بعد ذلك. وفي 428 لم يكن ملك الوندال الجديد جنسريق قادرا على إلاّ يهتم بافريقيا.

إذا لم يكن الوندال بدون شك هم البرابرة الذين وصفوا في أغلب الأحيان، فإنه لن يبقى سوى أنهم كانوا مهتمين قبل كل شيء بقضاياهم وليس بقضايا الأفارقة. وقد عجل الغزو الجرمني في وتيرة تاريخ افريقيا.

غزو الدولة « النوميديّة »

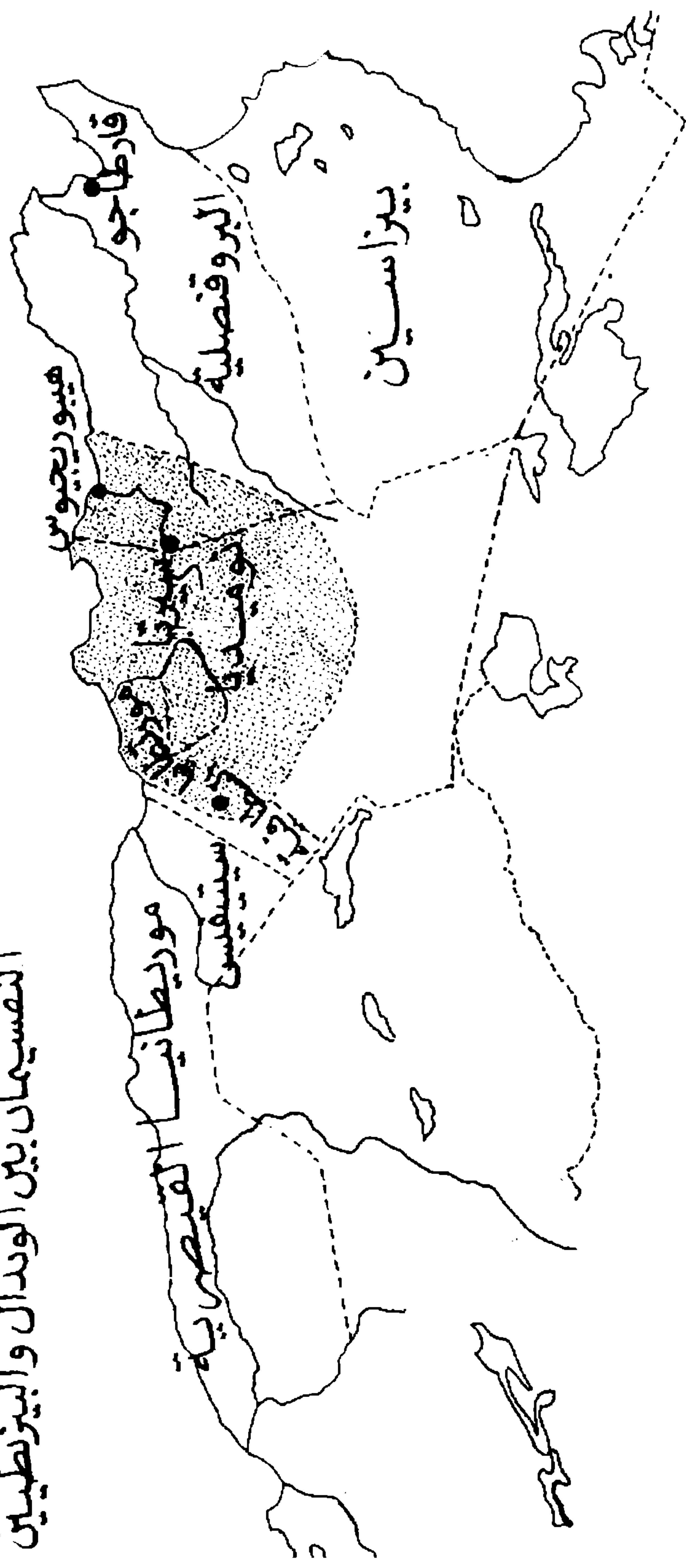
انتقل الوندال من اسبانيا الى افريقيا في شهر ماي 429. ويمكن التساؤل لماذا؟ فقد انهم كونت افريقيا بونيفاس، آخر الجنرالات الرومان، بدعوة الوندال لمعاونته. فقد استدعى بونيفاس الذي اضحى مشهورا بانتصاراته على البربر والذي كان يشك أن له نية انشاء امارة مستقلة في افريقيا، من طرف الإمبراطورية ثانية (427). ورفض الإمثال. أنه لفي ذلك الوقت طلب عون الوندال. ويؤكد علي سبب آخر أيضا : ثروة افريقيا؛ اذ لم يغادر جنسريق الاندلس إلا من أجل الأراض الغنية أكثر، أراضي موريطانيا القيصرية، نوميديا وكذلك أراضي البروقنصلية. زيادة على ذلك فإن افريقيا كلها كانت أمام ضعف روما تريد أن تسترجع استقلالها. فكان بإمكان جنسريق أن يأمل في فتح سهل.

من المؤكد أنه سلك طريقا برياً، فالخريطة المنظمة من طرف كورتواس توضح خطوط السيرة المفترضة والحملات التي أثبتت النصوص مرور الوندال بها. انطلاقاً من السواحل الرملية لطنجة بدأت المسيرة الطويلة نحو الشرق. ويصل الوندال ألتافا (أولاد ميمون) في 429 ، ويتواجهون قبالة هيون في ماي أو في جوان 430 ثم يحتلونها بعد أربعة عشر شهراً من الحصار. فكان على بونيفاس أن يبحر إلى إيطاليا مهزوماً هزيمة جاسمة. وأضحى جنسريق سيد إفريق.

لقد سبب وصول الوندال إلى إفريقاً ذعراً حقيقياً. وحث أوغسطين أساقفته على ألا يرحلوا. وأن يشاركوا الرعية مصيرها. إن العديد من النصوص تتكلم عن فظاعات الوندال، ففظاعات بوسيديوس كالا ما تستدعي اتهامات خطيرة : فيلات مخربة وكنائس لها كهنة لها ونهب ومجازر وتعذيبات وانتهابات. إن نقداً جديلاً لخطب الاساقفة الكاثوليك ليشير الشك . فعلاً كان الغزو فظاً لكنه لم يخرّب البلاد؛ فما أن مرّ على الإغصار حتى عاد السكان إلى حواضرهم ومساكنهم. ولم يمس جنسريق الفلاحين، مصدر الحرث والضرائب. أنه لصد الكاثوليك والنبلاء كان قاسياً. فصادر أراضيهم وخزائنها. ونقل الكثير من الكنائس إلى العبادة الأريوسية. وكان القمع ضد الكاثوليك قاسياً جداً في عهد خلفاء جنسريق.

في 435 وقعت اتفاقية هيون، حيث يدخل الوندال في خدمة الإمبراطورية بصفاتهم أعضاء في اتحادية فيديرالي، وعليهم أن يدفعوا ضريبة خفيفة، ومنحوا قطعة أرض. كانت دولة الوندال الأولى في نوميديا تحدّ منطقة ستيفيس والبروقنصلية وربما بيزاسين. في 539 احتل قرطاجنة. فأحرز على دولة أوسع وأهم، وبواسطة اتفاقية (439) أصبح سلطته بالشرعية. في كل المناطق المحتلة. فكان جنسريق يرى كل سلطاته معترفاً بها من قبل الإمبراطورية. ويجد نفسه على رأس دولة حقيقية فكان يتصرف كملك حقيقي.

التقسيمان بين الوندال والبيزنطيين





الجدار. في أول الصورة. القاعدة والغرفة ذات الأغراض الثقافية.



جدار. (جبل الاخضر).

البعث البربري

تشير النصوص، ابتداء من القرن الثالث، إلى البربر غير المرونيين بموري Mauni والذين كانوا ينتمون إلى الحضارة الرومانية بروماني Romani. قاموري اذن هو البربري الذي بقي في اطار الحياة القبلية، الذي ظل افريقيا، فلا الإزدواجية، ولا حتى التحول استطاع أن يجعل منه رومانيا. وإذا كان الكثير من المدن قد غادرها سكانها أو فقدت أهميتها، فإن الحياة الحضرية لم تختف لهذا السبب من الأراضي التي أخليت من طرف الرومان. تشهد على ذلك بعض الأمثلة من البناءات في المدن الآفلة؛ فهناك تحصينات في ألتافا وكنيسة دوناتية في ألاميلياريا (بنان) وكنيسة في كاستيلوم تانجيتانوم (الأصنام) وترميم لبازيليك روسغونيا (رأس ماتيفو). أما الجدران فهي دليل على عدم إهمال فن البناء.

كان على رأس المدن مؤولون يرتبطون بالتقليد الروماني. حيث يذكر نقش مؤرخ 474 بالنسبة لتاناراموزا (البروقية) بريفيكينوس praelectus رئيسا للمدينة والضواحي. ويحمل الرؤساء المحليون أسماء بربرية أكثر فأكثر: ابوغمينا وايدير وماسجيونوس؛ وكان رعاياهم أقارب بربر في أغلب الأحيان. ومن الواكد أن المسيحية هي التي حفظت بقاء أكبر من الفترة الرومانية. حيث حفظت ذكرى هونوريوس كاسيرونسيس (بوحيفية) الدوناتية، وذكرى أساقفة كاستيلوم تانجيتانوم، وموزايافيل وميناء الثلاثة (بين 455 و 533).

نزل الجيليون البربر إلى الجبل، ليس لتخريب المدن دائما والفتك بالأرياف، بل لأنهم كانوا غالبا ما يذكرون أهمية قيمة القمح، وفي سبيل إقامة الروابط بين الأرياف والسهول من جديد. وتقدم لنا إقامة ممالك أهلية معلومات جيدة تقريبا عن هذا الإسترداد البربري.

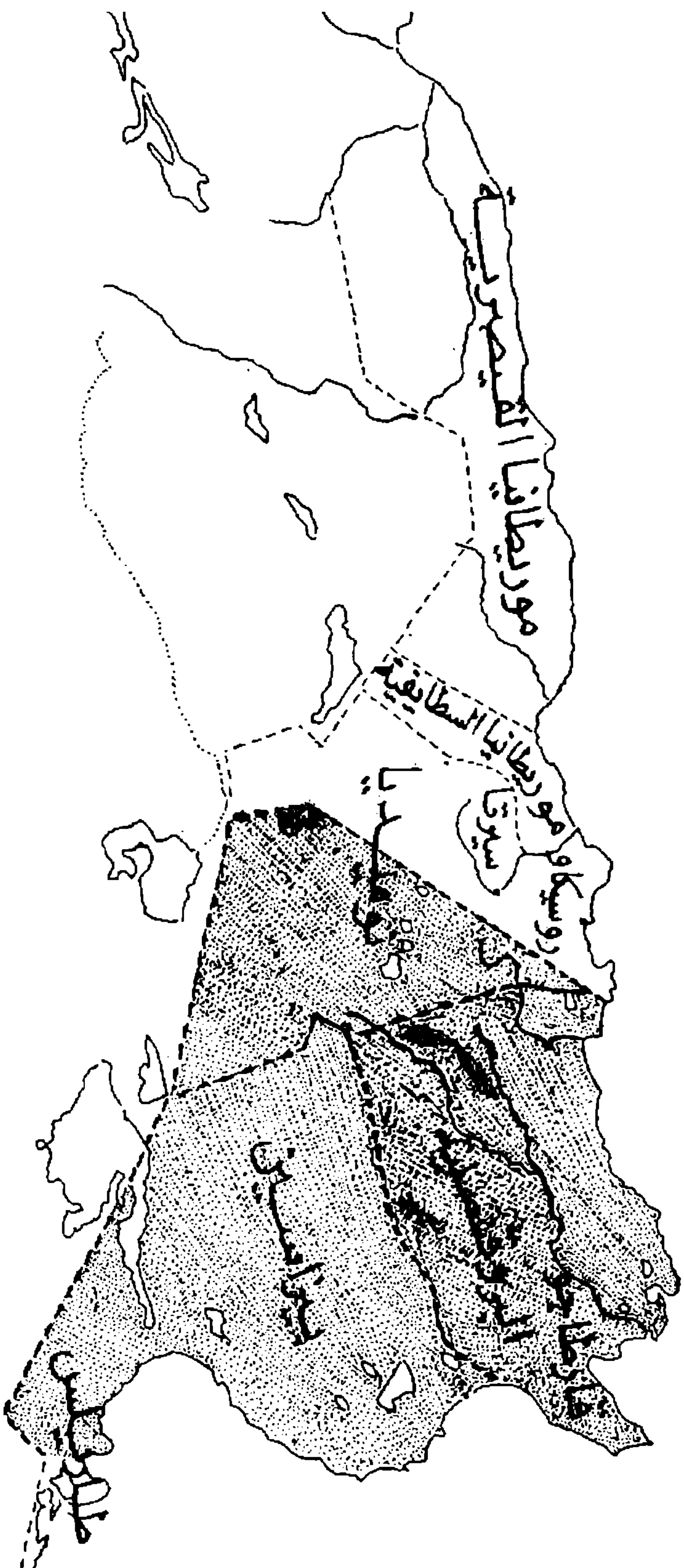
كان قادة هذه الدول يصفون أنفسهم بريكس Rex وحتى بأمباطور أحيانا. أولى الممالك كانت هي مملكة ناحية وهران، حيث عرفت بفضل نقش ألتافا (أولاد ميمون)، كانت تحت حكم شخص اسمه مارونا الذي كان يقول عن نفسه ريكس جتيوم موروروم Rex gentium Maurorum

ورومانوروم Romanorum. بعيدا إلى الشرق كانت هناك مملكة الونشريس التي تمتد إلى الشمال على بلاد الشلف وربما الحضنة شرقا. وبهذه المملكة ترتبط الجدران، أضرحة مشيدة على التلال والتي تترك إنطبعا حقيقيا عن العظمة. كما يشير غلنا بروكوب فإن البلاد الواقعة بين طنجة وشرشال قد سقطت من جديد في أيدي البربر. ويتكلم ذلك عن تكتل معقود بين ماستيناس الذي كان يسيطر على موريطانيا القيصرية وملك الأوراس أيوداس من أجل الاستيلاء على أراضي عاهل آخر هو اورتاباس. وما هو أكيد هو أنه منذ إختفاء السلطة الرومانية أستؤتف الحوار بين الريف والسهل، وقربت أساليب الحياة بين الجبل ذي الحياة الصعبة دائما والحضر المعوز. لقد كان البربري يثار من روما.

علاقات الوندال بالرومان والمور

كان الوندال قليلي العدد، 50 000 محارب في بداية الغزو، 80 000 بعد قرن. في الجزائر لم يشكلوا جماعات ملتحة ولكنهم إكتفوا بالحفاظ على بعض الحاميات. واستغلت الدومينات الامبراطورية من طرف المزارعين وأديرت من طرف مسيرين لحساب الملك. أما قسوة الوندال فكانت ضد الاريستقراطية الرومانية والكنيسة. فقد فقد النبلاء أراضيهم والمقدمة التي كانوا يحتلونها في الدولة؛ فكان على البعض منهم أن يستسلم للتحويل إلى معمر بسيط. وحارب الوندال الكاثوليك سواء كان ذلك حقدا - كان الوندال يمارسون المذاهب الموروثة عن أريوس وكانوا يشتهرون العبادة الإلهية باللغة الغوتية - أو إحتراما، لأن الكاثوليك كانوا يقيمون علاقات مشبوهة مع البابا، وامبراطور القسطنطينية والكنائس الأجنبية. لقد طاردوا العديد من الأساقفة؛ فكان على أسقف بسكرة، أوبتا فيسير Optat del Vescera، أن يذهب إلى إيطاليا أين هو مدفون اليوم بجانب ضريح أحد البابوات، في أحد سراديب الأموات بروما. لقد كان القمع قاسيا جدا، في عهد خلفاء جنسريق؛ استدعى هونريق (477 - 484) مجمعا دينيا في قرطاجة (من 406 أساقفة جاء 120 من موريطانيا القيصرية و44 من موريطانيا سيتيفيس) واستغل الفرصة ليعلن عن مرسوم انتقام يطبق على

الكاثوليك الأنظمة الامبراطورية ضد الهراطقة ؛ فهلك حوالي 90 أسقفا افريقيا
خلال ستين. وفي تيازا رفض المؤمنون الاعتراف بالأسقف الأريوسي وفرّوا
نحو اسبانيا؛ قطعت السنة الذين لم يفعلوا. واستسلم الكثير من الكاثوليك
وخضعوا لقبول التعميد الأريوسي.



عاش المور والوندال في النواحي المحتلة من طرف الوندال منفصلين بعضهم عن بعض. ومع ذلك كما يسجل كورتواس، فإن تعبير البرابرة والوندال كان، على المستوى النظري على الأقل، أفضل مما كان عليه الحال مع الرومان. زيادة على ذلك لم يعرف نظام الملكية تعديلا كبيرا في نوميديا، بعكس ما حدث في زوجيتان Zeugitane. استطاع البربر أن يحتفظوا بأراضيهم، سواء كانوا أو كمعمرين في أغلب الأحيان. وكانت هناك إمكانية إنشاء ممالك، تحت سيادة الوندال، فلم يكن الجيليون يخشون اختلال سهول الحضنة الخصبة، كما أنشئت مملكة من نوع الجيلي في السنوات الأخيرة من القرن الخامس. وهذه المملكة هي التعبير على التمرد على السلطة الوندالية، إنها مملكة النهضة البربرية. ولم تكن مملكة الأوراس وحيدة، فقد لوحظ نفس التطور في ناحية جبال تالا المتوسطة، وفي الدورسال، وفي ايدوغ. إن لم تكن هناك نهضة عامة ضد الوندال فعلى الأقل مارس البربر نوعا من احياء التدريجي انطلاقا من المناطق الجبلية. فكورتواس يخبرنا أن أفريقيا المنسية « كانت تجد سبل قوتها الخاهدة ». استأنف مازونا، واوداس تقاليد ماسينيسا ويوغرطة. إن تشكيل الدول البربرية في القرنين الخامس والسادس « قد كان نوعا من تأكيد الذات، والتعبير عن حيوية لم يصبها الزمن ».

ففي عشية إعادة الغزو البيزنطي، كانت مملكة الوندال مهددة بخطر مزدوج : الكونفيدراليات، وظهور قبائل الجبل الجنوبية. إنه لبين القرنين الأول والرابع نعيم استخدام الجمل في ناحية طرابلس، لكن لاشيء يشير الى أنه استعمل في الجزائر. لقد ترك لنا بروكوب وصفا مفصلا عن المعركة التي اتصل الوندال خلالها بموريمتتون الجمل. فقد أدرك المور، الذين كان يقودهم كاباون، الوندال خلف معسكر متقل حيث كان الجدار مشكلا من خط من الجمال، خط متواصل العمق بحوالي دزينة من الدواب. كانت القبيلة بكل ثرواتها محصنة بداخل الدائرة؛ كان على البربر أن يخوضوا معركة حتى الموت : إما النصر أو الموت.

« بعد ما ألحق المور العديد من الهزائم بالوندال احتلوا الموريطانيين الطنجية والقيصرية (ماعدا مدينة شرشال نفسها طبعاً) وفي الجزء الأكبر من

الباقى ، كما يخبرنا بروكوب. لقد انتهت افريقيا الرومانية ، وبدأت افريقيا
البربرية.

نقش تذكارى على شرف مازولا (وجد في ألثافا) متحف وهران

أنه شهادة من الشهادات النادرة التي تسمح بتأكيد تواجد مملكة
بربرية استطاعت ، وهي تابعة للرومان ، أن تسود قبل الغزو الوندالي ، وأن
تحالف مع البيزنطيين حتى مجيء العرب.

النص : Pro sal (ute) et incol (umia'ate) reg (is) Masunae gent (ium)
Maur (crum) et Romanor (um) castrum edific (atum) aMasgivini pref
(ecto) de Safar, Jidir proc (uratoré) castra Severian (a), quem Masuna
Algava posuit. Et Maxim (us) proc-) urator) Alt (avae) perfec (it) pr
(ovincia anno).

CCCC LXVIII.

الترجمة :

لأجل صحة وبقاء مازونا ، ملك قبائل المور. هذه الحاضرة شيدت
من طرف ماسغيفين عامل سافار ، وجيدير وكيل كاسترا سيفيريانا ، الذي أقامة
مازونا في ألثافا. وأنجزها ماكسيموس ، وكيل ألثافا في عام
المقاطعة 469 (508 م).

نسخة من القرار الإمبراطورى الأمر بفلاحة
كل الأراضى غير المزروعة الخاصة بالحبوب
قرار تنفيذ لوكلاء الإمبراطورية هادريان أوغسطس.
بما أن إمبراطورنا.. يأمر بأن تفتح كل قطع الأرض القادرة على إنتاج
الزيتون والكروم أكثر من الحبوب.
لهذا السبب وبتفويض من سلطته :
حول امكانية الشغل.

تمنح القدرة على الشغل للجميع (لا بالنسبة للأراضي الغدرانية والطينية لغرسها زيتونا وكروما، تطبيقا لليكس مانسيانا) فحسب، بل وبالنسبة كذلك للقطع (المرتبطة) بوحدات المئة المخصصة لايجار سالتوس (X) وسالتوس (Y) ، غير المزروعة من طرف الذين استأجروها حول تخويل حق الشغل.

يمنح للذين سيشغلون (هذه الأراضي) هذا الحق في حيازتها، والانتفاع بها ونقلها لورثتهم، الذي تتضمنه كذلك اجراءات قانون هدريان المعنون : « قانون متعلق بالأراضي التي لازالت لم تفلح أو التي ظلت مخصصة للزراعة خلال العشر سنوات الأخيرة متتالية ».

أ (حول التزامات الشاغل لل (سالتوس (X)) .
بالنسبة للسالتوس X سوف لن تفرض سوى أنصبة المنتوجات التي (يسمح بها الإكس) ما (نسيانا) .

إذا تعلق الأمر بالقطع (الواقعة في وحدات المئة الخاضعة للإيجار) التي تركها مزارعوها مهملّة، فإن الذي سيشغلها سيدفع الأتاوة التقليدية التي هي النصيب الثالث من محصول (الحبوب) .

ب (حول التزامات الشاغل لل « سالتوس (Y) »
فيما يخص النواحي المرتبطة كذلك بالسالتوس (Y) ... التي ستمارس عليها قدرة شغلها سوف تخضع لنفس الأداءات.

حول الإعفاء من الإعفاء من الأتاوات في صالح غارسي « الليغ مانسيانا manciana » .

أ) فيما يخص أشجار الزيتون التي سوف يغرسها كل « شاغل » في الحفر ويطعمها على زيتونيات، فإن أي نصيب من الإنتاج المجني لن يفرض خلال العشر سنوات التي تلي (الغرس أو التطعيم) .

ب (أما فيما يخص الثمار الأخرى فإن الإعفاء (لن) يكون (الآ) خلال السبع سنوات التالية.

وأي ثمار سوف لن تدخل في مجموع حساب الأنصبة، الآ التي يوجهها الحائزون (الشاغلون للليغ مانسيانا) للبيع.

حول دائن الأنصبة الحنطية واجبة لأداء على « الليغ هادريانا » .

أما ما يخص الأنصبة الحنطية للثمار التي على كل (شاغل) أن يقدمها فإن (هذا الشاغل ، حتى انتهاء المدة الرباعية للإيجار التي ستبغ الشغل) ، يقدمها الى المزارع ضمن الإيجار الذي سيكون بما فيها الأرض التي سيشغلها. بمرور هذه الفترة الزمنية ، فإنه سيقدمها الى إدارة « الأملاك الإمبراطورية ».

Gouvernement General de l'Algérie :Tablettes Albertini, Actes privés de l'époque vandale (fin du Ve siècle),Paris, 1952, pp. 105-- 106.

الفصل الخامس عشر

الجزائر والبنطيون

لم يتخل الأباطرة أبداً عن محاولات إعادة غزو المقاطعة المفقودة. فقد حاولت كل من روما والقُسطنطينية في جولات عديدة إسقاط نظام الوندال. وانتهت حملة 468 الكبرى بنكبة ماثورة. ونظم كل من مايجورين أحد أواخر أباطرة الغرب وليون الأول إمبراطور الشرق حملات ضد جنسريق بدون جدوى. إن إغتصاب السلطة من طرف جيليمار، الذي كان يعيب على الملك الوندالي هيلدريق هزائمه أمام البربر، وتسامحه إزاء الكاثوليك، وتحالفه مع الإمبراطور، قد وفر بالنسبة لهذا الأخير فرصة التدخل في إفريقيا. حيث ناشد أنصار الملك المهزوم، والتجار الشرقيون والاستقرابية الكاثولوكية والرومانية الإمبراطور البيزنطي لدعم هيلدريق بواسطة السلاح، ووعد بالنجاح تنبؤ أحد أساقفة الشرق القديس ساباس. فقرر جوستينيان نقل الحرب الى إفريقيا.

الى هذا القرار بالذعر في المجلس الإمبراطوري. ففضلا عن الأسباب الدينية : وصول عدد كبير من المبعدين الأفارقة والأساقفة المعذيين بشدة لأجل إيمانهم وجدوا مساندة من طرف معارضة في حاشية جوستينيان. أسندت قيادة الحملة الى بيليزير، غادر جيش من 16 000 رجل منقولين بواسطة 500 مركب مرفوق بـ 92 مراقبة بحرية القسطنطينية يوم 22 جوان 533.

إعادة الغزو البيزنطي

هزيمة الوندال

كانت الظروف مناسبة لبليزير : فالجيش الوندالي لم يكن يتجاوز، في مجموعه، 30 الى 40 ألف محارب، ممثلا لسكان مجموعهم 200 000 فردا. ولم يكن للوندال حماسات بدايتهم الحربية، يوضح لنا بركوب كم غيرت فيهم الحضارة : « من الأمم التي أعرفها، فإن أمة الوندال هي الأكثر تخنثا، فمن يوم أن احتلوا افريقيا تعودوا على الحمام اليومي وزودوا موائدهم من كل ما تعطي الأرض والبحر من الذّ الأشياء، وملأوا أنفسهم بمجوهرات الذهب وملابس الحرير، وجعلوا شهواتهم في المسرح، وميدان الخيل وشهوات أخرى مماثلة والصيد بصفة خاصة : لقد ألقوا بأنفسهم في الرقص وفي التقليد، في الموسيقى والفرجات، وفي كل ما يمكنه أن يبهز العيون والآذان. وكان أغلبهم يقطن فيلات عجيبة محاطة كلية بالأشجار والماء الجاري؛ كانوا يمضون الوقت في الولايم الكبيرة ويصبرون لشهوات الحب ». لم تلعب البحرية الوندالية أي دور، فلم تظهر لا لتغطية سواحل افريقيا ولا لاعاقة لانزال البيزنطي. ففي عشية وصول البيزنطيين كان 5 000 وندالي ومعهم 120 سفينة في حملة على سردينيا وكان الوندال مقسمين على أنفسهم، فالكثير منهم هم الذين انتقلوا الى جانب الإمبراطور. ووقفت الكنيسة الكاثوليكية والارستقراطية الرومانية طبعاً الى جانب الإمبراطور. وكان البربر قد واجهوا خلفاء جنسريق : أعلن جيليو الأوراس، وبربر الحضنة والزيان وقادة موريطانيا استقلالهم. كما لم تكن للمور أية مصلحة في الانضمام الى الوندال أو الى البيزنطيين.

إن تحالف أوستروغوت Ostrogoth ايطاليا مع البيزنطيين وانتفاضة سردينيا قد أضعفا الوندال. نزل البيزنطيون جنوب هيدروميترم (سوسة)، وعرف بليزير كيف يظهر المحرر المنقذ : جيش منظم ومطيع، والنهب ممنوع، فكان السير الى قرطاجة نزهة عسكرية. سهلها الترتيبات الجيدة التي اتخذها الاكليروس والكاثوليك وحياد القبائل المور. لقد فتح انتصار ديسيمم أبواب قرطاجة، بعد ثلاثة أشهر سلّم جيليمار نفسه (مارس 534). وانتهت

حرب الوندال. وخلال ثلاثة أشهر احتفت مملكة جنسريق.

التائج. المقاومة

هل تم احتلال افريقيا فعلا؟ لقد كانت الجزائر بصفة خاصة وبقسمها الأكبر تنجو من اليونانيين. فقد استقر البيزنطيون في البروقنصلية وفي جزء من بيزاسين. لكن ثلثي نوميديا كانا بين أيدي البربر. في الشمال بين قسنطينة وقرطاجة تشخص مراكز تاغورا (تاورة) ومادور تيبازا (تيفيش) وغاديوغالا (قصر صيحي) وآد سونتيناريوم وتيجيسيس (عين البرج) المرحلة الأولى من التسلل البيزنطي في الناحية القسنطينية. وظلت الموريطنانيات الثلاث : السطايفية والطنجية في حاجة الى اخضاع، ولم يحتل الأسطول البيزنطي سوى بعض الموانيء : ايجيلجيلي (جيجل) وصالداي (بجاية) وقصرية؛ هذه المواني ظلت معزولة في بلاد مستقلة.

خلّص بليزير البلاد من الوندال، ونقل الى الشرق نخبة القيادة في الجيش الوندالي، وأضحى الجنود عبيدا، ووزعت النساء والأطفال على المتصرين كما صودرت أراضيهم وسمح للملاك القدامى بتقييم حقهم. واضطهد الوندال في دينهم أيضا. واختفوا شيئا فشيئا دون أن يتركوا أثرا.

استقبل الاكليروس والرومان البيزنطيين بحفاوة، فعاملهم جوستينيان برفق كذلك. واستعادت الكنيسة أملاكها واستفادت من كل الامتيازات التي منحت للكنائس المتروبولية، فتمكنت من اشباع غلبها ضد مضطهديها : الاربوسيين واليهود والدوناتيين والثنيين. وتمكن السكان الريمان هم أيضا من المطالبة بأراضيهم التي سلبها منهم الوندال. وماذا كان مصير البربر؟

* كان البربر مضطربين بفعل النجاحات السريعة للبيزنطيين، بدا قادة نوميديا وموريطنيا وكأنهم موافقون على السيادة الإمبراطورية، لكن منذ 534، استعدوا لمحاربة الغزاة الجدد.

ففي الجزائر شكلت القبائل مجموعة كبيرة من الدول هاجمت القبائل الأوراس مدن لامبيز وديانا فيتيرانوروم (عين زانة) وتاموغادي وباغاي (قصر باغاي)؛ كان الملك أيسوداس، الذي تمكن من

جمع 30 000 فارس ، أقوى واحد بين قاداتهم ؛ كان الملك أورتاباس قائد قبائل الحضنة ، وحكم ماستيغاس في ناحية قبصرية . وأسس مازونا إمبراطورية واسعة بين ألتافا (أولاد ميمون) وسافر (عين نيموشنت) . لقد ترك البربر الخصمين ينهكان بعضهما البعض . فقد وعدهم بليزير بوعود رائعة في مقابل حياتهم ولم يف بالوعود . انتج حصاد سيء مجاعة ، فقرر البربر الانتقال الى العمل . إن تهديد انتفاضة البربر قد كان يقف في وجه مشروع جوستينيان الطموح الى مواصلة طريق روما في إفريقيا . وسمح Le De Bello Vandalco بروكوب و Johannis كوربيوس لديهل Diehl بتقديم البربر ووصف أسلحتهم وتكتيكهم العسكري .

هاجم البربر مواقع الحدود والفرق البيزنطية لبزاسين منذ 534 . ومن هناك انتقلت الانتفاضة الى نوميديا ، فقتل 30 000 رجل من الأوراس مع أيوداس ، وكان بليزير قد ترك القيادة لقائد أركانه سليمان Salomon الذي كانت له السلطات المدنية والعسكرية . استطاع هذا الأخير أن ينتصر على البربر في بزاسين ، لكن النضال استمر في نوميديا ، فاستقبل ملك الأوراس مهزومي بزاسين ومنحهم أراضي جهو تيمقاد ولاميز . وتقدم حتى التل في 535 ؛ قرر سليمان اقتحام الأوراس (نهاية 535) من الشرق لكن كلما كان البيزنطيون يتقدمون كان البربر يختفون مكتفين بنصب كمائنهم و تنمية الصعوبات فكان على سليمان أن يتقهقر . وبقيت الحدود مفتوحة أمام البربر ، فكان على سليمان أن يبني مجموعة من المواقع المحصنة : حصن تاغورة ، وقصر مادور ، وحصن تيارزا ، وموقع سانتيناريوم والمدينة القوية تيجيس لإغلاق التل في وجه الجبليين .

في 536 لم تكن صعوبات سليمان قد انتهت ، إذ كان عليه أن يواجه تمردا للجنود : تحركت فرق كثيرة فكان عليه أن يفر في 536 . تواصلت الاضطرابات ، وكان على بليزير أن يتدخل بنفسه ، فأسند العزاية بإعادة تنظيم السلطة الى جيرمان شقيق الإمبراطور . وفي 539 رقي سليمان للمرة الثانية الى وظائف الحاكم ، فقام بحملة صد الأوراس . ونزع أيوداس الجريح الى موريطانيا ، وعثر البيزنطيون على خزائن الملك ، واحتلوا موقعين استراتيجيين ؛ أجبروا بربر الحضنة وناحية ستيفيس على الخضوع . ومارس سليمان حتى تاكدت إن كان ابن خلدون صادقا .



مادور. القلعة البيزنطية والمزينة في أول الصورة.

إعادة تنظيم إفريقيا البيزنطية

أراد جوستينيان أن يمنح المقاطعات الإدارة التي عرفتها قديما لمحو ذكرى « عبودية الوندال ». فعلى رأس الحكم عامل، أي شخصية كبيرة تقيم في قرطاجة عاصمة أسقفية خاصة كذلك. كان لعامل الحاكمية صلاحيات سامية : تشريع وإدارة وعدل ومالية. وتحت سلطته سبع حكومات، من بينها في الجزائر، حكومات نوميديا وموريطانيا الأولى أو السطايفية وموريطانيا الثانية (القبصرية والطنجية)، كان يفودها رؤساء praesides لهم كل صلاحيات الحكام الرومان القدامى.

أوصى الإمبراطور حكامه بإعارة اهتمام خاص للسكان ومعاملتهم « طبقا للتعليمات وفي خشية الله ». ولم تكن هذه النوايا مهمة، فقد كان الإمبراطور يريد أن يرى مقاطعته « مصلحة ومزدهرة »، حيث كما يريد أن يرى دافعي الضرائب قادرين على أدائها وهي التي كان في حاجة اليها لاصلاح المالية ومواجهة أعباء حرب إفريقيا والمؤسسات المستقبلية. وقد احتكر هو لنفسه استغلال دافعي الضرائب.

كانت أداة التواجد البيزنطي هي جيش الاحتلال قبل كل شيء، وزعت فرق الحدود بين مسيرات مختلفة عسكرية، والبعض الآخر منها وزع على البلاد. وقسمت الجزائر من وجهة النظر العسكرية الى دائرتين : نوميديا وموريطانيا على رأسيهما حاكمان عسكريان مقيمان في قسنطينة وقبصرية. وغطى جوستينيان الحدود العسكرية بالعديد من المنشآت العسكرية. على طول الليمس خط أول من المدن المحصنة مرتبطة بمواقع متتالية مشيدة جيدا، ومزودة بالماء والأحياء، مكلفة بقطع الحدود وحراسة البربر. وإلى الخلف خط آخر من المراكز الأكثر أهمية مع كبريات المدن والمعازل القوية لحماية المسالك الأساسية.

كانت حدود نوميديا تبدأ بموقع تيفاست الهام والقوى أين كانت تنفذ من جميع الجهات طرق هامة، ثم تمتد بعد ذلك على طول السفح الشمالي للأوراس أين كانت طرق الغزو عديدة على مجال 200 كلم. وضاعف البيزنطيون مواقعهم كذلك. وكانت المراكز الأساسية فيجيزالا (Vegesala) قصر

الكلب) وسيديا Cedia (أم كيف) وماسكولا (خنشلة) وباغاي (قصر باغاي) وتوموقادي (تيمقاد) ولامبيزيس (لامبيز) . كانت توجد أيضا بعض المواقع المتقدمة في الجنوب ، مثل مركز بالقرب من طولقة ؛ الى الغرب من طريق بسكرة - لامبيز في المنفذ الواسع بين شطوط الحضنة والجبال كان ينتصب مركزا توبونا Tubunae (طبنة) اليوم مخرب تماما والى الخلف قليلا لاميريدي Lambiridi (أولاد عريف) ولاماسبا (مروانة) (زرغة) وذيراى (زغاية) وديانا (عين زانة) وزابي جستينيانا Zabi Justiniana (مسيلة) وتامالا Thamalla (رأس الواد) وهي في المجموع 22 موقعا تقريبا .

تيمقاد . مخطط الحصن البيزنطي

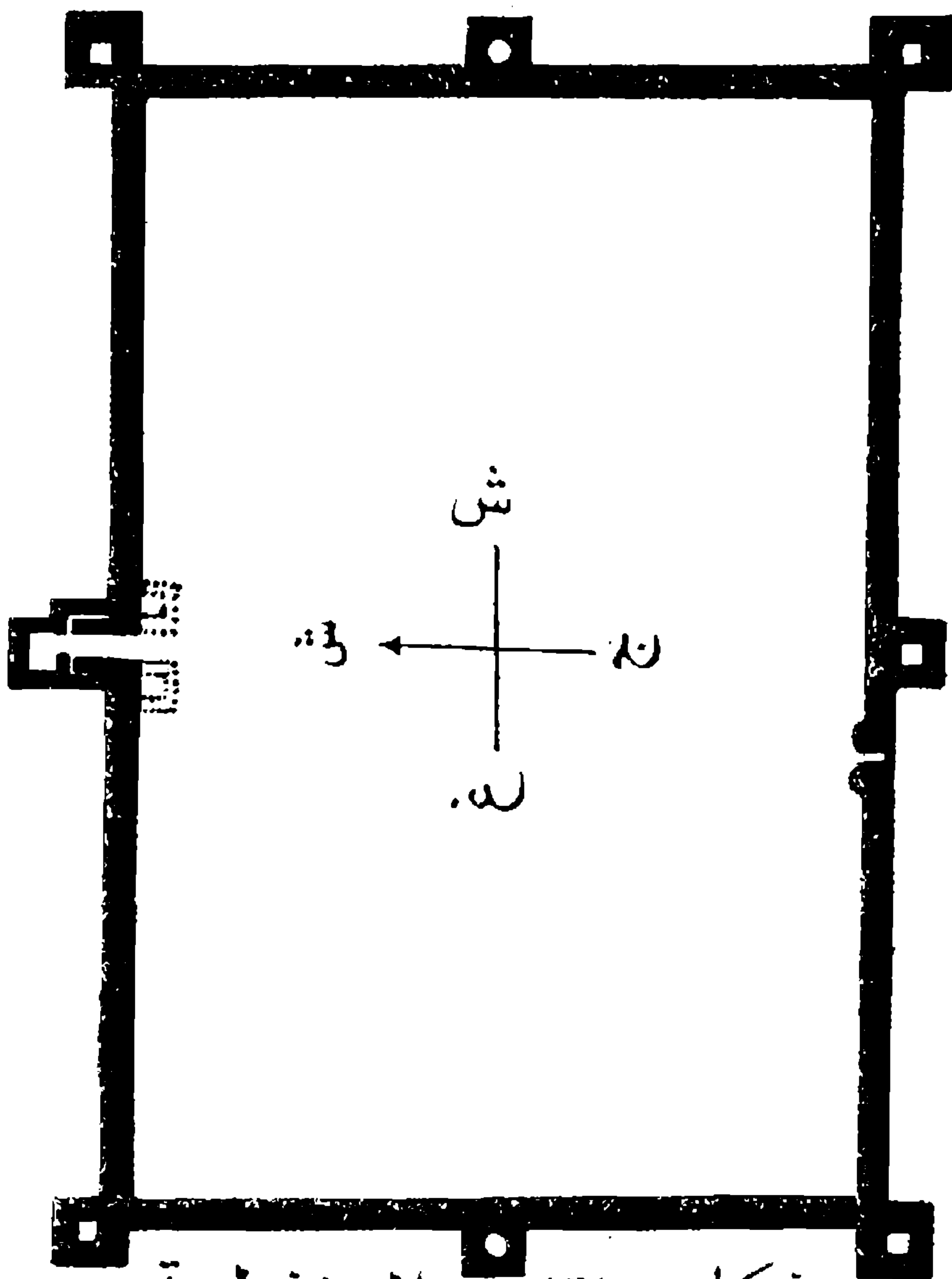
الحضيرة ذات الشكل المستطيل المحصنة في الزوايا الأربعة بواسطة قلاع مربعة ، في وسط كل ستارة تنتصب قلعة أخرى مربعة ، والجدران غالبا ما تبلغ ارتفاع ستة وسبعة أمتار ، يتراوح السمك بين 2ر40 و 2ر70م . وتبلغ أضلاع الزوايا 7م على 6م والدخول من داخل القصر عبر ممرات ضيقة .

Ch. Diehl, L'Afrique Byzantine, Paris, 1896p.200

في موريطانيا السطافية تصعد الحدود من زابي جستينيانا لتدرك مجانة ثم وادي بوسالم ويشرف عليها الموقع المنيع لسطيف . توجد بعد ذلك مواقع في كويكول (جميلة) وميلوف (ميلة) ، على الساحل توجد ايجيلجيلي (جيجل) وشوبا (زيامة) صالداى (بجاية) .

أما في موريطانيا القيصرية فلم يحوزوا البيزنطيون الا على قيصرية وبعض المواقع . والى هذه المقاطعة نرح بربر الشرق لمواصلة مقاومتهم . وعلى الساحل يبدو أن اليونانيين قد أقاموا في روزيبيزير Rusippisir (عزفون) ، في روسوكورو (تيفرت) وفي روسغونيا (رأس ماتيفو) وتيبازا وغونوغو (غورايا) .

تيمقاد



شكل القلعة البيزنطية

الحكومة البيزنطية

والسكان البربر

في نوميديا أضحت الكتلة الجبلية للأوراس مركز دولة هامة. فقد تمكن قائدها ايوداس من احتلال السهول الواقعة شرق وغرب الكتلة الجبلية، وكان يدفع الهجومات حتى التل. وكان له نفوذ كبير في جنوب الكتلة الجبلية أين كان السكان الصحراويون حوالي مركز أوفياء له. وأقامت على السفح الشمالي للأوراس قبائل مطاردة من طرف ابيزنطيين. في شمال نوميديا تجمعت قبائل أخرى حول الملك البربري ايفيسداياس. وفي موريطانيا اقتطع قادة بربر أراضي واسعة؛ قادة أورتاياس في القرن السادس قبائل جنوب موريطانيا السطائية، وفي الباهورس Bahors؛ كان يسود ماسنيغاس في موريطانيا القيصرية، وفي جنوب التل الوهراني كان مازونا يحكم في القرن السادس تحت لقب ملك «المور والرومان» وربما كان ايوداس أعظمهم فهو عاهل طموح وصاحب شجاعة محسوسة «في مأمن جبال المنيع كان يعرف ينهك خصومه بواسطة حرب كمائن طويلة الأمد. يظهر أنه كان صلبا في مقاومته العنيدة؛ فبدلا من أن يتخلى فإنه سترك نفسه للمطاردة من دولة».

كان البربر يخوضون حياة خشنة في بلادهم، وقد ترك لنا بروكوب لوحة مؤثرة عنهم رغم بعض المغالاة. أرغمت بعض القبائل على الخضوع، هناك اتفاقية محددة تنظم العلاقات المستقبلية بين الطرفين. حيث يصبح القادة البربر أتباعا وكانوا يستلمون نياشينهم: العصا وتاج والفضة والمعطف الأبيض والنعال المرصعة بزيئة الذهب. كان الإمبراطور يلتزم بدفع إعانة مالية لهؤلاء القادة وفي المقابل كان على هؤلاء الأخيرين أداء الخدمة العسكرية. حيث كانت القبائل تقدم وحدات الفرق غير المنتظمة foederati أو gentiles. وكان القادة مكلفين أيضا بالحفاظ على الأمن في قبائلهم. وكان الحاكم العام ودوقات كل مقاطعات يراقبون هؤلاء الأتباع.

كانت الدعاية الدينية وسيلة للسيطرة. حقا فقد سهل إحترام البربر لديانة المصلوب والاكليروس مهمة اليونانيين. ففي كل يوم كانت الأثودوكسية تحقق غزوا، وفي بداية القرن السابع كانت هناك طوائف مسيحية تعيش في

مدن الساحل، بل وفي مدن الداخل كذلك : لامبديا (لمدينة) وأوييدوم
نوفوم (عين الدفلة) ويوماريوم (تلمسان) وألتافا (أولاد ميمون) واهندي
ماكورينا الونشريس الى المسيحية في 569 ، وتوجد في الجدران شعارات
مسيحية كثيرة. لقد كان النفوذ البيزنطي يتسع تحت ستار الدين.
لكن رغم خضوعهم لم يكن البربر ليتخلوا عن النضال، فأية اتفاقية
لم تكن لتفرض سلما دائما. فلا شيء استطاع أن ينسي البربر في الاستقلال،
وأقل من ذلك الاتفاقيات المفروضة. أنه هذا الرفض الذي سماه المحتل
خداع البربر.

كان على البيزنطيين أن يواجهوا انتفاضة عامة جديدة في 544. فقد
استغلت القبائل البربرية تمرد العساكر البيزنطيين لاستئناف النضال ومقاتلة
سليمان الذي قتل. عين الإمبراطور جون تروغليتا Jean Troglita حاكما بيزنطيا
في تونس وناحية قسنطينة، أما باقي الجزائر كله فقد أضحى مستقلا.

في حوالي وسط القرن السابع كانت السيادة البيزنطية تمتد على الأقل
مظهيريا على جزء نوميديا أين كان اليونانيون يحتلون في قدم الأوراس باغاي
وتاموغادي ولاميز وكان لهم بعض النفوذ على السكان المسيحيين في الزاب
وفي موريطانيا القيصرية. وأضحى الموظفون مستقلين عن السلطة المركزية
ولم تعد القبائل الفيدرالية تدفع شيئا. والعديد من الدول البربرية نظمت
نفسها : جروة، وايفرن ومغراوة في الأوراس، وأوربة الذين كانوا يستحقون
قيادة كل الشعب البربري في موريطانيا القيصرية، كما يقول ابن خلدون.
في الغرب كانت توجد قبائل زناتة، وهذه القبائل لم تتبع سوى مصالحها
وكانت قليلة الانشغال بالتحالف مع البيزنطيين. يوضع لنا ابن خلدون البيزنطيين
المتجولين عن الجبال والبلاد المنبسطة للبربر. كانت الخصومات أيضا مصدر
آخر لإضعاف البيزنطيين.

لقد دق وصول العرب ومجيء الإسلام قرع حزن الإمبراطورية الرومانية.

الجدار

نصوص :

في طرف جبال فرندة، حيث يستند الحد الغربي لمسور، يتصب جبل الأخضر وجبل عروى. على هذين الموقعين المهيمنين اللذين يبلغان بالتالي 21 . 1 و 282 . 1 م من الارتفاع، تتصب الأضرحة البربرية للعصر البيزنطي المعروفة بالاسم العربي جدار. تبدو ومن بعيد وكأنها تسترج بقمم الجبل بقدر الاندماج الوثيق بالمظهر الطبيعي المحيط بها. هذا النسب البالغ عددها ثلاثة عشر منقسمة الى مجموعتين : ثلاثة منها توجد في جبل الأخضر وعشرة تحتل مرتفعات جبل عروى. تسمح إعادة استعمال النقوش الجنائزية التي استخدمت في بعضها بمنحها تاريخا متأخرا : إنها متأخرة عن نهاية القرن الخامس الميلادي. ولا شك أنها شيدت في سبيل عائلات كبيرة محلية وسعت سلطتها على ناحية تيارت، بفضل تراجع السيطرة الرومانية في موريطانيا القيصرية. فتواجد هؤلاء الأمراء مؤكد بواسطة مقطع لابن خلدون، يروى فيه المعركة التي شنّها الأمراء البربر ضد سيدي عقبة. إن بناء الأضرحة، التي يتصب فيها الميل الى العظمة، قد أملت الإرادة في منح الذرية فكرة سامية عن قوتهم. وبفعل وضعيتها المهيمنة على السهل وشكلها المدهش فإن الجدران لا تنقصها العظمة رغم خرابها الحالي.

تحتوي على قاعدة مربعة يعلوها هرم متدرج. ويوجد منفذها في الجهة الشرقية. ونختفي أروقة الدخول والغرف الجنائزية في داخل كتلة النصب. شيدت بعض التحضيرات الثقافية خارج النصب، الى الأمام من الجهة الشرقية. إنها تنتمي الى الأضرحة الكبيرة ذات التقليد البربري مثل الميذرأسن والضرع الملكي لموريطانيا، ولكنها تمتلك بعض الصفات الخاصة بها.

Fatima Kadra Djedar de Freneda dans El Djezair 1970 N° 12 pp. 60 – 61.

ردّ المور على سليمان

لَمَّا علما سليمان Salomon بمجزرة إيفان Aigan وروفين Rufin استعد للحرب، وكتب الى قادة المور بهذه العبارات : « لقد شهد العال دائما الكثير من الحماقات التي لقيت حتفها بسرعة، ولم يتمكن من توقّ مخرج لمشاريعها الجنونية. لكن انتم الذين أمامكم مثال جيرانكم الوندال، خذرتم بسقوطهم، فأى جنون يدفعكم للتضحية بحياتكم، ولحمل السلاح ضد مثل هذا الإمبراطور القوي ؟ أتسون عهودكم الرسمية الموقعة بأيديكم، وأطفالكم المسلمين كرهائن ؟ أتريدون أن تقولوا للدنيا أنكم لا دين ولا إيمان ولا عناية لكم بأقاربكم ؟ اذا كنتم تؤمنون الله بهذه الطريقة، فمن يكون عونكم في الحرب ضد إمبراطور الرومان ؟ إن كنتم تجهلون بدايكمها دون فقدان أطفالكم، فما هو السبب القوي الذي يجعلكم تواجهون الأخطار ؟ فكروا؛ واذا ندمتم على أخطائكم برهنوا لي عن ذلك برسالة. اذا لم تضعوا حدا لذنوبكم الكبيرة، انتظروا لترونا قادمين اليكم مسلحين بالعهود التي انتهكتوها، وبالآلام التي فرضتموها على رهائنكم ». تلك كانت رسالة سليمان، وها هي إجابة المور : « التزم بليزير تجاهنا بوعود درائعية للإعتراف بسلطة الإمبراطور جستينيان؛ لكن الرومان، دون أن يقدموا لنا أي شيء، وجالين لنا حتى المجاعة، يريدوننا أصدقاء وحلفاء. أوليس واضحاً أنكم أنتم الذين تنتهكون وعودكم وليس المور، الذين يحطمون تحالفا بسبب مظالم بيّنة. ولا يستحقون بغض الله أولئك الذين يهاجمون الفاصيين لإعادة أملاكهم الخاصة، لكن الذين يبدأون الحرب والذين ينهبون ثورة الغير هم الذين يستحقون ذلك. إنكم أنتم، الذين لاتستطيعون أن تأخذوا سوى امرأة واحدة، تصابون بالعناية بأطفالكم؛ أما نحن، الذين نستطيع أخذ خمسين، فلا نخشى نقص الذرية ».

D'après Procope cité par Dureau de la Malle, L'Algérie, Paris, 1852

pp. 278 - 279

النايك العسكري البربري

أكيد أن البربر كانوا بالسلاح أدنى بكثير من البيزنطيين، وتبين أن الجنيرالات الإمبراطوريين يعاملونهم باستخفاف كخصوم لا دفاع لهم. فأقدمهم وأذرعهم عارية، والجسم والرأس ملفوفان في برنوس من النسيج، وليس لهم، مشاة وفرسانا، سلاح دفاعي آخر سوى درع صغيرة من الجلد؛ للهجوم يتسلحون بسيف قصير وعريض، بالإضافة الى ذلك يحمل كل واحد منهم رمحين طويلين ومتينين : لكن هذا التجهيز الخفيف يسمح لهم بحركة فائقة، ويكتفون بهذه الميزة لإنهاك وتطوير وتحطيم المشاة البيزنطيين. مثل ما يفعل الرحل، يصطحبون، في جولاتهم، الأطفال وقطعان القبيلة خلفهم : لكن ذلك ليس عائقا لهم في مسيرتهم كما يتبادر الى الذهن : فالدواب، كما سيتضح بعد قليل، لها دورها في المعركة؛ النساء بإقامتهن لتحصينات المخيم، والعناية بالخيل وتوفير الأسلحة يجعلن المحاربين أكثر حيوية للنضال، انهن، زيادة على ذلك، قد شاركن في المعركة بحدة أكثر من مرة. أما بشأن الأهالي فإنه يتحدد بمعرفتهم الجيدة للبلاد وبالتفوق العددي لخيلتهم التي لاتحصى. يعجبهم أن يخوضوا حرب مناوشات وكمائز، محتلين ممرات الجبال الصعبة، مخترقين خلف الأخشاب أو في أسرة السيول الجافة : يحبون أن يباغتوا العدو في مسيرته، وأن يحدثوا حول صفوفه شبه المنهكة دوامة الجولة السريعة بسراياهم؛ فيتفوقون على الفرار البار الذي يقود الخصم الى متابعة حذرة ويجرونه، منهوكا بدون نظام، الى الفخ المحضر بعناية؛ يناوشونه بمئة غارة ثانوية ودائما يتوارون أمامه، دون المخاطرة بمعركة منتظمة أبدا، دون القبول بمعركة مواجهة مخططة في السهل بصفة خاصة؛ يتشبثون بالمرتفعات، محتلين القمم، محتمين بجذوع الأشجار، مراقبين سير العدو لاستغلال أقل اضطراب للانقضاض على معسكر سيء التحصين، لأخذه في وقت القيلولة، يصطنعون التراجع وأحيانا يصطنعون الهزيمة لخداع الخصم وجزه لملاحقتهم في الجهات الصحراوية أين يحطم الجوع والعطش والحرارة شجاعته؛ حتى أنهم يحدثون الضرر أمامه لإنهاكه أكثر. للإتحاق بهؤلاء الفرسان الذين يتعذر القبض عليهم ولاجبارهم على

نشاط حاسم، فإن طريقة قتالهم تبلبل كل التوقعات. يشكلون في وسط السهل تحصينا واسعا دائريا بجمالهم المصنفة في خطوط عديدة مميكة : وراء هذا الدفاع الأول يقيمون الباقي من قطعانهم، أبقارا، وأغناما، وماعزا مربوطة بعضها لبعض بأحكام، وداخل هذا الجدار الحي حبال ممدودة ومذاري وأوتاد مفروزة في الأرض وأفخاخ منصوبة على الأرض، أما الأطفال والشيوخ فيتركون لحراسة المخيم وحين يدرك المشاة أنهم غير قادرين على مواجهة صدمة الخيالة البيزنطية، يختفون في طرف التحصين بين أفخاخ الجمال ويريدون بحرابهم هجومات الخصم؛ تتخذ الخيالة موقعها على المرتفعات المجاورة، مستعدة لتنهال على مؤخرة أو جناح السرايا العدو المبللة : يقدر الأهالي بالفعل أن مشاهدة وخوار الجمال يربحان خيول البيزنطيين ويحطمان حماسة الهجمة الأولى بدون مشقة. ولاقناع اليونانيين بأفضلية الهجوم، يبتخر بعض الفرسان المتخفين أمام صفوف البيزنطيين، بعض فصائل الخيالة البربرية تهاجم وتطلق صراخا عنيفا كذلك، وتستعجل المعركة : لكن حين اندحارها أو فرارها تقود السرايا اليونانية الى حاشية المخيم وحينئذ ينكشف التكتيك الأهالي بنجاح كامل : أمام جمال هائجة تفرّ الخيول أو تهيج فينقض المشاة الخارجون من مخابثهم على الخيول الهائجة أو المنهكة، في حين يكمل النازلون من المرتفعات الهزيمة بهجماتهم.

D'après le Bellum Vandalorum de Procope et le Iohannidos libri de Corripus dans Ch. Diehl, L'Afrique byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (539 – 709), Paris, 1896, pp. 58 – 61.

الفهرس

الفصل الأول :

7 الجزائر في ماقبل التاريخ

الفصل الثاني :

25 البربر

الفصل الثالث :

41 الجزائر والفينيقيون

الفصل الرابع :

55 الممالك البربرية الأولى

الفصل الخامس :

67 حكم ماسينسا

الفصل السادس :

89 حرب يوغرطة

الفصل السابع :

105 أواخر الملوك البربر

الفصل الثامن :

123 المقاومة البربرية والإحتلال الروماني

الفصل التاسع :

145 « الجزائر » المستقلة

الفصل العاشر :

165 الإستغلال والسيطرة الرومانيتان

الفصل الحادي عشر :

181 الرومنة. المدن

الفصل الثاني عشر :

203 الرومنة. الأدب النوميدي - الموريطني

الفصل الثالث عشر :

219 نهاية روما

الفصل الرابع عشر :

231 الجزائر والوندال

الفصل الخامس عشر :

247 الجزائر والبيزنطيون

طبع بمطابع المؤسسة الوطنية للكتاب
3 شارع زيوروت يوسف - الجزائر
بمطبعة بساب للزوار

<https://albordj.blogspot.com>